مواهب الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الأول

الطبعة الأولى

1406 هـ - 1986 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، وأفضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآلـه وصحبه أجمعين.

<3>

مقدمة

الحمد لله المعطي المنان، المتجلّي على عباده بالرحمة والإحسان، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا محمد الذي أنزل عليه القرآن، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فلا يخفى أن القرآن الكريم منبع لدين الاسلام، ومرجع المسلمين في العقائد والأحكام. وقد خوّل الله تعالى رسوله بيانه، فقال ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فبينه أحسن البيان، وقد فسره أئمة هذه الأُمّة بما وصلت إليه طاقاتهم، آخذين من النصوص الإلهية، والسنة النبوية، وإجماع الأمة المحمدية، وآراء العلماء المجتهدين المخلصين؛ فنشروا بين المسلمين تفاسير: مختصرة، ومطولة، ومتوسطة، حسب قرائحهم النفسية، ومنائحهم القدسية. ولكن لما كان لكل زمان أوضاع خاصة مبيَّنة، ومشاكل مهمة معيّنة، واقتضى زماننا التعرض لبيان الحق في مهمات واردة. طلب مني بعض الأصدقاء أن أكتب تفسيراً يعالج ما كنا نبغيه. وإني مع قلة بضاعتي في هذا الشأن، وضعف استطاعتي

لاقتحام هذا الميدان.. تـوكلت على اللـه المنـان، واعتمـدت على حولـه وقوّته، وأخذت في التفسـير المرغـوب، نـاقلاً أو مسـتنبطاً من تفاسـير الأئمـة الكبـار، كـالقرطبي، والامـام الـرازي، والبيضـاوي... وغـيرهم، واقتصـرت على الـرّاجح الـذي يطمئن بـه القلب، ذاكـراً بيـان أسـبابِ الـنزول بقـدر الإمكـان، وسـمّيت تفسـيرى هـذا (مـواهب الرحمـان في تفسير القرآن) بسلامة البيان، سائلاً مِن منّه سبحانه وتعالى أن ينفعني والمسلمين به في الدارين. إنه الكريم المنّان.

ولنقدم على المقصود أموراً مهمة ينبغي للمسلم الاطلاع عليها:

الأمر الأول مبدا التنزيل واول زمانه

قال تعالى: ﴿حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَـةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَـدْرِ... الآيـة﴾ وفي هـذا دليـل على أن الليلـة المباركـة هي ليلـة القدر. وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ﴾ وفي هـذا دليـل على أن ليلـة القـدر في رمضان المبارك؛ فيكون إنـزال القـرآن في ليلـة مباركـة مسـماة بليلـة القدر من لياليه. ولا خلاف في أن القرآن - كمـا في الكتب المعتمـدة - أُنْزِل من اللَّوح المحفوظ ليلة القدر جملةً واحدة. فوضع في بيت العزة في سـماء الـدنيا. ثم كـان جبريـل يـنزل بـه نجمـاً نجمـاً في الأوامـر والنواهي والأسباب في عشرين سنة. قلت: أو في ثلاث وعشرين سـنة على ما هو المذكور في محلّه.

وكان أول ما نزل منه آيات أول سورة العلق. ففي البخـاري الشـريف: أن عروة بن الزبير روي أن عائشة زوج النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قـالت: أول مـا بـدىء بـه رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم الرؤيـا الصادقة في النوم، فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثـل فلـق الصـبح. ثم حُبّبَ إليه الخلاء، فكان يلحق بغار حـراء فيتحنَّث فيـه (والتحنث: التعبـد الليالي ذواتَ العدد قبل أن يرجع إلى أهله) ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد بمثلها حتى فَجَأَه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملـك، فقـال: إقـرأ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مـا أنـا بقـارئ. قـال: فأخـذني فغطَّني حـتى بَلَـغ منّي الجهـدَ. ثم أرسـلني. فقـال: إقـرأ. قلت: مـا أنـا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد. ثم أرسـلني فقـال: إقرأ. - قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ منّي الجهد.

ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَـقَ (1) خَلَـقَ الْإِنْسَـانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَـانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ.. الآيـات﴾ فرجـع رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ترجـف بوادره حتى دخل على خديجة. فقال: زَمِّلـوني زَمِّلـوني. فزمّلـوه حـتى ذهب عنه الـرّوع. قـال لخديجـة: أي خديجـة مـا لي؟ لقـد خشـيتُ على نفسي؛ فأخَبَرها الخبرَ. قالت خديجـة: كَلَّا أَبْشِـرْ فواللـه لا يُخزيـكَ اللـه أبدا. فوالله إنك لَتَصلُ الرَحِمَ، وتَصْدُقُ الحَديث، وتَحمِلُ الكَـلَّ، وتُكسِـبُ المَعدوم، وتُقرِي الضّيفَ، وتُعينُ على نوائب الحق.

فانطلَقتْ به خديجةُ حتى أَتَتْ به ورقَـةَ بن نوفـل، وهـو ابن عم خديجـة أخي أبيها. وكان امْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهليـة، وكـان يكتب الكتـاب العـربي، ويكتب من الأنجيل بالعربية ما شاء الله أَن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قـد عمي. فقالت خديجة: يـا عم إسـمع من ابن أخيـك. قـال ورقـة: يـا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم خبر مـا رأى. فقـال ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسـى، ليتـني فيهـا جـذعا، ليتـني أكون حيا (ذكر حرفا). كذا في هذه الرواية وتقدم في بدء الوحي بلفـظ (اذ يخرجك قومك) قال صلى اللـه عليـه وسـلم: أَوَ مُخـرِجِيَّ هُمْ؟ قـال ورقة: نعم لم يأت رجل بما جئت بـه إلا أوذي. وإن يـدركني يومـك حيّـاً انصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفترِ الوحي فترة أي إنقطع نزوله عليه صلى الله عليه وسلم مدة من الزمان.

وفي صحيح البخاري وهـو يحـدث عن فـترة الـوحي: فقـال في حديثـه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بَصري فـإذا المَلَـك الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض،

فرُعِبْتُ منه، فَرجَعت فقلتُ: زَمِّلـوني زَمِّلـوني. فـأنزل اللـه عـز وجـل: ﴿يَاأَيُّهَـا الْمُـدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْـذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَـكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحَمي الوَحْيُ وتواتر انتهى.

ومما ينبغي أن يعلم أن فتـور الـوحي وانقطاعـه عنـه صـلى اللـه عليـه وسلم كان في ثلاث نوبات:

الأولى: بعد نزول جبريل عليه السلام عليه صلى اللـه عليـه وسـلم في غار حراء أول مرة إلى أن نزلت عليه سورة المدّثر.

والثانية: بعد سؤال اليهود عنه صلى الله عليـه وسـلم عن الـروح، وذي القرنين.

والثالثة: قبيل نزول (سورة الضحى) لحادث السرير المشهور من وجود جرو كلب تحت سريره صلى الله عليه وسلم ولم يدر به.

وان مدة فتوره في النوبـة الأولى - وان ورد أنهـا كـانت سـنتين ونصـفاً في رواية، أو ستة أشهر في أخرى - لكن ما حققه صـاحب فتح البـاري في شرح صحيح البخاري أنها كانت أياماً ولم تحـدّد. وفي النوبـة الثانيـة كانت اثنتي عشرة ليلـة. وفي الثالثـة كـانت ثلاثـة أيـام فقـط. ثم تتـابع الوحي على العادة...

وخلاصة الأمر: انه صلى الله عليه وسلم نُبِّئ في ربيـع الأول على رأس أربعين سنة من عمره الشريف. فكان الوحي رؤىً صادقة إلى رمضان. وجاءه جبريل في الثامن عشر منه. وقرأ عليه أوائـل سـورة العلـق. ثم نزل عليه الوحي بالقرآن في مدة ثلاث وعشرين سـنة عـدا أيـامَ فتـورٍ الوحي كما علمته سابقاً.

الأمر الثاني تنزلات القرآن الكريم

وهي ثلاث:

التنزل الأول: إلى اللوح المحفوظ، ودليله قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُـرْآَنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)﴾ وهذا الوجود فيه لا يعلمـه إلا اللـه تعالى، ومن اطَّلَعه على غيبه.

التنزل الثاني: للقرآن الكـريم هـو من اللـوح المحفـوظ إلى بيت العـزة في السماء الدنيا، والـدليل عليـه قولـه تعـالى في سـورة الـدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وفي سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وفي سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآَنُ﴾ دلت هـذه الآيات على أن القرآن أُنزل كله في ليلة واحدة.

التنزل الثالث: هو تـنزل المَلَـك الأمين جبريـل بـأمر اللـه سـبحانه على قلب النبي صلى الله عليـه وسـلم لفظـاً لفظـاً حسـب أمـره تعـالى بلا زيادة ونقصان. ودليله قوله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكـون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾. وبهذا النزول أشَعَّ النورُ على العـالم وَوَصَلَتْ هداية الله إلى الخلق. فطوبى لمن آمَنَ به وعَمل به، ففـاز بـه سعادة الدّارين.

الامر الثالث

كيفية أخذ جبريل للقرآن الكريم وعمن أخذ. وهذا من أنباء الغيب وفيها أقوال: وأَوْفَقُها وأَوقَعُها هو أنّ جبريل عليه السلام أخَذَ القرآن عن ذات الباري سبحانه وتعالى كما اَسْمَعَ اللهُ كلاَمـه رسـولَه محمـد صـلى اللـه عليه وسلم ليلةَ المعراج، ورسولَه موسى في الوادي

الأيمن، وما ذلك على الله بعزيز. ويؤيده ما أخرجه الطبراني من حديث النوّاس بن سمعان مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا تكلّم اللهُ بالوحي أخذتِ السماء رجفةً شديدة مِنْ خَوْف الله. فإذا سمع أهل السماء صَعِقوا وخرّوا سُجّدا، فيكون أوّلهم يرفع رأسَه جبريلُ، فكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به إلى الملائكة فكلّما مَرّ بسَماءٍ سألَه أهلُها: ماذا قال ربُّنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أُمِرَ.))

الامر الرابع

دليل نزوله مُنَجّماً مفرقاً في مدة الرسالة، قوله سبحانه وتعالى في سورة الاسراء: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ وقوله في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

روي أن الكفارَ من يهودَ ومشركين عابُوا على النبي صلى الله عليه وسلم نزول القرآن مُفرَّقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملة. فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم، وهذا الرد يدل على أمرين:

أحدهما: أن القرآن نزل مُفرَّقاً على النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة. كما إشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً.

وفي هذا التنجيم اربع حِكَمٍ رئيسية:

الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: إن في تجـدد الـوحي وتكـرار نـزول المَلَـك بـه من جـانب الحق إلى رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم سـروراً يملأ قلب الرسـول، وغبطةً تشرح صدره.

الوجه الثـاني: إن في التنجيم تيسـيراً عليـه من اللـه تعـالى في حفظـه وفهمه، ومعرفة أحكامِهِ وحِكَمِـهِ، كمـا أنّ فيـه تقويـة لنفسـه الشـريفة على ضبط ذلك كلّه.

الوجه الثالث: أن في كل نوبـة من نوبـات هـذا الـنزول المنجم مُعجـزةً جديـدة غالبـاً. حيث تحـدّاهم كـل مـرة أن يـأتوا بمثـل نوبـة من نوبـات التنزيل. فظهر عجزهم عن المعارضة. ولا شك أن في هذا تثبيتـاً لقلبـه صلى الله عليه وسلم.

الوجه الرابع: أن في تأييد حقه وإدحاض باطل عدوه المرة بعد الأخـرى تكراراً للذة فوزه بالحق والصواب. وكل ذلك مشجع لقلبه الشريف.

الوجه الخامس: تعهّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بمـا يخفف عليه هذه الشدائد. وفي هذا التخفيـف تسـلية وتثـبيت لـه صـلى الله عليه وسـلم وفيهـا يقـول اللـه تعـالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ - سورة هود -، ويقـول: ﴿وَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. في سـورة الطـور، ويقـول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ في سورة المائدة.

الحكمة الثانية: التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعَمَلاً.

وتحت هذا وجوه خمسة أيضاً:

الوجه الأول: تيسير حفظ القرآن على الأمّة العربية، وقد كانت آنذاك أُمَّةً أميّه.. ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة لدى المكاتبين، مع اشتغالها الشديد بأمر الجهاد، وبتحصيل أمورِها المعاشية. فلو نزل جملةً واحدة لَعَجَزوا عن حفظه.

الوجه الثاني: تسهيل فهمه عليهم كذلك مثل ما سبق في تسهيل حفظه.

الوجه الثالث: التمهيد لكمال تخليّهم وابتعادهم عن عقائدهم الباطلة شيئاً فشيئاً. بسبب نزول الآيات شيئاً فشيئاً. فكلما نجح الإسلام في هدم عقيدة فاسدة إنتقل بهم إلى هدم أخرى.

الوجه الرابع: التمهيد لتحليّهم بالعقائد الحقة، والعبادات الصحيحة، والأخلاق الفاضلة شيئاً فشيئاً، ولهذا بدأ الإسلام بمنعهم عن الشرك والضلال، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، من أجل أن فتح القرآن عيونهم بأدلة التوحيد وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسئولية والجزاء. ثم إنتقل بهم بَعْدَ هذه المرحلة إلى العبادات. فبدأهم بفرض الصلاة قبل الهجرة. وثنّى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة وختم بالحج في السنة السادسة منها.

الوجه الخامس: تثبيت قلوب المؤمنين بعزيمة الصبر واليقين بما يقصّه القرآن عليهم من قَصَص الأنبياء والمرسلين، وما جرى عليهم وعلى أتباعهم من الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصالحين من الأجر.

الحكمة الثالثة: مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها، وتفرقها فكلما حدث شيء جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وبيّن الله لهم من أحكامه ما يوافقه، وتحت هذه الحكمة أمور أربعة:

الأول: إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول صـلى الله عليه وسلم سواء كـانت تلـك الأسـئلة لغـرض إمتحانـه وتثبتهم من رسالته كما في أسئلة أعدائه عن الـروح. وعن ذي القـرنين. أو لغـرض التنور والإسـتفادة، ومعرفـة حكم اللـه تعـالى، كمـا في سـورة البقـرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَـاذَا يُنْفِقُـونَ قُـلِ الْعَفْـوَ﴾ وقولـه تعـالى: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾. ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفـع إليـه صلى الله عليه وسلم في أوقات مختلفة، فلا بد أن ينزل الجواب عليهـا كذلك.

الثاني: مجاراة الوقائع في حينها ببيان حكم الله تعالى فيها عند حـدوثها ووقوعها. ومعلوم أنها لم تقع في يوم واحـد، أو شـهر واحـد بـل وقعت تفصيلاً وتدريجاً.

الثـالث: توجيـه المسـلمين إلى تصـحيح أخطـائهم الـتي يقعـون فيهـا وإرشادهم إلى الصواب. كما في قوله تعـالى: ﴿وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَـيْئًا﴾ الآيـات. فهي تـردع المؤمـنين عن رذيلـة الإعجاب والاغـترار في يـوم من أيـام اللـه. والى وجـوب رجـوعهم إلى رشدهم ويتوبوا إلى ربهم.

الرابع: كشـف حـالِ أعـداءِ اللـه المنـافقين، وهَتْـكُ أَسـتارهم كي يأخـذ المؤمنون منهم حِذرهم فيأمنوا شرّهم. وحتى يتوبَ مَنْ شاء منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)﴾ إلى آخر الآيات الثلاث عشرة الـتي فضـحت المُنـافقين. كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات.

الحكمة الرابعة: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحـده، وأنـه لا يمكن أن يكون كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كلام

مخلوق سواه. وبيان ذلك: أنّا نقرأ القـرآن الكـريم من أولـه إلى آخـره. فاذا هو مُحْكم السّرد، دقيق السبك، مَتين الأسلوب، قوي الإتصال، آخذ بعضه برقاب بعض، في سُوره، وآياته، وجُمَلِه، يجري فيـه روح الاعجـاز من ألِفِهِ إلى يائه كأنّه سبيكةٌ واحدة، أو هيكلِ انسان واحدٍ جميل، جليل القدر، متناسب الأجزاء والأعضاء، مبيّن آيات كونية علويّة وسفلية، بريّة وبحريّة، بحيث يعجز عن فهمها بكمال أكمل أرباب الفنون والصـناعات. وذلـك كلـه بوجـه صـالح للدراسـة، وصـادق بحسـب التأمـل السـليم، وباعتدالٍ تام على الصراط المستقيم.

الامر الخامس

نزول القرآن على سبعة أحرف ودليلُه وبيانُ معناه. اما دليله فهو النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة. وقـد روي حـديث نـزول القـرآن على سبعة أحرف عن جمـع كثـير من الصـحابة. منهم: عمـر، وعثمـان، وابن مسعود، وابن عبـاس، وأبـو هريـرة، وأبـو بكـر، وأبـو جهم، وأبـو سـعيد الخدري، وابن طلحة الأنصاري، وأُبَيّ بن كعب، وزيـد بن أرقم، وسـمرة بن جندب، وسلمانُ بن صُـرَد، وعبـدالرحمن بن عـوف، وعمـرو بن أبي سلمة، وعمـرو بن العـاص، ومعـاذ بن جبـل، وهشـام بن حكيم، وأنَس، وحذيفة، وأُمّ أيّوب إمرأة أبي أيوب الأنصاري رضـي اللـه عنهم أجمعين فهؤلاء جميعاً رووا حديث نزول القرآن على سبعة أحرف.

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير: أن عثمـان بن عفـان رضـي الله تعالى عنه قال يوماً - وهو على المنبر -: أُذكِّر الله رجلاً سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال ان القرآن نزل على سبعة أحرف كلّها شافٍ

كافٍ لما قام. فقاموا حتى لم يُحْصَوْا. فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أُنزل القرآن على سبعة حروف كلها شافٍ كافٍ)). فقال عثمان رضي الله عنه: وأنا أشهَدُ مَعَهم.

وكانت هذه الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب هي التي جعلت الامام أبا عبيد ابن سلّام يقول بتواتر هذا الحديث. أي بالنسبة إلى القرن الأول. وهناك طائفة من الأحاديث الشريفة نسوقها إستدلالا على ثبوت المضمون المذكور:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجَعْتُه، فلم أَزَل أَسْتزيدُه ويزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف))، زاد مسلم: قال ابن شهاب: بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرامٍ.

وروى البخاري ومسلم – أيضاً – (واللفظ للبخاري) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يُقرِئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوِرُه في الصلاة، فانتظرته حتى سلّم ثم لَبَّبْتُه بردائه أو بردائي. فقلت: من أقراك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت له: كذبتَ. فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها. فانطلقت أقودُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: يا رسول الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرِئنيها. وأنت اقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أَرسِله يا عمر. إقرأ

يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعتها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هكذا نزلت. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه.

وروى الترمذي عن أُبَيّ ابن كعب قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة، والغلام. قال: فَمُرْهُم فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف. قال الترمذي حسن صحيح.

وأما معنى الحديث الشريف: ففيه نحو خمسة وثلاثين رأياً والمختارُ منها خمسة:

الأول: وهو الذي عليه أكثر أهل العلم، كما في تفسير القرطبي، أن المراد سبعة أوجه من المعاني المُتقاربة بألفاظ مختلفة؛ نحو: أقبِلْ، وتعالَ، وهلمّ. قال الطحاوي: وأبين ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إقرأ على حرف فقال ميكائيل: اسْتَزِدهُ. فقال: إقرأ على حرفين. فقال ميكائيل: إستزده حتى بلغ إلى سبعة أحرف. فقال: إقرأ. فكلٌّ شافٍ كافٍ، إلا أن تخلط آية رحمةٍ بأية عذاب على نحو: هَلّم، وتَعالَ، وأَقْبلْ، واذهَب، واسْرِع، وعَجِّل.

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ ﴿لِلَّذِينَ آَمَنُوا انْظُرُونَا﴾ للذين آمنوا امْهِلُونا، للذين آمنوا أَخِّرونا.

قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلـف في حلال ولا حرام.

قال الطحاوي: إنما كانت السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخـذ القـرآن على غـير لغـاتهم؛ لأنَهم كـانوا أُمِّيين لا يكتب إلا القليـل منهم، فوسع لهم في إختلاف الألفاظ، إذ كان المعـنى متفقـاً، حـتى كـثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه. فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافهـا. فبان بهذا أن تلك الأحرف السبعة إنما كـانت في وقت خـاص لضـرورة دعت إلى ذلـك، ثم إرتفعت تلـك الضـرورة، فـارتفع حكم هـذه السـبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد.

القول الثاني: قال قوم: هي سبع لغات في القـرآن على لغـات العـرب كلها: يمنها، ونزارها. وليس معناه أن يكـون في الحـرف الواحـد سـبعة أوجه، ولكنها متفرقـة في القـرآن. فبعضـه بلغـة قـريش، وبعضـه بلغـة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن.

القول الثالث: إن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر، وقـالوا: جـائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها الأسد، ومنهـا لهـذيل، ومنهـا لتيم، ومنها لضبة، ومنها لقيس... قالوا: هذه قبائل مضر تستوعب سـبع لغات على هذه المراتب.

القول الرابع: ما حكاه صاحب الـدلائل عن بعض العلمـاء. قـال: تـدبرت وجوه الإختلاف في القراءة، فوجدتها سبعاً. ومنهـا مـا تتغـير حركتـه ولا يزول معناه ولا صـورته. مثـل: ﴿هُنَّ أَطْهَـرُ لَكُمْ﴾. وأَطْهَـرُ. ومنهـا مـا لا تتغير صـورته ويتغـير معنـاه بـالإعراب مثـل: ﴿رَبَّنَـا بَاعِـدْ بَيْنَ أَسْـفَارِنَا﴾ و﴿بَاعِدْ﴾، ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف

الحروف مثل: ﴿نُنْشِـزُهَا﴾ و(ننشـرها). ومنهـا مـا تتغيّـر صـورته، ويبقى معنـاه ﴿كَـالْعِهْنِ الْمَنْفُـوشِ﴾ و(كالصـوف المنفـوش). ومنهـا مـا تتغيّـر صورته ومعناه، مثل: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ و(وطلع منضود). ومنها بالتقـديم والتأخير كقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ و(جاءت سـكرة الحـق بالموت). ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله تعالى: (وامـا الغلام فكـان كافرا وكان أبواه مؤمنين) أي بالنسبة لقوله تعـالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَـانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

القول الخامس: إن المراد بالأحرف السـبعة معـاني كتـاب اللـه تعـالى، وهي أمرٌ ونهيٌ. ووعد ووعيد. وقصص ومجادلة. وأمثال.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفـاً. وأيضـاً فالإجمـاع على أن التوسـعة لم تقـع في تحليـل حلال ولا في تغيـير شـيء من المعاني. وقد قيل: إن المراد القراءات السبع التي قرأ بها القرّاء. لأنهـا صحّت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس بشيء لظهـور بطلانها على ما يأتي.

والمختار من بين تلك المعاني أنّ معنى نزول القرآن على سبعة أحرف نزولـه على سـبع لغـات من لغـات العـرب. وليس معنـاه أن يكـون في الحرف الواحد سبعةُ أوجُـهٍ - وإن جـاء على سـبعة أو عشـرة أو أكـثر - ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن.

فالأحرف بمعنى الأوجه على معنى أَنّ وُجُـوهَ الإختلاف لا تتجـاوز سـبعةَ أوجـه مهمـا كَثُـر ذلـك التعـددُ والتنـوعُ في أداء اللفـظ الواحـد. ومهمـا تعـددت القـراءات وطرقهـا في الكلمـة الواحـدة. فكلمـة ﴿مَالِـكِ يَـوْمِ الدِّينِ﴾ التي ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة أو العشرة، وكلمة

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ التي ورد أنها تقـرأ بـاثنتين وعشـرين قـراءة، وكلمـة ﴿أُفٍّ﴾ التي أوصل الرمّانِيّ لغاتِهـا إلى سـبع وثلاثين لغـة... كـل ذلـك لا يخرج التغاير فيه على كثرته عن وجوه سبعة.

بقي أن تتساءل ما هي تلك الوجوه السبعة التي لا تخرج القراءات عنها مهما تنوّعَت وتكثّرتْ في الكلمة الواحدة؟ والذي اختاره المحققون من بين الآراء العديدة في الموضـوع هـو مـا ذهب إليـه الإمـام أبـو الفضـل الرازي في اللوائح إذ يقول:

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف:

الأوّل: إختلافُ الأسماء من إفرادٍ، وتثنية، وجمعٍ، وتذكيرٍ وتأنيث...

الثاني: إختلاف تصريف الأفعال من: ماضٍ، ومضارع، وأمرٍ.

الثالث: إختلاف وُجوهِ الإعراب.

الرابع: الإختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الإختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الإختلاف بالإبدال.

السابع: إختلاف اللغـات (يعـني اللهجـات) كـالفتح، والإمالـة، والـترقيق، والتفخيم، والإظهـار، والإدغـام وغـير ذلـك... غـير أن النقـل لم يُشـفع بتمثيل لما ذكر.

وقال الزرقاني: ويمكن التمثيل للوجه الأول منه، وهـو إختلاف الأسـماء بقولـه سـبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَـاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُـونَ﴾ قـرئ هكـذا (لأماناتهم) جمعاً، وقريء (لأمانتهم) بالإفراد.

ويمكن التمثيل للوجه الثاني، وهو اختلاف تصريف الأفعال، بقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قرئ هكذا بنصب لفظ ربَّنا، على أنه منادى. وبلفظ باعِدْ فعلَ أمر، وبعبارة أَنسَبَ فعل دعاءٍ. وقرئ هكذا: (رَبُّنا بَعَّدَ) برفع ربنا على أنه مبتدأ، وبلفظ (بَعَّدَ) فعلاً ماضياً مضعّف العين وجملته خبر.

ويمكن التمثيل للوجه الثالث، وهو إختلاف وجوه الإعراب، بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قرئ بفتح الراء وضمّها. فالفتح على أنّ لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها. والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين، أما الضم فعلى أن لا نافية فالفعل مرفوع بعدها.

ويمكن التمثيل للوجه الرابع، وهو الإختلاف بالنقص والزيادة. بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ قرئ بهذا اللفظ وقرئ أيضاً (والذكر والأنثى) بنقص كلمة (ما خلق).

ويمكن التمثيل للوجه الخامس، وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير، بقوله سبحانه: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وقرئ: (وجاءت سكرة الحق بالموت).

ويمكن التمثيل للوجه السادس، وهو الإختلاف بالإبدال، بقوله سبحانه: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي، وقرئ (نُنشِرها) بالراء.

ويمكن التمثيل للوجه السابع، وهو اختلاف اللهجات، بقوله سبحانه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾، تقرأ بالفتح والإمالة في (أتى) ولفظ (موسى).

ومن فوائـد إختلاف القـراءة وتعـدد الحـروف: التخفيـفُ والتيسـيرُ على هذه الأمة فإنّ كل إنسـان مُتَعَـوِّدٌ على لهجتـه: من الفتح، أو الإمالـة، أو غيرها من سائر الأحرف والأوجه.

ومنها: جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحـد يوحّـد بينهـا وهـو لسـان قـريش الـذي نـزل بـه القـرآن الكـريم والـذي انتظم كثـيراً من مختارات أَلْسِنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكـة في موسـم الحج وأسـواق العـرب المشـهورة. فكـان القرشـيون يسـتملحون مـا شاءوا، ويختارون ما راق لهم من ألفـاظ الوفـود العربيـة القادمـة إليهم من كل صـوب وحَـدب. ثم يُهذّبُونَـه ويُدخلونـه في دائـرة لغتهم المَرِنـة التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة، وعقدوا لهـا رايَـة الإمامـة. ومنهـا صح أن يقال انه نزل بلغة قريش، لأن لغـات العـرب تمثلت في لسـان القريشيين بهذا المعنى.

ومن الجـدير بالإنتبـاه إليـه: أن القـراءاتِ السـبع المعروفـة ليسـت هي الأحرف السبعة التي ذكرناهـا، ولكنهـا ليسـت خارجـة عنهـا البتـة. قـال القرطـبي في تفسـيره: قـال كثـير من علمائنـا، كالـداودي، وابن أبي صـفرة، وغيرهمـا: هـذه القـراءات السـبع الـتي تنسـب لهـؤلاء القـراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي إتسـعت الصـحابة في القـراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهـو الـذي جمـع عَلَيـه عثمـان المصـحف. ذكـره ابن النحـاس وغـيره. وهـذه القـراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء. وذلـك أن كـل واحـد منهم اختار فيما رَوى وعَلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأَوْلى. فالتزمه طريقةً ورواه، وأقرا به، واشتهر عنه، وعرف بـه، ونسـب إليـه. فقيل: حرفُ نافع، وحرف إبن كثير. ولم يمنع واحـد منهم إختيـار الآخـر ولا أنكره،

بل سوّغه وجوّزه. وكل واحد من هذه السبعة روي عنه إختياران أو أكثر وكلٌّ صحيح.

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الإعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات. فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون، كالقاضي أبي بكر ابن الطيب، والطبري، وغيرهما... قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلي لأنها ثبتت بالإجماع. وأما شاذ القراءات فلا يصلي به لأنه لم يجمع الناس عليه.

وقال محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان): ان الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخذهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد، ومنهم من أخذ عنه بحرفين، ومنهم من زاد. ثم تفرقوا في البلاد، وهم على هذه الأحوال، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم، وأخذ تابع التابعين عن التابعين. وهلم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها، ويُعْنَون بها، وينشرها - كما يأتي هذا منشأ علم القراءات واختلافها، وإن كان الإختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة إلى مواضع الإتفاق الكثيرة كما هو معلوم. ومهما يكن الأمر فإن إختلاف القراء في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله لا من عند الرسول ولا أحدٍ من القراء وغيرهم.

ثم قال: وقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرائه؛ فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن: عثمان، وعلي، وأُبيّ بن

كعب، وزيــد بن ثــابت، وابن مســعود، وأبــو الــدرداء، وأبــو موســى الأشعري... وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصـاحف إلى الآفـاق الإسلامية. والمشـتهرون من التـابعين: ابن المسَـيّب، وعـروةُ، وسـالم، وعمر بن عبدالعزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيـد بن أسـلم، ومسـلم بن جنـدب، وابن شـهاب، وعبـدالرحمن بن هرمـز، ومعـاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري، وكل هؤلاء كانوا بمكة.

وعامر بن عبد القيس وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصـم، ويحـيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة وغيرهم، وكانوا هؤلاء بالبصرة.

وعلقمة، والأسود، ومسـروق، وعبيـدة، والربيـع بن خيثم، والحـارث ابن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبدالرحمن السلمي وزرّ بن حُبَيش، وعبيد بن فضلة، وأبو زرعة بن عمرو، وسـعيد بن جبـير والنخعي، والشعبي، وهؤلاء كانوا بالكوفة.

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي - صاحب مصـحف عثمـان - وخُليَـدُ بن سعيد، صاحب أبي الدرداء، وغيرهما... وهؤلاء كانوا بالشام.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويُعنَونَ بها، فكان بالمدينة أبـو جعفـر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع ابن أبي نعيم.

وكـان بمكـة عبدالله ابن كثـير، وحميـد بن قيس الأعـرج، ومحمـد بن محيصـن وكــان بالكوفــة: يحــيى بن وثــاب، وعاصــم بن أبي النجــود، وسليمان الأعمش. ثم حمزة ثم الكسائي.

وكان بالبصرة: عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو ابن العلاء وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام: عبدالله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل ابن عبدالله، وابن المهاجر، ثم يحيي بن الحارث الدّماوي، ثم شريح بن يزيد الحضرمي.

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عِدّة مهروا في القراءة والضبط، حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات. فقيل: القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة. وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن: القراءاتُ السبعُ وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبدالله بن عامر، وعبدالله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي.

ومما يستحسن التنبيه عليه: أنه كان كل من الأحرف مما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقاه إليه ليقرأه على أصحابه، فتتوسع لهم دائرة القراءة للقرآن الكريم. ففي تفسير القرطبي: قال إبن عطية: أباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام في عَرْضاتِهِ على الوجه الذي فيه الإعجاز، وجودة الوصف، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام فاقرأوا ما تيَسّر منه بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذَهَب إعجاز القرآن، وكان معرضاً لأن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله. وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي صلى الله عليه وسلم

ليوسع بها على أمته فأقرأ مرة لأبيّ بما عارضه بـه جبريـل، ومـرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً. وعلى هذا تجيء قـراءة عمـر بن الخطـاب لسورة الفرقان، وقـراءة هشـام بن حكيم لهـا، وإلا فكيـف يسـتقيم أن يقول النبي صلى الله عليه وسـلم في كـل قـراءة منهمـا، وقـد اختلفـا، (هكذا أقرأني جبريل)؟ هل ذلك إلا أنه أقـرأه مـرة بهـذه، ومـرة بهـذه، وعلى هذا يحمل قـول أنس حين قـرأ ﴿إِنَّ نَاشِـئَةَ اللَّيْـلِ هِيَ أَشَـدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾. فقيل له: إنمـا تقـرأ ﴿وَأَقْـوَمُ قِيلًا﴾ فقـال أنس: (وأصـوب قيلا، وأقوم قيلا وأهيأ) واحدٌ، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسـلم وإلا فلـو كـان هـذا الأحـد من النـاس أن يضعه البطـل معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الأمر السادس جمع القرآن الكريم

للقرآن الكريم جمع في عهد الرسول صلى الله عليه وسـلم وجمـع في عهد خلافة أبي بكر رضي الله عنه وجمـع في عهـد عثمـان رضـي اللـه عنه ولنذكر ذلك:

أما الأول - أي الجمع في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

فلا شك أن همة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت متوجهـة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب، وحفظـه في الصـدور، ضـرورة أنه نبيّ أميّ بعثه الله في الأمـيين. علاوة على ذلـك أنـه لم يكن أدوات الكتابـة ميسـورة لـديهم في ذلـك العهـد. ومن هنـا كـان الإعتمـاد على الحفظ في الصدور أكثر من الإعتماد على الحفـظ بين السـطور. ولكن القرآن الكريم أخذ نصـيباً وافيـاً من الأمـرين: أي الحفـظ في الصـدور، والحفظ بين السطور. فقد اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كُتَّاباً للوحي المنزل. فكلما نزل من القرآن شيء أَمَرَهُم بكتابتـه مبالغـةً في حفظه.

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة رضـي اللـه عنهم فيهم: أبـو بكـر وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، وإبان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وثـابت بن قيس وغـيرهم... وكـان صـلى اللـه عليه وسلم يدلهم على موضـع المكتـوب في سـورته، فيكتبونـه في مـا يسهل عليهم من: جريد النخل، والحجارة الرقيقة، وما تيسـر من جلـد، أو ورق، وعظام الأكتاف وغيرها... ثم يوضـع المكتـوب في بيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا إنقضى العهد النبوي السعيد.

روي عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَن يكتب، فقـال: ضـعوا هـذه السـورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا.

وعن زيد بن ثابت قال: كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرِّقاع. وكان هذا التأليف عبـارة عن تـرتيب الآيـات حسـب إرشاد النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وكـان هـذا الـترتيب بتوقيـف من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كـان يقـول: ضـعوا كذا في موضع كـذا. ولا ريب أن جبريـل كـان لا يصـدر في ذلـك إلا عن أمر الله عز وجلّ.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان منهم من يكتبون القرآن ولكن فيما تيسر لهم من: قرطاس، او كتف، أو عظم، أو نحـو ذلـك بالمقـدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم. ولم يلـتزموا توالي السور وترتيبها، وذلـك لأن أحـدهم كـان إذا حفـظ سـورة أُنـزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ثم خـرج في سـرية مثلا فنزلت في وقت غيابه سـورة.. فإنـه كـان إذا رجـع يأخـذ في حفـظ مـا يـنزل بعـد رجوعـه وكتابتـه، ثم يسـتدرك مـا كـان قـد فاتـه في غيابـه فيجمعه، ويتتبعه على حسب

ما يسهل له، فيقع في ما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك. وقد كـان من الصحابة من يعتمـد على حفظـه فلا يكتب جريـاً على عـادة العـرب في حفظ أنسابها، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة.

والحاصل أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول صلى الله عليـه وسلم وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة الـتي نـزل عليها. غير أنّ بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعضـها هو ثابت بخبر الواحد. وربما كتبه غير مرتب، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة. وذلك لأمور:

أولها: أنه لم يوجـد من دواعي كتابتـه في صـحف أو مصـاحف مثـل مـا وجد في عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجـد على عهـد عثمـان حـتى نسـخه في مصـاحف. فالمسـلمون وقتئـذ بخـير، والقـراء كثيرون، والإسلام لم تتسع رقعته بعدُ، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفـظ أكـثر من الكتابـة، وأدوات الكتابـة غـير ميسـورة، وعنايـة الرسول صلى الله عليه وسلم باسـتظهار القـرآن تفـوق الوصـف حـتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها.

ثانيها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بصدد ان يـنزل عليـه الـوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزولـه، فقـد علمتَ أن نزوله كان على حسب

الأسباب، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الإعتبارات.

وأما الثاني - أي الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فكـان السـبب فيه إستشـهاد كثـير من القـراء، وخـوف ضـياع بعض من آيـات القـرآن الكريم، وفي ذلك يروي البخاري في صـحيحه: أن زيـد بن ثـابت رضـي الله عنه قال: أَرْسَلَ إلَيَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهلِ اليمامة، أي عقب إستشهاد القرّاء السبعين في واقعة (اليمامة) فإذا عمر بن الخطـاب عنـده. قـال أبو بكر رضي الله عنه: إنّ عُمَرَ أتاني فقـال إنّ القتـل قـد اسـتحرّ (أي إشتد) يومَ اليمامـة بُقـرّاء القـرآنِ، وإني أخشـى أن يسـتحرَّ القتـل في المَواطِنِ فيـذهَبَ كثـيرٌ من القـرآن، وإنّي أرى أن تـأمر بجمـع القـرآن. قلتُ لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليـه وسـلم؟ قال عمـر: هـذا واللـهِ خـيرٌ. فلم يـزل عمـر يراجعـني حـتى شـرح اللـه صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأي عمر. قـال زيـد: قـال ابـو بكـر: إنك رجلٌ شـابٌ عاقـل لاتنهمـك، وقـد كنت تكتب الـوحي لرسـول اللـه صلى الله عليه وسلم فَتَتَبَّع القـرآن فَاجْمَعْـه، فوالله لَـو كلّفـوني نقـلَ جَبل من الجبال مـا كـان أثقـل عليّ ممـا أمـرني بـه من جمـع القـرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم؟ قال: هو والله خيرٌ. فلم يزل أبو بكر يُراجعني حـتى شـرح اللـه صـدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمَعُـه من العُشُـب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمـة الأنصاري لم أجدْها مـع أَحَـدٍ غـيره: ﴿لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُـلْ حَسْـبِيَ اللَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَهُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

فأرادَ أنه لم يجد آخر سورة براءة مكتوباً عنـد أحـد إلا عنـد أبي خزيمـة الأنصاري.

وأما حفظاً: فكان محفوظاً عنـد كثـير من الأصـحاب رضـي اللـه تعـالى عنهم أجمعين. كما هو مذكور ومسطور في النقول المعتمدة.

فكانت الصحف عند أبي بكر رضي الله عنـه حـتى توفـاه اللـه، ثم عنـد عمر في مدة حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله تعالى عنهما

وهذا الجمع كان بعناية بالغة ويدل عليها ما أخرجه أبـو داود انّ أبـا بكـر قال لعُمَر ولزيد: أقعُدا على باب المسجد فمن جاءكُمـا بشـاهدين على شيء من كتاب الله أكتباه. قال السخاوي في جمال القرّاء ما يفيد: أن المراد بهما رجلان عدلان يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسـلم ولم يعتمـد زيـد على الحفـظ وحـده. ولذلك قال في الحـديث الـذي رواه البخـاري سـابقاً: أنـه لم يجـد آخـر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة، أي لم يجدها مكتوبة إلا مـع أبي خزيمـة الأنصاري مع أنّ زيداً كان يحفظها، وكان كثير من الصـحابة يحفظونهـا، ولكنـه أراد أن يجمـع بين الحفـظ والكتابـة زيـادة في التوثـق. ثم جمـع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليـه دون نكير. وكان ذلك مَنْقَبَةً خالدة لا يزال التأريخ يـذكرها بالجميـل لأبي بكـر في الإشـراف، ولعُمَـر في الإقـتراح، ولزيـد في التنفيـذ، وللصـحابة في المعاونـة والإقـرار. قـال علي كـرم اللـه وجهـه أعظم النـاس في المصاحف أجراً: أبو بكـر، رحمـة اللـه على أبي بكـر هـو أول من جمـع كتاب الله. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن.

وامتازت هذه الصحيفة أولا بأنها جمعت القـرآن على أدق وجـوه البحث والتحري وأَسْلَم أصول التثبت العلمي.

ثانياً بأنه إقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته.

ثالثاً أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها.

وأما الجمع الثالث أي جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فالداعي إليه أنه اتّسعت الفتوحات في زمانه وتفرّق المسلمونَ في الأمصال، وظهر جيلٌ جديدٌ كان بحاجة إلى دراسة القرآن وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يقرأون بقراءة أُبيّ بن كعب وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبدالله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري. فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقة فَتَحَتْ بابَ النزاع في قراءة القرآن.

ومن ذلك ما وقع بين بعض الأصحاب عندما اجتمعوا في غزوة (أرْمينيّة) فقرأت كل طائفة بما روي لها. فاختلفوا وتنازعوا. فأشفَق حذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه من ذلك. فلما قَدِمَ المدينةَ دخلَ على عثمان قبل أن يذهب إلى بيته. فقال له: أدرك هذه الأمة قبل أن تُهلك! قال: في ماذا؟ قال: في كتابِ اللهِ. إني حَضرت هذه الغزوة وجَمَعَت ناساً من العراق والشام والحجاز. فوصف له ما تقدم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى.

وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب ان عثمان قال: ما ترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى أن الرجل ليقول: قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قراءتك! وهذا شبيه بالكفر.

قلنا ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين؟ قال الرأي عندي: أن يجتمع الناس على قراءة. فإنكم إذا اختلفتم اليوم كانَ منْ بعدكم أشدَّ اختلافاً. قلنا: الرأيُ رأيُك.

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حوالي أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة. فعمد في نسخ المصاحف

إلى أربعـة من خـيرة الصـحابة وثقـات الحفـاظ. وهم: زيـد بن ثـابت، وعبداللـه ابن الزبـير، وسـعيد بن العـاص، وعبـدالرحمن بن الحـارث. وهؤلاء الثلاثة الأخـيرون من قـريش. وأرسـل عثمـان إلى أمّ المؤمـنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالصّحف التي عندها، وهي الصـحف الـتي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي اللـه عنـه. وقـد جعلت إمامـاً في هذا الجمع الأخير وهذا صحيح.

وجاء في بعض الروايات أن الـذين نُـدبوا لِنسـخ المصـاحف كـانوا إثـني عشـر رجلا، ومـا كـانوا يكتبـون شـيئاً إلا بعـد أن يعـرض على الصـحابة ويقرّوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على هـذا النحـو الـذي نجده الآن في المصاحف. وقال عثمـان للرهـط القرشـيين: إذا اختَلَفْتُم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسـانِ قـريش؛ فإنمـا نـزل بلسـانهم، ففعلـوا، حـتى اذا نسـخوا الصـحف في المصـاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة رضي الله تعالى عنها.

وممـا تواضـع عليـه هـؤلاء الصـحابة، أنهم كـانوا لا يكتبـون في هـذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قـرآن وعَلِمـوا أنـه قـد اسـتقر في العـرض الأخيرة وما أيقنوا صحته عن النبي صلى الله عليه وسلم مما لم ينسـخ وتركوا ما سوى ذلك.

وإنما كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان رضي الله عنه قصيد إرسال مـا وقـع الإجمـاع عليـه إلى أقطـارِ بلاد المسـلمين وهي متعـددة. وكتبوهـا متفاوتة في إثبـاتٍ وحـذفٍ وَبَـدَلٍ وغيرهـا؛ لأنـه رضـي اللـه عنـه قَصَـدَ اشـتمالها على الأحـرف السـبعة. وجعلوهـا خاليـة من النقـط والشـكل تحقيقاً لهذا الإحتمال أيضاً. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها

بأكثر من وجه واحد عند تجردها من النقط والشكل نحـو ﴿فَتَبَيَّنُـوا﴾ من قولـه تعـالى: ﴿إِنْ جَـاءَكُمْ فَاسِـقٌ بِنَبَـإٍ فَتَبَيَّنُـوا﴾ فإنهـا تصـلح أن تُقـرأ (فتثبتوا) عنـد خلوّهـا من النقـط والشـكل. وهي قـراءة أخـرى وكـذلك ﴿نُنْشِزُهَا﴾ من قوله تعـالى: ﴿وَانْظُـرْ إِلَى الْعِظَـامِ كَيْـفَ نُنْشِـزُهَا﴾ فـإن تجردها عن النقط والشكل يجعلها صـالحة عنـدهم أن يقرءوهـا بـالزاي المعجمة وهي قـراءة واردة. أمـا الكلمـات الـتي لا تـدل على اكـثر من قراءة عند خلوّها من النقط والشكل مع انّها واردة بقراءة أخـرى أيضـاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة. وفي بعض آخــر برســم آخــر يــدل على القــراءة الثانيــة كقــراءة (وَصّــى) بالتضعيف و(أوْصى) بالهمزة وهما قراءتان في قوله سـبحانه: ﴿وَوَصَّـى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ وكذلك قـراءة ﴿تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ﴾ وقـراءة ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بزيادة لفظ (مِنْ) في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهما قراءتان أيضاً.

وصفوة القول: أن اللفـظ الـذي لا تختلـف فيـه وجـوه القـراءات كـانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة. أما الذي تختلف فيه وجـوه القـراءات فإن كان لا يمكن رسـمه في الخـط محتملاً لتلـك الوجـوه كلهـا؛ فـإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف، ثم يكتبونه برسـم آخـر يوافـق بعض الوجـوه الأخـرى في مصـحف آخـر. وكـانوا يتحاشـون أن يكتبوه بالرسمين في مصـحف واحـد خشـية أن يتـوهم أن اللفـظ نـزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة وليس كـذلك بـل همـا قراءتـان نـزل اللفـظ في إحـديهما بوجـه وفي الثانيـة بوجـه آخـر من غـير تكـرار في واحدة منهما. وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفـظ في مصـحف واحد برسـمين أحـدهما في الأصـل والآخـر في الحاشـية لئلا يتـوهم أن الثاني تصحيح

للأول. أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكُّمٌ أو ترجيح بلا مرجّح. وذلك نحو كلمة (وصّى) بالتضعيف و(أوصى) بالهمزة كما سبَق. أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو (فتبيّنوا) و(ننشرها) كما سلف بيانه. فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعْنَيَيَن المعقولين.

والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقّوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميع وجوه قراءاته وبكافّة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة أقرب إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لا يقال إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته أو منعوا أحداً من القراءة بأيّ حرف شاء على حين أنها كانت منقولة نقلاً متواتراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((أيّ ذلك قرأتم أَصَبْتُم فلا تُمارُوا)).

وكان من الدستور الذي وضعه عثمان رضي الله عنه لهم في هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء الثلاثة القرشيين: اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا. حتى اذا نسخوا الصّحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة رضي الله تعالى عنها وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَقَ. وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية، وليحمل المسلمين على الجادّة في كتاب الله من ناحية أخرى. فلا يأخذوا إلّا بتلك المصاحف التي توافَرَ فيها مِنَ المزايا ما لم يَتَوافر في غيرها. وهذه المزايا هي:

أولاً: الإقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا.

ثانياً: إهمالُ ما نسخت تلاوته ولم يستقرّ في العرضة الأخيرة.

ثالثاً: ترتيبُ السور والآيات على الوجه المعروف الآن.

رابعاً: كتابتها بطريقة كانت تجمع وجـوه القـراءاتِ المختلفـةَ والأحْـرُفَ التي نَزَلَ عليها القرآنُ على ما مَرّ بِكَ من عـدمِ إعجامهـا وشَـكلها ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحدُ.

خامســاً: تجريــدها من ك ل مــا ليس قرآنــا كالــذي كــان يكتبــه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنىً أو بياناً لناسخ ومنسوخ او نحو ذلك.

وقد استجاب الصحابة لعثمان فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعـاً على المصاحف العثمانية، حتى عبدالله بن مسعود الذي نقـل عنـه أنـه أنكـر أولاً مصـاحف عثمـان، وأنـه أبى أن يُحـرق مصـحفه.. رجـع وعـاد إلى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصـاحف العثمانيـة، واجتمـاع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها. وبعدئذٍ طَهُـر الجـوّ الإسـلاميّ من أَوْبئـة الشقاق والنزاع، وأصبح مصـحف ابن مسـعود، ومصـحف أبيّ بن كعبٍ، ومصحف عائشــة، ومصـحف عليّ، ومصـحف سـالم مَـوْلى أبي حذيفـة أصْبَحَت كلها وأمثالها في خبرٍ كان مَغسولَةً بالماء، أو محروقة بالنيران.

ورضي الله عن عثمان فقـد أَرْضـى بـذلك العمـل الجليـل ربَّه، وحافَـظَ عَلى القرآن، وجَمع كلمة الأمّة، وأغلَق باب الفتنة، ولا يبرح المســلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعدَ اليوم.

وفَعَل ما فَعل بعد أن استشارَ الصحابة واكتسبَ مـوافقتهم، بـل وظفـر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم. روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلـة قال: سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلوّ في عثمان، وقولكم حَرّاقُ مصاحف. فواللـه مـا حرقها إلا عن مَلأ مِنّا أصحاب رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضـي اللـه عنـه: لـو كنتُ الوالِيَ وقتَ عثمان لفَعَلتُ في المصاحِفِ مثلَ الذي فَعَلَ عثمان رضـي الله عن الجميع.

الأمر السابع ترتيب آيات القران وسوره.

أما ترتيب آيات القرآن في كلّ سورة منه، فقد انعقد الإجمـاع على أنـه كان بتوقيف[1] من الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه لا مجـال للـرأي والإجتهاد فيه، بل كان جبريل ينزل بالآيات عليه صلى الله عليـه وسـلم ويرشده إلى موضع كل آيـة من سـورتها، ثم يقرؤهـا النـبي صـلى اللـه عليه وسلم على أصحابه، ويأمر كُتّابَ الوحي بكتابتها مُعَيِّناً لهم السورةَ التي تكون فيها الآية وموضعَ الآية من هذه السورة. وكان يتلوهـا عليهم مراراً وتكراراً في صلاته وعِظاتِهِ، وفي حكمه وأحكامـه، وكـان يعـارض به جبريل في كل عام مرة. وعارضه بـه في العـام الأخـير مـرتين. كـل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف. وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصـحابة حفظـه مـرتّب الآيـات على هـذا النمط، وشاع ذلك وذاع ومَلأَ البقاع والأسماع، يتدارسونه فيما

[1] ولما لم يأمر بذلك في أول سورة (براءة) تركت بلا بسملة. هذا اصح ما قيل في ذلك.

بينهم، ويقرءونــه في صــلاتهم، ويأخــذه بعضــهم عن بعض، ويَسْــمَعهُ بعضــهم عن بعض بــالترتيب القــائم الآن. فليس لواحــد من الصــحابة والخلفاء الراشدين يَدٌ ولا تصـريف في تـرتيب شـيء من آيـات القـرآن الكريم، بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجـاوز نقـل القـرآن من العسب واللخاف وغيرها في صحف. والجمع الـذي كـان على عهـد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصـاحف. وكلا هـذين كـان على وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم عن الله تعالى، أَجَلْ إنعقـد الإجمـاع على ذلـك تامـاً لا ريب فيـه، وممن حكى هذا الإجماع جماعة، منهم: الزركشي في البرهان، وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصـه: تـرتيب الآيـات في سـورها واقـع بتوقيفـه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين.

وأما ترتيب السور ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: إن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان باجتهاد من الصحابة وينسب هذا القــول إلى جمهور العلماء.

القول الثاني: إن ترتيب السور كلها توقيفى بتعليم الرسول صــلى اللــه عليه وسلم كترتيب الآيات، وإنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه صلى الله عليه وسلم. واستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصحابة أجمعـوا على المصـحف الــذي كتب في عهــد عثمــان ولم يخــالف منهم أحــد. وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنـه لو كان عن اجتهـاد لتمسـك أصـحاب المصـاحف المخالفـة بمخـالفتهم، لكنهم لم يتمســكوا بهــا بــل عــدلوا عنهــا وعن تــرتيبهم. وعــدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها

ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً. ثم ساقوا روايـات لمـذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع.

منها ما رواه الإمام أحمـد وأبـو داود عن حذيفـة الثقفي قـال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيـف إلى أن جـاء في هـذه الروايـة مـا نصـه: فقال لنـا رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ((طَـرَأَ عَليَّ حـزبٌ من القرآن اردت ألّا أخرج حتى أقضِيَهُ)) (أي أقرأه بتمامه). فسألنا أصحاب رسـول اللـه قلنـا: كيـف تحزبـون القـرآن؟ قـالوا: نُحزِّبـه ثلاث سـور، وخَمْسَ سُور، وسبع سور، وتسـع سـور، وإحـدى عشـرة سـورة، وثلاث عشرة. وحزب المفصّل من (ق) حتى نختم. قـالوا: فهـذا يـدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول اللــه صلى الله عليه وسلم.

واحتجوا لمذهبهم أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يُلتزم فيهـا الترتيب والولاء. ولو كان الأمـر بالإجتهـاد لَلوحِـظَ مكـانُ هـذا التجـانس والتماثل دائماً. لكن ذلك لم يكن بـدليل أن سـور المسـبحات لم تـرتب على التوالي بينمـا هي متماثلـة في افتتـاح كـل منهـا بتسـبيح اللـه، بـل فصل بين سورها بسورة (قد سمع) و(الممتحنة) و(المنافقين). وبـدليل أن طسم الشعراء، وطسم القصص لم يتعاقبا مـع تماثلهمـا. بـل فصـل بينهما بسورة أقصر منهما وهي (طس).

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس، فقال: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لحـديث وائلـة: أُعْطيتُ مَكانَ التوراة السّبعَ الطـوال. وكـذلك إنتصـر أبـو بكـر الأنبـاري لهذا المذهب فقال: أنزل اللـه القـرآن إلى سـماء الـدنيا، ثم فرَّقـه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً

لمستخبر. ويقف جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآيات. والحروف كله من النبي صلى الله عليه وسلم فمن قدّم سورة أو أخّرها أفسد نظم القرآن.

وأخرج إبن أشته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب، عن سليمان بن بلال، قال: سمعت ربيعة يسأل: لم قدمت البقرة وآل عمران وقد انزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وانما أنزلنا بالمدينة؟ فقال: قدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألفه به، إلى أن قال: فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه.

القول الثالث: إن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبي وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة، وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحلُ من العلماء، ولعله أمثَلُ الآراء لأنه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف، وخلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف. بل وردت آثار تصرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد. بَيدَ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد. فقال القاضي أبو محمد ابن عطية: إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصّل وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون فرض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مما نصت عليه ابن عطية، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف كقوله صلى الله عليه وسلم إقرأوا الزّهراوين: البقرة، وآلَ عمران، رواه مسلم.

وكحديث سعيد بن خالد: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم بالسـبع الطـوال في ركعـة، رواه ابن أبي شـيبة في مصـنفه. وفيـه أنـه عليـه الصلاة والسلام كان يجمع المفصل في ركعة.

وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال صلى الله عليه وسـلم قـال في بني اسرائيل، والكهف، ومـريم، وطـه، والأنبيـاء: إنّهنّ منَ العِتـاقِ الأُولِ وهُنّ من تِلادي (المراد بالتلادِ ما نَزَلَ أوّلاً). فـذكرها فسـقاً كمـا اسـتقر ترتيبها وفي صحيح البخاري: أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشـه كـل ليلـة جمـع كفيَّه ثم نفث فيهمـا فقـرأ قـل هـو اللـه أحـد والمعوّذتين.

وقال السيوطي ما نصه: الذي يشرح له الصـدر مـا ذهب إليـه الـبيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي، إلا (براءة) و(الأنفـال). وحينئـذ فلا يرد حديث قراءة النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القـراءة ليس بواجب. ولعله فعل ذلك لبيان الجواز.

والأمر على كل حال سهل حتى لقـد حـاول الزركشـي في البرهـان أن يجعـل الخلاف من أساسـه لفظيـاً. فقـال: والخلاف بين الفـريقين أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد والقـائلين بأنـه عن توقيـف لفظي؛ لأن القائل بالثاني يقول: إنه رَمَزَ إليهم ذلك لعلمهم أسـباب نزولـه ومواقـع كلماته. ولهذا قال مالك: إنما ألَّفوا القرآن على مـا كـانوا يسـمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم مع قولـه بـأن تـرتيب السـور كـان باجتهـاد منهم. فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي، أو بمجرد إسناد فعلي بحيث يبقى لهم مجال للنظر، وسبقته إلى ذلك جعفر بن الزبير.

وسـواء أكـان تـرتيب السـور توقيفيـاً أم إجتهاديـاً، فإنـه ينبغي احترامـه خصوصاً في كتابة المصاحف لأنـه من إجمـاع الصـحابة والإجمـاع حجـة ولأن خلافه يجرّ إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب.

ومما ينبغي أن يعلم أنه قسم العلماء سـور القـرآن إلى أربعـة أقسـام، وخصوا كلّاً منها باسـم، وهي: الطُّوالُ، والمئـون، والمثـاني، والمُفَصّـلُ. فالطوال سبع سور: البقرة، وآل عمران، والنسـاء، والمائـدة، والأنعـام، والأعراف. فهذه ستة واختلفوا في السـابعة: أهي الأنفـال وبـراءة معـاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة؟ أم هي سورة يونس؟

والمِئون: هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها. والمثاني: هي التي تلي المئين في عدد الآيات. وقال الفرّاء: هي السور التي آيُها أقلّ من مائة آية لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تكرر الطوال والمئون.

والمفصل: هو أواخر القرآن واختلفوا في تعيين اوله. وصحح النووي أن أوله الحجرات، وسمي بالمفصل لكـثرة الفصـل بين سـوره بالبسـملة. وقيـل: لقلـة المنسـوخ منـه، وقيـل: لكـثرة الفصـل بين آياتهـا وذلـك لقصرها. والمفصل ثلاثة أقسام: طوال، وأواسط، وقصار. فطوالـه: من أول (الحجرات) إلى سورة (البروج). وأوسـاطه: من سـورة (الطـارق) إلى سورة (لم يكن). وقصاره: من سورة (إذا زلزلت) إلى آخر القرآن.

وإنما لم تتميز الأنفال من براءة بالبسملة. قال عثمان رضي اللـه عنـه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تـنزل عليـه السـور ذوات العـدد، فكـان إذا أنـزل عليـه شـيءٌ دعـا بعضَ مَن يكتب، فيقـول: ضـعوا هـذه الآيات في السـورة الـتي يـذكر فيهـا كـذا وكـذا. وكـانت الأنفـال نـزلت بالمدينة. وكـانت بـراءة من آخـر القـرآن نـزولاً، وكـانت قصـتها شـبيهة بقصتها فظنت

أنّها منها فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُبَيّن لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنتُ بينَهما، ولم أكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتهما في السبع الطوال. أي أن قرن براءة بالأنفال للمناسبة الشديدة في القصة، وسكوته صلى الله عليه وسلم عن الأمر بزيادة البسملة جعلني بحيث لم أتجرّأ على زيادتها.

وقيل: إن سكوته عن ذلك والحكمة في ذلك نزول (براءة) في الغضب الغير المناسب للإفتتاح بشعار الرحمة.

الأمر الثامن أول ما نزل وآخر ما نزل

ورد في أول ما نزل أقوال:

أصحها أنه صدر سورة العلق إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الثاني أنه: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى آيات. والمحققون على أنه أول ما نزل بعد فترة الوحي وذلك هو الظاهر من رواية رواها الشيخان عن أبي سلمة عن جابر فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا المَلك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجثثت حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زمّلوني زملوني! فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. فظاهر هذه الرواية يدل على أن جابراً إستند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر إلى ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحي وكأنه لم يسمع بما حدث به رسول الله عن الوحي قبل فترته من نزول المَلَك على الرسول في حراء بصدر سورة (إقرأ).

القول الثالث: إن أول ما نزل (سورة الفاتحة) وهذا قول عددٍ قليلٍ جداً ولا قاطع عليه.

القول الرابع: هو أن أول ما نزل (بسم الله الـرحمن الـرحيم) واسـتدل قائلوه بما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن قـالا: أول مـا نـزل من القرآن (بسم الله الرحمن الـرحيم) وأول سـورة (إقـرأ). وردَّ هـذا بأنـه مرسـل فلا يعـارض المسـند، والصـحيح: أن أول مـا نـزل صـدر سـورة العلق وأن البسملة نزلت بعد ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم أمـر بوضعها في أول السورة.

وأما آخر ما نزل من القرآن ففيه أقوال: أصـحها أن آخـر مـا نـزل منـه على الإطلاق هو قولـه تعـالى: ﴿وَاتَّقُـوا يَوْمًـا تُرْجَعُـونَ فِيـهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَـبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ﴾. أخرجـه النسـائي وعـاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك تسـع ليـالٍ ثم تـوفى لليلـتين خلتـا من ربيع الأول صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

الأمر التاسع العلم بالمكي والمدني

وفي هذا إصطلاحات:

الأول: إن الملكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة.

والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في كل من مكة والمدينة ضـواحيهما. وهذا لوحِظَ فيه مكان النزول كما ترى، لكنه غير حاصـر لأنـه لا يشـمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما.

الثاني: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة. والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وهذا التقسيم لوحِظَ فيه المخاطبون كما تـرى، لكن يَـرِدُ عليـه أمران: أحدهما: ما ورد على الأول من أنه غير ضابط فإن فيه

ما ورد غير مصدّر بأحدهما نحو قوله تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَـافِقِينَ﴾ والثـاني: أن هـذا التقسـيم غـير مطـرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين إذ هناك آيـات مدنيـة صـدرت بصـيغة (يا أيها الناس) وآيات مكية صدرت بصيغة (يـا أيهـا الـذين آمنـوا) مثـال الأولى سورة النساء، فإنهـا مدنيـة وأولهـا ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ﴾ ومثال الثانية سورة الحج؛ فإنها مكية مع أنّ في أواخرها ﴿يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا... ﴾ الآية.

الثالث: وهو المشهور أن المكي ما نـزل قبـل هجرتـه صـلى اللـه عليـه وسلم إلى المدينة - وإن كان نزوله بغير مكـة - والمـدني مـا نـزل بعـد الهجرة - وان كان نزوله بمكة - وهذا التقسيم لوحِظَ فيه زمن الـنزول. وهو تقسيم صحيح سليم لأنَّه ضـابط حاصـر ومطـرد لا يختلـف. ولـذلك إعتمـده العلمـاء واشـتهر بينهم، وعليـه فآيـة ﴿الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ مدنية مـع أنهـا نـزلت يوم الجمعة بعرفـة في حجـة الـوداع. وكـذلك آيـة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ فإنِّها مدنيـة مـع أنهـا نـزلت بمكـة في جـوف الكعبة عام الفتح.

ومن فوائد العلم بالمكي والمدني: تمييز الناسخ من المنسـوخ فيمـا إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحـد وكـان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإنـا نحكم بـأن المـدني منهـا ناسـخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي.

ومن فوائده أيضا معرفـة تـأريخ التشـريع وتدرجـه الحكيم بوجـه عـام، وذلك يترتب عليه الإيمان بسموّ السياسة الإسلامية في تربية الشـعوب والأفراد.

ومن فوائده أيضا الثقة بهـذا القـرآن وبوصـوله إلينـا سـالماً من التغيـير والتحريف. ويدلّ على ذلك إهتمام المسلمين به كلِّ هذا الاهتمـام حـتى إنهم يعرفون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر، وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل بالشـتاء ومـا نزل بالصيف، إلى غير ذلك... فلا يتصور عاقـلٌ أن القـرآن أُهمِـل حـتى تمتد إليه أيدي العابثين حيث كان الصحابة الكرام متحمسـين لحراسـته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به. وقد ذكروا ضـوابط لمعرفـة المكي والمدني. أما ضوابط المكي فهي كما يلي:

أولاً: كـل سـورة فيهـا لفـظ كلّا فهي مكيـة. وقـد ذكـر هـذا اللفـظ في القـرآن ثلاثـاً وثلاثين مـرة في خمس عشـرة سـورة كلهـا في النصـف الأخـير من القـرآن، وذلـك لأن أهـل مكـة كـانوا جبـابرة، فتكـررت فيـه الكلمة المذكورة على وجه التهديد.

ثانياً: كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.

ثالثاً: كل سورة في أولها حروف الهجاء، فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرَّعد خلاف.

رابعاً: كل سورة فيها قصص الأنبيـاء والأمم السـابقة فهي مكيـة سـوى سورة البقرة.

خامساً: كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً.

سادساً: كل سـورة من المفصَّـل فهي مكيـة. أخـرج الطـبراني عن ابن مسعود قال: نزل المفصل بمكة فمكثنا حِججاً نقرؤه ولا ينزل غيره.

ولكن التحقيق يحكم بأن كلام ابن مسعود رضـي اللـه عنـه يحمـل على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميعها.

سابعاً: كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الـذين آمنـوا فهي مكية إلّا سورة الحج.

وأما ضوابط المدني فهي كما يلي:

أولاً: كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

ثانياً: كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

ثالثاً: كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت. والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون.

الأمر العاشر آداب التلاوة

يستحب الإكثار من قراءة القـرآن وتلاوتـه، قـال تعـالى في الثنـاء على التالين: ﴿يَتْلُونَ آَيَاتِ اللَّهِ آَنَـاءَ اللَّيْـلِ﴾. وفي الصحيحين من حـديث ابن عمر: لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه اللـه القـرآن فهـو يقـوم بـه آنـاء الليل وآنـاء النهـار... وروى الترمـذي من حـديث ابن مسـعود: من قـرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها. وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: إقـرأوا القـرآن، فإنـه يـأتي يـوم القيامـة شـفيعاً لأصحابه.. إلى غير ذلك من الأحاديث الشريفة.

وأما مقدار التلاوة: فقد كـان للسـلف فيـه عـادات. أخـرج ابن أبي داود عن مسلم بن عمران قال: قلت لعائشة: إن رجالاً يقرأ أحـدهم القـرآن في ليلة مرتين أو ثلاثاً. فقالت: قرأوا أو لم يقرأوا كنت أقوم مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء.

فلا يَمُر بآية فيها استبشار إلّا دَعـا ورغب. ولا بآيـة فيهـا تخويـف إلّا دعـا واستعاذ.

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر وليس له غيره. قال: قلت: يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث؟ قال: نعم إن استطعت. ويليـه من ختم في أربع، ثم في خمس، ثم في سـت، ثم في سـبع. وهـذا أوسـط الأمـور وأحسـنها، وهـو فعـل الأكـثرين من الصـحابة وغـيرهم. أخـرج الشيخان عن عبدالله بن عمر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليـه وسـلم: إقـرأ القـرآن في شـهر. قلت: إني أجـدُ قُـوَّةً. قـال: إقـرأه في عشر. قلت: إني أجد قوة. وقال إقرأه في سبع ولا تزد على ذلك.

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة رضي الله عنهما أنه قـال: من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقّه لأن النبي صلى الله عليـه وسلم عرض على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين. وقال غيره: يكره تأخير ختمـه أكـثر من أربعين يومـاً بلا عـذر. نص عليـه أحمـد. لأن عبداللـه بن عمـر سـأل النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: في كم نختم القرآن؟ قال: في أربعين يوماً. رواه أبو داود.

وقال النووي في الأذكار المختـار: إن ذلـك تختلـف بـاختلاف الأشـخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكـر لطـائفُ ومعـارفُ فليقتصـر على قـدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ. وكذلك من كان مشـغولاُ بنشـر العلم أو فصـل الحكومـات وغـير ذلـك من مهمـات الـدين والمصـالح العامـة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بمـا هـو مُرَصّـد لـه ولا فـوات كمالـه، وإن لم يكن من هـؤلاء المـذكورين فليكـثر مـا أمكنـه من غـير خروج إلى حد الملل أو الهَذْرَمَة في القراءة.

ويستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار وقد كان صلى الله عليه وسلم يكره أن يذكر الله إلا على طهر كما ثبت في الحديث ولا تكره القراءة للمحدث. وأما الجنب والحائض فيحرم عليهما القراءة. وأما متنجس الفم فتكرهُ له القراءة. ويستحب أن يجلس مستقبلاً متخشعاً بسكينة ووقار مُطرِقاً رأسه، ويسنّ أن يستاك تعظيماً وتطهيراً. ويسنُّ التعوّذ قبل القراءة. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فإن كان المتلوّ صدر السورة يعقبه بقراءة بسم الله الرحمن الرحيم متصلة به أو منفصلة عنه. وليحافظ على قراءة البسملة اول كل سورة غير (براءة) لأن أكثر العلماء على انّها آية، فإذا أخلّ بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين. فان قرأ أثناء سورة إستحب له - ايضاً - نص عليه الشافعي فيما نقله العبادي كما في الإتقان للسيوطي رحمه الله تعالى. ويسنّ الترتيل في قراءة القرآن قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا﴾. وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة أنها تعتت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

وفي البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت مَدّاً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يَمدُ (الله) ويمدُ (الرحمن) ويمدُ (الرحيم).

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لا تنثروه نثر الدقل - رديء التمر - ولا تَهُزوه هَزَّ الشَّعْرِ، قِفوا عند عجائبه وحَرِّكوا به القلوبَ، ولا يكون همّ أحدكم آخرَ السورة. واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع، قالوا: وقراءة جزءٍ بترتيل أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل، ويسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب. قال تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ﴾، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ﴾ وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى إعتذر واستغفر. وإذا مرَّ بآية رحمة إستبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ أو تنزيه نَزَّهَ وعَظَّمَ، أو دعاء تَضَرّعَ وطَلَبَ.

أخرج مسلم عن حذيفة قال: صليتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم﴾ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقراها، يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ.

وأخرج أبو داود والترمذي حديث من قرأ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فانتهى إلى آخرها فليقل (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين). ومن قرأ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فانتهى إلى آخرها فليقل: (بلى). ومن قرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فبلغ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فليقل: آمنا بالله.

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى.

وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر قال: خرج رسول الله على الصحابة فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: لقد قراتها على الجن فكانوا أحسن رُدُوداً منكم كنتُ كلما أتيتُ على قوله ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: (ولا بشيء من نِعَمِكَ ربّنا نكذب فلك الحمد).

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال آمين ثلاث مرات.

وأخرجه البيهقي بلفظ: (قال رب اغفر لي آمين). وأخرج عن معـاذ ابن جبـل أنـه كـان إذا ختم سـورة البقـرة قـال (آمين). قـال النـووي: ومن الآداب إذا قرأ نحو ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، ﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أن يخفض بها صوته كذا كان النخعي يفعل.

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن، والتباكي لمن لا يقدر عليه، والحـزن والخشـوع قـال تعـالى: ﴿وَيَخِـرُّونَ لِلْأَذْقَـانِ يَبْكُـونَ﴾. وفي الصـحيحين حديث قراءة ابن مسعود على النبي صلى الله عليـه وسـلم وفيـه فـإذا عيناه تذرفان. وفي شعب البيهقي عن سعد بن مالك مرفوعـاً: أن هـذا القرآن نزل بحزن وكآبـة فـإذا قرأتمـوه فـابكوا فـان لم تبكُـوا فَتبـاكُوا. ويسـنّ تحسـين الصـوت بـالقراءة وتزيينهـا لحـديث ابن حبّـان وغـيره: ((زَيّنوا القرآن بأصـواتكم)) وفي لفـظ عنـد الـدارمي ((حسـنوا القـرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيدُ القرآن حُسْنا)) وأخرج البزار وغيره حديث ((حسن الصوت زينة القرآن)) وفيه أحاديث صحيحة كثـيرة فـإن لم يكن حَسَـنَ الصـوتِ حَسَّـنه مـا اسـتطاع بحيث لا يخـرج إلى حـد التمطيط. وأمـا القـراءة بالألحـان فنص الشـافعي في المختصـر أنـه لا بأس بها. وعن رواية الربيع الجيزي أنها مكروهة. قـال الـرافعي: فقـال الجمهـور: ليسـت على قـولين، بـل المكـروه أن يفـرط في المـد وفي إشـباع الحركـات حـتى يتولَّد من الفتحـة ألـف، ومن الضـمة واو، ومن الكسرة ياء، أو يدغم في غير موضع الإدغام، فإن لم ينته إلى هذا الحـد فلا كراهة. قال: وفي زوائد الروضة: والصحيح أن الإفـراط على الوجـه المذكور حرام يفسق به القارئ ويأثم المستمع: لأنه عدل به عن نهجـه القويم قال: وهذا مراد الشافعي بالكراهة.

ثم إنه وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة، وأحـاديث تقتضي الإسرار وخفض الصوت. قال النووي والجمع بينهمـا أن الإخفـاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى مصلون أو نيام بجهره. والجهـر أفضـل في غير ذلك؛ لأن العمل فيه اكـثر، ولأن فائدتـه تتعـدى إلى السـامعين، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همه إلى الفكر، ويصرف سـمعه إليـه، ويطرد النوم، ويزيد في النشـاط... ويـدل لهـذا الجمـع حـديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد: إعتكف رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم في المسجد فسمعهم يجهـرون بـالقراءة فكشـف السـتر وقـال: ألا إن كلكم مُناجٍ لربه فلا يؤذينَّ بعضُـكم بعضـا، ولا يرفـع بعضـكم على بعض في القـراًءة. وقـال بعضـهم: يسـتحب الجهـر ببعض القـراءة والإسـرارِ ببعضها لأنّ المُسِرّ قد يَمَلّ فيأنس بالجهر، والجـاهر قـد يكـل فيسـتريح بالإسرار. ويسن السجود عند قراءة آية السجدة، وهي أربع عشرة في: الأعـراف، والرعـد، والنحـل، والإسـراء، ومـريم، وفي الحج سـجدتان، والفرقان، والنمل، وألم تنزيل، وفصلت، والنجم، وإذا السماء انشـقت، واقرأ باسم ربك.

ويسن الإستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحـديث بحضـور القـراءة قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآَنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَأَنْصِـتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ﴾ والأوقات المختارة لقراءة القرآن أفضلها ما كان في الصلاة، ثم الليـل، ثم نصفه الأخير. وهي بين المغرب والعشاء محبوبة، وأفضل النهار بعـد الصبح. ونختار من الأيام يوم عرفة، ثم الجمعـة، ثم الإثـنين، والخميس. ومن الأعشار العُشر الآخر من رمضـان، والعُشـر الأول من ذي الحجـة. ومن الشهور رمضان. ونختار لابتدائه يوم الجمعة ونختمه ليلة الخميس.

ويسن صوم يوم الختم، ويستحب التكبير من الضحى إلى آخـر القـرآن، وهي قراءة المكيين.

ويسـن الـدعاء عقب الختم لحـديث الطـبراني وغـيره عن العربـاض بن سارية مرفوعاً: ((من ختم القرآن فله دعـوة مسـتجابة)) وفي الشـعب من حديث أنس مرفوعا: ((من قرأ القرآن وحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه)).

ويسـن إذا فـرغ من الختمـة أن يشـرع في أخـرى عقب الختم لحـديث الترمذي وغيره ((أحب الأعمال إلى الله الحالّ المُرْتَحلُ، الـذي يضـرب من أول القرآن إلى آخـره كلمّـا حـلّ ارتحل)). وأخـرج الـدارمي بسـند حسن عن ابن عباس عن أُبّي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسـلم كان إذا قرأ قل أعوذ بـرب النـاس إفتتح من الحمـد ثم قـرأ من البقـرة إلى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ثم دعا بدعاء الختمة، ثم قام.

فائدة: واذا أراد شـخص أن يقـرأ القـرآن الكـريم كلـه أو بعضـه ويهـدي ثوابه أو مثـل ثوابـه إلى غـيره من المسـلمين فقـد أتى بخـير، ويحصـل للشخص المنوي ما أراده القارئ عند الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة، ومالـك، وأحمد بن حنبل. كما هـو مسـطور في كتب المـذاهب. وأمـا الشـافعي فخـالف ذلـك. ولكن المحققين من أتباعـه أي بعض أصـحابه وكثـير من علماء مذهبه أَفردوا وقـرروا وصـول الثـواب إلى من نـواه. ويـدل على ذلك أدلّة. منها حديث ((إقرأوا يس على موتاكم)) فإنه إن أراد بالموتى معناه الظاهر فالأمر واضح، وإذا أراد بـه المشـرفين على المـوت فقـد دل على أن القراءة القرآن بركة وتسبّباً في تخفيف العذاب عند زهـوق الـروح، وإذا كـانت هـذه البركـة حاصـلة من قـراءة يس فأينمـا قُـرِىء القرآن حصلت البركة للقارئ ولغيره من المسـلمين، واذا دعـا القـارئ بحصول البركة والثواب لهم فالله متفضل

بِقبـول ذلـك لا سـيما اذا اختمت بالـدعاء. فإنـه تعـالى قـال: ﴿ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومنها ما في مسـند الإمـام أحمـد في حـديث عفيـف بن الحرث رضي الله عنه ونصه: ((حـدثنا عبداللـه، حـدثني أبي، حـدثنا أبـو المغـيرة، حـدثنا صـفوان، حـدثني المشـيخة أنهم حضـروا عفيـف بن الحارث الثمالي حين اشتدّ سوقه، فقـال: هـل منكم أحـد يقـرأ (يس)؟ قال: فقرأها صـالح بن شـريح السـكوتي، فلمـا بلـغ أربعين منهـا قبض. وقرأها عيسى بن المعتمر عن ابن معيد)).

وفي الحـديث: ((من قـرأ الإخلاص إحـدى عشـرة مـرة ثم وهب أجرهـا للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات)). ويصح إهداء نصف الثـواب أو ربعه كما نص عليه أحمد بن حنبل رضي الله عنه. ومنها أدلة أخرى من الأئمـة الأفاضـل يطـول الآن سـردها. وفي كتـاب الـروح للحافـظ أبي عبدالله الدمشقي الحنبلي الشهير بابن القيم الجوزيـة مـا حاصـله: أنـه أختلف في إهداء الثواب إلى الحي فقيل: يصحّ لإطلاق قول أحمد يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه أو أمه. وقيل: لا، لكونه غير محتاج لأنـه يمكنـه العمل بنفسه. إنتهى باختصار.

وقد تقرَّر عند الشافعية ومحققيهم أنه يجوز إعطاء الأجـرة على قـراءة القرآن للميت. وأنه يصـله ثوابـه بحضـوره عنـد قـبره، أو بنيتـه في أول القراءة والدعاء له أخيراً. والله أعلم.

ومما يجب أن يعلم أنه يجب على قراء القـرآن الكـريم رعايـة التجويـد وهو إعطـاء كـل حـرفٍ حقـه من أدائـه من مخرجـه الخـاص وملاحظـة صـفاته من الـترقيق والتفخيم والإطبـاق والإنفتـاح والجهـر والهمس والاظهار والاخفاء والادغام مع غنـة وبـدونها، والشـدِّ والمـدّ وغـير ذلـك على ما بين في

محلّه، وإلا فالقارئ المتمكن من التعلم المهمل لذلك الواجب المقـدس آثم متحمل للأوزار. أعاذنا الله منها.

أما مخارج الحروف فسبعة عشر ولها خمسة مواضع: الحلق، والجوف، واللسان، والشفتان، والخيشوم. ويعرف مخرج كـل حـرف بـأن تسـكنه وتدخل عليه الهمزة المتحركة. فحيث إنقطع الصـوت كـان مَخْرجَـاً لـه، كما تقول في حرف الباء اَبْ. وفي حرف الميم اَمْ فحيثما تجد الصـوت ينقطـع على الشـفة فـذاك مخرجهمـا. فلنـذكر مواضـع الحـروف على الترتيب:

المخرج الأول: أقصى الحلق ويخرج منه حرفان: الهمزة والهاءُ.

المخرج الثاني: وسط الحلق ويخرج منه العين والحاء المهملتان.

المخرج الثالث: أدنى الحلق أي أقربـه إلى اللسـان، ويخـرج منـه الغين والخاء المعجمتان.

المخرج الرابع: الجوف ويخرج منه ثلاثة أحـرف: الألـف، والـواو، واليـاء الساكنات.

المخرج الخامس: ما بين أقصى اللسان مما يتصل بـالحلق ومـا يحاذيـه من الحنك الأعلى ويخرج منه القاف. ويسمّى باللّهاة.

المخرج السادس: أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه الكاف.

المخرج السابع وسط اللسان ويخرج منـه ثلاثـة أحـرف الجيم والشـين والياء.

المخرج الثامن من أول حافة اللسان ومـا يليـه من الأضـراس الأيسـر، وقيل الأيمن، ويخرج منه الضاد.

المخـرج التاسـع: من حافـة اللسـان من أدنـاه إلى منتهى طرفـه ومـا بينهما وبين ما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه اللام.

المخـرج العاشـر: من طـرف اللسـان أسـفل اللام قليلا، ويخـرج منـه النون.

المخرج الحادي عشر: من مخـرج النـون أيضـاً إلا أنـه أقـرب إلى ظهـر اللسان، ويخرج منه الراء.

المخرج الثاني عشر: من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليـا صـاعداً إلى جهة الحنك الأعلى، ويخرج منه الطاء والدال والتاء.

المخــرج الثـالث عشــر: من بين طــرف اللســان فــوق الثنايـا العليـا والسفلى، ويخرج منه الصاد والراء والسين.

المخرج الرابع عشر: من طرف اللسان وأطـراف الثنايـا العليـا ويخـرج منه الظاء والثناء والذال.

المخرج الخامس عشر: من باطن الشـفة السـفلى مـع أطـراف الثنايـا العليا ويخرج منه الفاء فقط.

المخرج السـادس عشـر: مـا بين الشـفتين ويخـرج منـه الـواو، واليـاء، والميم، إلا أن الواو بانفتاحها، والباء والميم بانطباقهما.

المخرج السابع عشر: الخيشوم وهو أقصى الأنـف ويخـرج منـه أحـرف الغنـة وهي النـون السـاكنة والتنـوين حـال إدغامهمـا بغنـة واخفائهمـا، والميم والنون المشددتان.

صفات الحروف

وهي على قسمين: قسم له ضدّ وهو خمسـة، وضـدّه كـذلك. وقسـم لا ضد له وهو سبع. فذوات الأضداد: الجهر وضدّه الهمس.

والشدة وضدها الرخاوة وما بينهما. والاستعلاء وضده الإستفالُ. والإطباق وضدّه الإنفتاح. والاذلاق وضده الاصمات.

والتي لا ضد لها هي: الصفير، والقلقلة، واللين، والانحراف، والتكرير، والتفشي، والإستطالة، فالجملة سبعة، فكل حرف تأخذ من الصفات المتضادة خمساً. وأما الصفات الغير المتضادة فتارة تأخذ منها صفة، أو صفتين، وتارة لا تأخذ منها شيئاً. فغاية ما يجتمع في الحرف الواحد سبع صفات. خمسٌ من المتضادة وثنتان من غيرها كالانحراف والتكرير.

ومن أهم ما يجب معرفته منها أمور:

الأول: أحوال التنوين والنون الساكنة وهي أربع: الإظهار، والإدغام، والإقلاب، والاخفاء. أما الاظهار، وهو إخراج الحرف من مخرجه بدون غنة، فإذا لقيت حروف الحلق وهي: الهمزة، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء. نحو رسولٌ أمين، ونحو مَنْ آمَنَ، ونحو وَهُم يَنهَوْنَ عنه، وَيَناوْن عنه. وقس عليه إلتقاءهما بباقي أحرف الحلق.

وأما الإدغام، وهو اخفاء حرف في حرف، أي حرف ساكن في حرف متحرك بحيث يصيران حرفاً مشدداً يرتفع اللسان عنه ارتفاعةً واحدةً، فهو عند التقائهما بحروف (يرملون) لكن الإدغام في الياء والواو والميم والنون يكون مع غُنّة، وفي اللام والواو بدونها. وأمثلتها ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ونحو ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ويشترط أن يكون المدغم والمدغم فيه في كلمتين، وإلا وجب الإظهار مثل (دُنْيا) و(قِنْوَانٌ) و(صِنوانٍ) (وبُنْيانٍ). ونحو ﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ و﴿مِنْ مَلْجَأٍ﴾. ونحو

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ و﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾. ونحو ﴿حِطَّةٌ نَغْفِرْ﴾ و﴿إِنْ نَقُولُ﴾.

وتلك أمثلة الإدغام مع الغنة، ومثاله بلا غنة نحو ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. و﴿يُبَيِّنْ لَنَا﴾. ونحو ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

وأما الإقلاب: وهو جعل حرف مكان حرف آخر مع مراعاة الغنّة وذلك عند إلتقائهما بالباء. نحو ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و﴿مِنْ بَعْدِ﴾.

وأما الإخفاء وهو النطق بهما بين الإظهار والادغام مع بقاء الغنة في الحرف الأول أعني التنوين والنون الساكنة فعند إلتقائهما مع خمسة عشر حرفاً مصدّرة في كلمات البيت الآتي وهو:

صِف ذا ثنا كم جاد شخص قد دُمْ طيّبا زد في تُقىً ضَعْ ظالما

والمثال نحو: ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، و﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾. وقِس عليهما باقي الأحرف.

احوال الميم الساكنة

ولها ثلاث حالات: الإدغام، والإخفاء، والاظهار. فتدغم في مثلها بغنة كاملة نحو: ﴿لَهُمْ مَثَلًا﴾ و﴿لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾، وتخفى عند إلتقاء الباء بغنة ويسمى إخفاءً شفوياً، نحو: ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ و﴿هُمْ بِالْآَخِرَةِ﴾. وتظهر عند باقي الأحرف لكنها عند الواو والفاء أشد إظهاراً ويسمى إظهاراً شفوياً نحو: ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ ونحو ﴿عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

حال الميم والنون المشددتين

وهو إظهار غنتهما حينئذ نحو: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ونحو ﴿ثُمَّ، وَلَمّا﴾.

حال ال المعرفة

ولها إذا وقعت قبل حـروف الهجـاء حالتـان: الإظهـار على حـروف (ابـغ حَجّك وَخَف عَقيمَه) وتسمى حينئذ باللام القمريـة نحـو: (الأنعـام، الـبرّ، الغمام، الحميم، الجنة، الكوثر، الولدان، الخير، الفتنة، العـافين، القمـر، اليوم، المال، الهدى). والإدغام مـع غـير تلـك الحـروف ويجمعهـا أوائـل كلمات هذا البيت:

طِب ثم صِلْ رَحما تَفُز ضف ذا   دَع سُوء ظن زُرْ شريفاً لِلكرم

وتسمى اللام فيها بالشمسـية لأنهـا تـدغم وتخفى فيمـا بعـدها كمـا في لفظ الشمس.

حال اللام الواقع في الفعل ساكنة

وحاله الإظهار مطلقاً ماضياً أو أمراً نحو: جعلنا، وقلنا، وضـللنا، والتقى، وقل نعم.

احكام الادغام

وهو عبارة عن إدخال حرف ساكن في آخر متحرك، وهما إما متماثلان، أو متقاربـان، أو متجانسـان. أمـا المتمـاثلان فهمـا المتفقتـان صـفة ومخرجاً. وحكم الإدغام حينئذ الوجوب نحو ﴿اضْرِبْ بِعَصَـاكَ﴾، و﴿بَـلْ لَا يَخَافُونَ﴾. وأما المتقاربان فهما حرفان تقاربا مخرجاً وصفة؛ كالثـاء مـع الذال، نحو ﴿يَلْهَثْ ذَلِكَ﴾. والباء مـع الميم، نحـو ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ والقـاف عند الكاف نحو ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾، وأمـا المتجانسـان فهمـا حرفـان إتحـدا مخرجاً واختلفا صفة، كالطاء المطبقـة مـع التـاء المهموسـة نحـو ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾

وكالتاء مع الطاء نحو ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ وكالتاء عند الدال نحو ﴿أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ واللام مع الراء نحو ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾. وكالذال عند الظاء نحو ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾.

احكام المد

والمد إطالة الصوت بحرف من حروف المدِّ وهو على قسمين: المد الأصلي، والمد الفرعيّ.

فالمد الطبيعي: هو الذي لا تقوم ذات حرف المدِّ إلا به وحروفه ثلاثة: الواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، والألف الساكنة المفتوح ما قبلها. ويسمى طبيعياً ولأن صاحب الطبيعة السليمة لا ينقصه عن حدّه ولا يزيده عليه. ومقداره ألف وهو حركتان وصلاً ووقفاً. ونقصُه عن ذلك حرام.

وأما المد الفرعي: فهو المدّ الزائد على المدّ الأصلي لسببٍ من همز أو سكون بعده. وهو ينقسم إلى ثلاثة عشر قسماً:

الأول: المد الواجب المتصل، وهو أن يكون المد والهمزة في كلمة واحدة. نحو: جاء، وجيء، وسوء. ومقدار مدِّه خمس حركات.

الثاني المد الجائز المنفصل: وهو أن يكون المد في كلمة والهمزة في كلمة أخرى بعده نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ومقدار مده في حال الحدر والإسراع حركتان، وفي حال التدوير أربع حركات، وفي حال الترتيل خمس حركات.

الثالث: المد العارض للسكون: وهو المد الطبيعي الذي يوقف على ما بعده نحو: (العقاب) و(خالدون) و(خبير). ويجوز في مده الطول بست حركات، والتوسط بأربع، والقصر بحركتين، والأفضل هو الأول.

الرابع: المدّ البَدَل: وهو ألفٌ، أو واو، أو ياء وقع بـدلا عن همـزة سـاكنة سبقها همزة مفتوحـة كمـا في (آدم) وَأَصْـلُه (أأدم) بهمـزتين على وزن أحمـد و(أومِن) وأصـله (أأْمِنُ) بهمـزتين على وزن أكـرم مضـارع بـاب الإفعال، و(ايمان) وأصله (أأمان) بهمزتين على وزن إكرام مصـدر بـاب الإفعال. وقدره حركتان كالمد الطبيعي.

الخامس: المد العوض عن التنوين المنصوب: كمـا في ﴿عَلِيمًـا حَكِيمًا﴾ وقدره حركتان.

السادس: المدّ اللازم المثقلُ الكَلِميّ: وهو مدٌّ يكون بعده حرف مشـدّد في كلمـة واحـدة، كمـا في ﴿وَلَا الضَّـالِّينَ﴾ و﴿الصَّـاخَّةُ﴾ و﴿الطَّامَّةُ﴾ و﴿الدابة﴾. ومقداره ثلاث ألفات بست حركات.

السابع: المد اللازم المخفف الكلمي: وهو مـدّ بعـده حـرف ساكن نحـو (آلآن). ومقـداره ثلاث ألفـات بسـت حركـات وحروفـه خمسـة يجمعهـا (حَيٌّ طَهُرَ).

الثامن: المدّ اللازم الحرفيّ المُشْـبَعُ: وهـو الحـرف المتوسـط السـاكن من اسم حرف من حروف الهجاء نحو: (لام) و(صاد) و(قاف). فإن كان الحرف الذي بعده مدغما في ما بعده، فهو المد اللازم الحرفي المثقـل نحو ﴿الٓمٓ﴾ وتعبيره (الف لام ميم). وان لم يكن مدغماً في ما بعده فهو المد اللازم الحرفي المخفّـف. والحـروف الـتي أسـماؤها ثلاثـة أحـرف، والثاني منها مدٌّ ثمانية يجمع صدورها جملة (نقص عَسَلكم) أعني: نون، قاف، صاد، عين، سين، لام، كاف، ميم.

ومقدار مدها ثلاث ألفات بست حركات. وأما العين في فواتح مريم والشورى، ففيها وجهان: الأول ما تقدم والثاني ألفان.

التاسع: المد اللازم المخفف الحرفي: وهو ما كان الحرف فيه على حرفين وحروفه خمسة يجمعها (حيّ طهر) أعني: حا، يا، طا، ها، را. نحو (يس)، (طه)، (الر) ومقداره ألف فقط. أي حركتان.

العاشر: حروف اللّين: وهي الواو والياء بشرط سكونهما وانفتاح ما قبلهما نحو (بَيْت وخَوْف).

الحادي عشر: مد الصّلة: وهو حرف مد زائد مقدر بعد هاء الضمير وينقسم الصلة إلى قسمين: قصيرة، وطويلة. فالقصيرة فيما كان ما قبل الضمير متحركاً. نحو: (اِنّهُ، ولَهُ، واَمرُهُ، وبِهِ)، فإن كان ما قبله ساكناً فلا مدّ فيه إلا في قوله تعالى ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ على طريقة حَفصٍ.

ويشترط أن لا يكون ما بعده موصولاً به، نحو: (إِنَّهُ الْحَقُّ)، (لَهُ الدِّينَ) فإنه لا يمدّ إتفاقاً و(أَلقِهْ) في النمل (وأَرْجِهْ) فيسكن. وأما الصلة الطويلة ففيما إذا كان بعد الضمير همزة قطع فإنه يجوز مدها مقدار ألفين ونصف ويجوز بمقدار ألف كالمد المنفصل بالحدر. مثاله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وتسمى مد الصلة لأنها تتصل بالضمير.

الثاني عشر: مدّ الفرق: وهو الفارق بين الإستفهام والخبر إذ لولا المدّ لتوهم أن الكلام خبر. وهو في أربعة مواضع في القرآن الكريم: في

سورة الأنعام في موضعين ﴿قُلْ آَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ وفي يـونس ﴿قُلْ آَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وفي سورة النمل ﴿آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الثالث عشر: مد التمكين: وهـو كـل يـائين أحـدهما سـاكن مكسـور مـا قبلها مشـدّد مثالـه (حُيّيتُم، والنبـيّين)، وسـمي مـد التمكين لأن الشـدة مَكَّنَتْهُ.

أحوال الراء

وهي ثلاث: التفخيم، والترقيق، وجواز الوجهين:

أما التفخيم ففيما إذا كـانت الـراء مفتوحـة أو مضـمومة أو سـاكنة ومـا قبلها مضموم أو مفتوح. وكذا اذا كان ما قبلها مكسوراً وكسرته عارضة نحـو ﴿ارْجِعُـوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾. او كسـرتها أصـلية وكـان بعـدها حـرف من حروف الإستعلاء نحو (قرطاس) و(مرصاد) و(فرقة)... وما يشابهها.

وأما ترقيقها ففيما اذا كانت الراء مكسورة مطلقاً أو كان الحرف الـذي قبل الراء ياء ساكنة (كقدير)، وكذا إذا كانت ساكنة وقبلها كسـرٌ أصـلي بشـرط أن لا يكـون بعـدها حـرف إسـتعلاء نحـو (أنـذرهم) و(فرعـون) و(مرية).

وأما جواز الوجهين ففيما اذا كانت ساكنة وكـانت قبلهـا كسـرة وبعـدها حرف إستعلاء مكسور نحو (فرقٍ).

حروف القلقة وأقسامها

أما حروف القلقلة فهي خمسة يجمعها قولك (قطب جدٍ) وتنقسم إلى صغرى وكبرى. فالصغرى منها ما سكنت سكوناً أصليّاً، كما في (يقطعون) و(يَطْمَعُونَ) و(يَجْعَلُونَ) و(يَدْعُونَ) و(لَتُبْلَوُنّ). فهذه الأحرف تقلقل أي تظهر وتكشف مطلقاً، فيظهر منها صَوْتٌ صافٍ كافٍ. وأما الكبرى فهي التي تسكن سكوناً عارضاً للوقف عليها، كما في (خلّاق، صراط، عذاب، بهيج، شديد). وهي تقلقل عند الوقف عليها فقط.

اقسام الوقف

وهي أربعة: تامّ، وكافٍ، وحَسَنٌ، وقبيح:

فالتام منها: هو الوقف على كلمة لم يتعلق ما بعدها بما قبلها لا لفظاً ولا معنى؛ كالوقف على (المفلحون) في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فهذه الجملة غير متعلقة بما قبلها لا إعراباً، ولا معنى بأن تكون خبراً لمبتدأ أو صلة لموصول أو نحوها مما له إرتباط.

والكافي: الوقف على ما لم يتعلق هو به لفظاً بل معنى، كالوقف على (لَا يُؤْمِنُونَ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فإنه مع ما بعده وهو ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية متعلق بالكافرين.

والحسن: هو الوقف على ما تعلق ما بعده به وبما قبله لفظاً بشرط تمام الكلام عنده؛ وكالوقف على الحمد لله في الفاتحة لأن رب صفة لله ومتعلق به، لكن الكلام قد تم عند الوقف.

والقبيح: هو الوقف على كلمة لا يتم الكلام بها، وقد تعلق ما بعدها بما قبلها لفظاً ومعنى؛ كالوقف على (بسم) من (بسم الله)، وعلى (الحمد) من (الحمد لله) وأشباه ذلك.

وهذه الأمور المهمة نقلتها من الكتب المعتمدة في علوم القرآن كالإتقان، والقرطبي، والتبيان للإمام النووي، ورسالة التجويد، وكتب أخرى وينبغي الإطلاع عليها والاعتقاد بها والعمل بما تقرر واتفق العلماء عليه أو جنحوا إليه على وجه الأكثرية، فإن الخير في الإجماع أو ما يقاربه. وعلى الله التوكل والإعتماد.

الجزء الأول

سورة الفاتحة

نزلت بمكة حين فرضت الصّلاة، قيل: وبالمدينة مرة أخرى حين حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة تطميناً للرسول صلى الله عليه وسلم، وتأكيداً للاهتمام بالصلوات وقراءتها فيها. وتسـمى بالسـبع المثـاني لأنهـا سـبع آيـات تكـرر قراءتهـا في الصـلوات. وأمّ القـرآن لاشتمالها على جميع ما فيه من الثنـاء على اللـه تعـالى والتعبـد بـأمره ونهيه، وبيان وعده، ووعيده. وبالوافية، والكافية، والشافية، وغيرهـا من الأسامي... وهي سبع آيات بالإتفاق. فمنهم مَن عَدَّ منهـا آيَـةَ البَسـملة، فآخرهـا مِن ﴿صِـرَاطَ الَّذِينَ﴾ إلى ﴿آمين﴾. ومنهم من لم يَعُـدّها منهـا فجعل الآية الأخيرة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وهذه الآية الشريفة آية أولى من سورة الفاتحة ومن غيرهـا، إلا سـورة البراءة وعليه قـرّاء مكـة والكوفـة وفقهاؤهمـا، وابن المبـارك، والإمـام الشافعي رحمهم الله تعالى. وخالفهم قراء المدينة، والبصرة، والشـام، وفقاؤهما، والإمام مالك، والأوزاعي وبعضٌ آخرون.

وممـا يجب أن يعلم المسـلم أنـه لم يـرد المخـالفون في الموضوع أن البسملة ليست آية من الفاتحة أو من سـائر السـور أو أنهـا ليسـت من القرآن

الكريم غير ما نزلت في سورة النمل على وجه القطع والجزم، وكيف يخالف مسلم عالم عاقل أن البسملة ليست من الآيات النازلة مع كونها مكتوبة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في أوائل السور غير براءة؟ ووردت روايات كثيرة بقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم لها مع بقية آيات سورة الفاتحة، وأنها من الآيات النازلة، وأنه صلى الله عليه وسلم جعل نزولها من علامات انتهاء السورة السابقة وافتتاح سورة أخرى. وثبت أنها كتبت قبل جميع السور ما عدا براءة بخط سائر الآيات بدون فرق، مع الإجماع على أن ما بين دفتي المصحف قرآن منزل من الله الكريم. وإنما أراد المخالف أنه لم يثبت عنده بدليل قطعي أن البسملة آية من سورة الفاتحة أو من باقي السور التي كتبت في أوائلها، أو آية مستقلة نازلة بدون دخولها في السورة. وعدم ثبوت ذلك ليس نفياً لثبوته نفياً قطعياً، بل بينهما فرق فارق. ومن روى الجزم بالنفي فروايته سقيمة لا يعتني بها قطعاً.

ولم ينص الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه فيها بشيء. فَظُنَّ أنها ليست من السورة عنده، وليس لها حكمها حيث عدّ قراءة الحمد لله إلى آخر السورة من الواجبات على غير المأموم دون البسملة وجعل قراءتها قبل الحمد سُنَّة مع الإسرار بها. وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله. وقال أحمد: هي آية في أول الفاتحة، لا في أوائل باقي السور وإنما هي للتمييز بين سورة وأخرى. والكلام في غير البسملة النازلة في أثناء سورة النمل ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فهي منها بالإجماع.

وإذا كانت البسملة الشريفة آية من الفاتحة كانت قراءتها مفروضة في الصلاة ولا تصح بدونها قطعاً.

واحتج الشوافع بأن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على إثباتها في المصحف في أوائل السور غير براءة بخط المصحف بخلاف الأعشار وتراجم السور، فإن المعتاد كتابتها بحمرة ونحوها، فلو لم تكن البسملة قرآناً لما استجازوا إثباتها بخط المصحف من غير تمييز. وبأنه روي عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة في الصلاة، وَعَدّها آيةً، وبأنه روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ قال: هي فاتحة الكتاب، قالوا: فأين السابعة؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وبأنه روي عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أَظْهُرِنا إذْ أُغفِيَ إغفاءً ثم رفع رأسَه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ سورةٌ فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ * ﴾ رواه مسلم. وبأن هذه الرواية تدل على أن البسملة من السورة أو مع السورة ويتحقق بذلك كونه قرآناً منزلاً.

وبأنه سئل عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كانت مَـدّاً. ثم قرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يمـدّ (بسـم الله) ويمـدّ (الـرحمن) ويمـدّ (الرحيم). رواه البخاري.

وبأنه روي عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم. رواه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم. ورواه ابو داود وغيره. وأخرج الحاكم في المستدرك أيضاً ثلاثة أحاديث كلها عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا جاءه جبريل عليه السلام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة.

الثاني: كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم ختم السورة حتى يـنزل بسم الله الرحمن الرحيم.

الثالث: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى ينزل بسم اللــه الرحمن الرحيم. وفي سنن البيهقي عن علي وأبي هريـرة وابن عبـاس وغـيرهم رضـي اللـه عنهم أن الفاتحـة هي السـبع من المثـاني، وهي السبع آيات، وان البسملة هي الآية السابعة. وفي سنن الدارقطني عن أبي هريرة قال: قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: إذا قـرأتم الحمد فاقرأوا بسم اللـه الـرحمن الـرحيم إنهـا أم القـرآن وأم الكتـاب والسـبع المثـاني، وبسـم اللــه الــرحمن الــرحيم إحــدى آياتهـا. قــال الدارقطني: رجال إسناده كلهم ثقاة.

فهذه الأحاديث متعاضدة محصلة للظن القوي بكونها قرآنـاً حيث كتبت، والمطلوب هنا هو الظن لا القطع. هذا ما في المجمـوع للإمـام النـووي رحمه الله.

واذا ثبت هـذا فالإسـتقراء دل على أن السـورة الواحـدة إمّـا أن تكـون بتمامها سرية أو جهرية، وإمّا أن يكون بعضها سرياً وبعضها جهرياً، فهذا مفقود في جميع السور، فثبت أن الجهر بالتسمية مشـروع في الصـلاة الجهرية. وممـا يكـون حجـة عليـه مـا رواه الإمـام الـبيهقي في السـنن الكبير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم يجهر في الصلاة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ومما يؤيد كونَ الجهر بها سنةً أن قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ متعلق بفعل لا بدّ من إضماره والتقدير: بإعانة اسم اللـه، أو ببركـة اسـمِ اللـهِ الـرحمن الـرحيم ﴿قُولُـوا﴾ الحمـد للـه الآيـات... لأنهـا نـزلت من اللـه سبحانه وتعالى حسب علمه بأنها

عبادة هذه الأمة المحمدية، وداخلة في الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام. ولا شك أن استماع هذه الجملة الشريفة ينبه العقلاء على أنــه لا حول عن معصـية اللـه إلّا بعصـمة اللـه، ولا قـوة على طاعـة اللـه إلا بتوفيق الله. كما أنه ينبههم على أنه لا يتم شيء من الخيرات والبركات إلا إذا وقع الإبتداء فيه بذكر الله. وكل جملـة شـأنها ذلـك ينبغي إعلانهـا والجهر بها حتى ينتبه بها المسلمون. ومن هنا اندفع ما يتوهم أن سورة الفاتحة إذا نزلت على أنها يقولها الباري سبحانه وتعالى فلا يناسب ذكر جمـل ثلاث منهـا وهي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ (5) اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)﴾. وذلك ظاهر، واذا نزلت على لسان العباد فليس هناك ما يدل عليه، ووجه الإندفاع أنه لما تعلق بسـم اللـه بفعـل مقـدر مثـل: قولوا بسم الله يكون الكلام في غاية الإنتظام، ومناسـباً للمقـام، ويـدل على أن كل أمر ذي بال ينبغي بدؤه باسم الله سبحانه وتعـالى وإظهـار توصيفه بالرحمة الشاملة. فالباء في بسم الله للاستعانة أو المصاحبة.

والاسم مأخوذ من الوسم وهو العلامة، أو السمو وهو العلو، والمراد بـه نفس الاسم بمعـنى اللفـظ الـدال على المسـمى المقـدس. ومن قـال بزيادته فقد أتى بكلام زائد لأن الإستعانة باسـمه المقـدس واستصـحابه على وجه التبرك به أمر مبارك لا ريب فيه. فالمراد بلفظ الجلالـة ذاتـه الجليل، والإضافة لامية، وأصـل (اللـه) إلـه بمعـنى المعبـود مطلقـاً، ثم أُدخل عليه حـرف التعريـف باقيـاً على معنـاه المطلـق لكنـه غلب على المعبود بالحق، فصار علماً بالغلبة لذاته المخصوصة ينصـرف اليـه عنـد الاطلاق. ولما حـذفت همزتـه أكـد التغيـيرُ اختصاصَـه بـه تعـالى، أو أنـه منكراً كان لكل معبود، ومعرَّفـاً اختص بـالمعبود الحـق بـدون أن يصـير علماً. ولما حذفت

همزته وغيّر لفظه صار علماً للذات المعين المقدس الجامع للكمالات المنزه عن النقائص.

ونقل الشهاب عن ابن مالك أن لفظة الجلالة (الله) من الأعلام التي قارن وضعها أل، وليس أصله لفظ (اله) كما زعموا. بل هو علم جامع لمعاني الأسماء الحسنى كلها. وذلك لأن لفظتي: الله، واله مختلفتان لفظاً ومعنى. أما لفظاً فلأن الأول معتلّ العين والثاني مهموز الفاء صحيح العين واللام، فهما من مادتين مختلفتين فَردّهما إلى أصل واحد تحكم. وأما معنى فلأن لفظة الجلالة مختصة به تعالى جاهلية وإسلاماً. والإله ليس كذلك فإنه اسم لكل معبود. ومن قال: أصله إله لا يخلو حاله من أمرين؛ لأنه إما أن يقول حذفت الهمزة ابتداء ثم أُدغمت اللام. أو يقول: نقلت حركة الهمزة وحذفت على القياس، وهو باطل؛ لأنه إدعاء حذفٍ بلا سبب ولا مشابهة ذي سبب من ثلاثي.

و (الرحمن الرحيم) المشهور أنهما صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من (رحِم) بكسر العين بعد نقله الى رحُم بضمها، وجعله لازماً لأن هذا قياس مطرد لإفادة المدح أو الذم. وأصل الرحمة: رقة القلب، واستعمل المشتقان في الباري تعالى مجازاً، وقد يقال: إن الرحمة العطف والإحسان سواء كانا بالوجه الغير المادي كما في الباري سبحانه وتعالى. أو المادي الإنفعالي كما في غيره تعالى. والرحمن أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، فالمقصود من الأول المنعم بجلائل النعم في الدارين، وبالثاني النعم بدقائقها فيهما، وعليه قيل (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما)، وإنما قدم الرحمن والقياس يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى لأنه صار كالعلم له تعالى من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم

وعظامها والـرحيم على دقـائق النعم وصـغارها.. كـان الـرحيم كالتتمـة للرحمن ليتناول ما خرج منها أو لمراعاة رؤوس الآيات الكريمة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (1)

والحمد لغة: هو الثناء باللسان على الجميـل، سـواء تعلـق بالفضـائل أو الفواضل. وعرفاً: فعل يشعر بتعظيم المنعم من جهة إنعامه سواء كـان باللسان أو بالجنان أو بسـائر الأركـان... فالحمـد اللغـوي خـاص مـوردا وعام متعلقاً، والعرفي بالعكس. والشـكر لغـة: هـو الحمـد عرفـاً. وأمـا عرفاً: فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيمـا قـرر لـه. وذلـك في غاية القلة ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

واللام في الحمـد إمـا للجنس أي ماهيـة الحمـد وجنسـه وحقيقتـه، أو للاستغراق أي كل فرد من أفراد الحمد صادر من أيّ حامـد متوجـه إلى أي محمود في مقابلة أي نعمة كان. أو للمعهد العلمي أي الحمد اللائق بذاته تعالى. وهو حمده بنفسه لنفسه ثابت لله سبحانه وتعالى.

والرب: في الأصل مصدر بمعنى التربيـة أي إيصـال الشـيء إلى كمالـه تدريجاً. ثم وصف به الباري تعالى مبالغة، فإنه مربٍ لمخلوقاتـه حسـب حكمته البالغة، وموصلها إلى ما أراد أن يوصلها إليه. وتقع صفة للبــاري معرفاً باللام أو مضافاً كمـا هنـا. ولا يطلـق على غـيره تعـالى إلا مقيّـداً بإضافة أو نحوها، مما يدل على ربوبية خاصة كربّ المال ورب الدار.

والعالمين: شبه جمع للعـالَم وهـو اسـم لمـا يُعْلَم بـه الشـيءُ كالخـاتَمِ والقالَبِ. غَلَبَ في ما يعلم بـه الصـانع وهـو كـل مـا سـواه من الأعيـان والأعـراض فإنهـا لإمكانهـا وافتقارهـا إلى مـؤثر واجب لذاتـه تـدلّ على وجوده وهو اسم جمع لكونـه على زينـة المفـردات كخـاتَم وطـابَع وقـد حقق النحاة

كمـا في شـرح ألفيـة ابن مالـك أن الاسـم الـدال على اثـنين إن كـان موضوعاً للآحاد المجتمعة دالاً عليها دلالة تكـرار الواحـد بـالعطف، فهـو الجمع. وإن كان موضوعاً للحقيقة مُلغىً فيه إعتبـارُ الفرديـة فهـو اسـم الجنس الجمعي كتمر وتمرة. وان كـان موضـوعاً لمجمـوع الآحـاد فهـو اسم جمع سواء كان له واحد كـركب، أو لا كرهـط. ومنـه لفـظ العـالَم. وإنما جمع ليشـمل مـا تحتـه من الأجنـاس المختلفـة، ولم يُسْـمَعْ جمـعُ فاعَلٍ بفتح العين على صيغة جمع المذكر السـالم غـيرهُ وغـيرُ (ياسَـمٍ) يعني أنـه لـو بقي على إفـراده لربمـا تـوهم أن المـراد بـه هـذا العـالم المشـاهد بشـهادة العـرف، أو أن المـراد هـو الجنس والحقيقـة فجُمِـعَ ليشملَ كل جنس سمي بالعالم؛ لأنه لا عهد يشار به إليه، وغلّب العقلاء منهم فجمع بالواو والنون.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أعادهما لكون الأولين تعليلاً للابتداء باسمه تعالى والتبرك به والأخـيرين تعليلاً لاستحقاقه الحمدَ وأنه لا تصافه بهما.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

والمالـك هـو المتصـرف في الأعيـان المملوكـة لـه، كمـا أن الملـك المتصرف بالأمر والنهي في الناس، والمفعول به محذوف وهو الجـزاء، وأضيف إلى اليوم إجـراء لـه مجرى المفعـول بـه على التوسـع. وبـذلك صارت الإضافة معنوية مفيدة لتعريف المضـاف مجـوزةً لوقوعـه صـفة للمعرفة.

والدين: الجزاء، وفرقوا بينهمـا بـأن الـدين جـزاء بقـدر العمـل والجـزاء أعم. واختـار يـوم الـدين على بـاقي الأسـماء رعايـة للفاصـلة، وإفـادة للعموم، فإن الجزاء يتناول جميع أحوال الآخرة إلى الأبد. وفي الحـديث الشريف:

((البِرُّ لا يَبْلى والإثمُ لا يُنسى، والـدَّيّان لا يَمـوت، فكنْ كمـا شئتَ كمـا تَدينُ تُدان)).

ثم لما ابتدا التالي باسم ذاتـه الجليـل وتـبرّك بـه ونَعَتَـه بعمـوم رحمتـه وعقبه بحمده على ما لا يذكر ولا يحصـى من نعمـه الجسـام ومنهـا أنـه رَبّى الخلايـقَ وسـوّاها وعَـدَّلَها، وبالصـور المناسـبة جَمَّلَهـا، وأكّـد على شمول رحمته الواسعة في الآخرة والأولى، وأنه مالك الجزاء في يومـه يوم الكتـاب والحسـاب.. أشـرق في قلبـه أنـوار مناجـاة رب العـالمين، وتصور حضوره لخطاب ذاته الواسع المبين، فقال:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (4)

أي يا من شـأنه العـالي ذلـك الفضـل المتـوالي نخصّـك بالعبـادة وغايـة التذلل والخضـوع بانقيـاد القلب لوجـودك ووحـدتك وربوبيّتـك، وتسـخير القالَب في إطاعته بالشهادة على اسـتحقاقك وجـوب الوجـود والخلـق لما سواك وإنك أنت المعبود وأداء واجبات عظمتـك بـالركوع والسـجود وسـائر أنـواع الطاعـات، ونسـتعينك ونطلبُ منـك العـونَ في أداء مـا التزمناه على وجه مرضيّ وفي اجتناب كل منهي على الوجه المـرعيّ، وفي سائر شئوننا الحَيَوِيّة السلبية والإيجابية، فإنّ كل عون ومـددٍ يأتينـا من الأسباب الظـاهرة حسـب السـنن الكونيـة، أو من الأمـور المعنويـة الغيبية التي لا يحيط بهـا إلا ذاتـك العليّـة منـك وإليـك، وإذا أردتَ شـيئاً هيّأتَ أسبابَه فتأتي بالأسباب ونعتمد على القادر الوهّاب وأنت على كل شيء قدير، وباجابة المضطرين حقيق جدير.

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولا شـك في أنـه لا يجـوز إلّا لِمَنْ له أقصى غاية السلطنة بالقدرة الشاملة على جميع الممكنـات، والعلم المحيـط بالكليـات والجزئيـات وسـائر أوصـاف الكمـال وذلـك واجب الوجود.

فالعبادة مختصة به وليس لغيره حظ فيها، ورياء المرائين ينقصها، وتفاق المنافقين نافيها، فحق عقلاء العباد أن يخصّوا العبادة به تعالى.

والإستعانة: طلب العون والمدد في دفع المكروه وجلب المرغوب وذلك حقيقة في تصرف من بيده مقاليد السماوات والأرض، فكل طلب عون يتوجه إلى غيره؛ كما من المعلم للتعليم، أو من المرشد للتزكية والتسليم، أو من الطبيب للسقيم، أو من أولي النفوذ لدفع الملال أو تحصيل الجاه والمال أو غيرها مما لا يحصى... فهو عائد إلى الله تعالى، كما أن كل حمد من أيّ حامد لأيّ محمود على أيّ إنعام يعود إليه تعالى؛ لأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن فيجب أن تكون عيون قلوب الطالبين ناظرة إليه ونظرها إلى غيرها نظرة عادية كسبب من الأسباب، وعلى ذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما ((وإذا استعنت فاستعن بالله))، وإلا فهو تعالى أَمَرنا بإعانة بعضنا البعض فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، وبالإستعانة بالأخلاق والأعمال فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وقال صلى الله عليه وسلم في صلاة الإستسقاء ((اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً)) وقد روى البيهقي، وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء بلالُ ابنُ الحارث رضي الله عنه، وكان من أصحابه صلى الله عليه وسلم إلى قبره وقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا. فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأَخبَره بأنهم يُسْقَوْنَ. وليس الإستدلال بالرؤيا فإنها - وان كانت حقاً - لا يُثبت حكماً، وإنما الإستدلال بفعل الصحابي وهو بلال بن الحارث رضي الله عنه فإتيانُه لقبر النبي صلى الله عليه وسلم ونداؤه له وطلبه السقيا منه دليلٌ على أن ذلك جائز، وهو من باب الإستغاثة والتوسل والتشفع، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وروى ابن ماجه، وابن السني بإسناد صحيح عن بلال قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك)) وعن أبي سعيد الخدري أسألك بحق ممشاي هذا إني لم أخرج أشراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سمعة، وخرجتُ إتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فَأَسألُك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.. إستغفَرَ له سبعون ألف ملك. ولم يزل السلف الصالح ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة من غير نكير.

ومما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من التوسل قوله: ((اللهم اغفر لأمّي فاطمةَ بنتَ أسدٍ وَوَسِّعْ عليها مَدْخَلَها بحق نبيك والأنبياء الذين مِن قبلي)). وهذا اللفظ قِطعَةٌ من حديث طويل رواه الطبراني في الأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه.

وروينا في كتاب ابن السني عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا انفلتت دابّة أَحَدِكم بأرض فلاة فليُنادِ يا عباد اللهِ احبسُوا فإنّ للهِ عز وجل في الأرض عبداً حاضراً سَيَحْبِسُه.))

وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي في الدلائل والدعوات، وصححه أبو نعيم في المعرفة عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله تعالى لي أن يعافيني، قال: ((إن شئتَ اخَّرتُ لكِ ذلك وهو خيرٌ لك، وإن شئتَ دعوت الله تعالى)) قال: فادعه، فأَمَرَه أن يتوضأ فيُحسِنَ الوضوءَ، ويصلّي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: أللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها،

أللهم شفّعه فِيَّ، فَفَعلَ الرجلُ، فقام وقدْ أبْصَرَ هـذا. ومن اسـند أمثـال هذا إلى حـال الحيـاة بشـبهة أن للشـخص تـأثيراً في حـال الحيـاة دون الممـات، فقـد أشـرك من حيث لم يعلم، لأنـه أسـند التـأثير إلى غـيره تعالى من الأحياء مع أنه لا تأثير لأحدٍ في أي شيء لا في الحياة ولا في الممات، إذ التأثير منحصر في الله تعالى. على أنه يردّ شـبهته مـا ذكـر قبل هذا توسله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء من قبله.

ومن نظر إلى هذه الأدلة علم أنه كما في الماديات سنة ثابتة له تعـالى في ترتيب المسببات على الأسباب كذلك له في المعنويات سنة كـذلك كالـدعاء من نفس الـداعي أو من غـيره لـدفع الشـر أو جلب الخـير والصدقات لدفع البلايا والتوسل بجاه أصحاب التقوى. وإن قولـه تعـالى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْـهِ الْوَسِـيلَةَ﴾ يشـمل كـل ذلـك. فيجـوز للمسـلم أن يتشـفع بالرسول صلى الله عليه وسلم أو بجاهه، أو بجاه غيره من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وشفاعة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ثابتـة يـوم القيامـة لتعجيـل الحسـاب وغفـران الـذنوب، ورفـع الـدرجات. والحاصـل: أن التوسـل بالأسباب المادية أو المعنوية من سنة اللـه تعـالى الـتي لا تبديل لهـا إلا إذا كان بصورة غير مشروعة، وتخصيصـه بـالأمور الماديـة إنمـا هـو من أهـل الأفكـار العاديـة. بـل منـع التوسـل والتسـبب في الغيبيـات وعـدم الإعتناء بالروحانيات تأخر عن الرشاد وتقدم إلى الإلحـاد. فـإن الإسـلام جاء لتنوير عقل البشر، وإبعاده عن الخطر، وتنويره ليعترف بالغيبيـات، ووجود الملائكة الموكلين على الماديات والمعنويـات، وبـذلك يسترشـد إلى الإيمان بأحوال الموتى في عالم البرزخ، وبالسعادة والشقاء هناك، وبثبوت السـاعة وبعثِ الأمـوات، وحشـرهم ومحاسـبتهم، وإيصـال كـل عامِلٍ إلى مَقرّه الأخير، وإلا فلو كان

الأمـر منحصـراً في الماديـات لاسـتغنى البشـر عن الرسـالات الإلهيـة الداعية الى الإيمان بـالغيب وبجـزاء الأعمـال بلا ريب. فـإن في الآخـرة مــراتب مرتبــة على اســبابها، وهي الــدرجات أو الــدركات. فكمــا أن الأسـباب محققـة في الماديـات علمـاً وعملاً وصـناعةً على المسـتويات كذلك في المعنويات كالدعاء لشفاء المرضـى، والصـدقات لـردّ البلوى. ألا تـرى إلى سـجود الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ودعائـه لانتصـار المسـلمين يـوم بـدر الكـبرى؟ وكـذلك صـرف الهمـة إلى تنـوير القلب بالأنوار وتزكية النفس عن الأقذار بالذكر والفكر وصحبة الأولياء الأبــرار والصلحاء الأخيار، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وسر تأثير صـحبتهم أن قلـوبهم منـورة بالـذكر، وبالـذكر تطمئن القلوب، ذلك الإطمئنان الذي طلبه سيدنا إبراهيم الخليل وقال: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ هــذا الإطمئنــان الــذي نالــه أصــحاب القــوى القدسية ويَخلَصـون بـه من الخـوف والحـزن كمـا قـال تعـالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ الَّذِينَ آَمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُـونَ﴾. أي اتقــوا عن الكفــر والشــرك الأكــبر والأصــغر وســائر وجــوه الريــاء والنفاق. واتقوا عن المحارم والمحرمـات فلازمـوا المنـدوبات المؤكـدة وفرائض الطاعات، واتقوا عن الإلتفات الى ما سوى الله، فخلصــوا عن أقذار مطامع الدنيا الدنيه وسائر الشهوات فهم الأوليـاء المتقـون، وهم الذين تشتعل أنوار قلـوبهم فينـورون قلـوب من صـادقهم ووافقهم في طاعة الله تعـالى. وليس المتقـون من يلبسـون المظـاهر الخـير بـدون تطهير البواطن عن الرذائل ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَـا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَـا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطًا﴾ وهم الـذين يتـبرك بلبس عمـامتهم لإزالـة الغمامة كقميص سيدنا يوسف لما ألقوه على وجه أبيـه سـيدنا يعقـوب عليهما السلام صـار من العمى بصـيراً، وصـار على رائحـة روح يوسـف خبيراً، وتحصل تلك الدرجات بتزكية النفس.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذه الكينونة كينونة روحية وافية ومحبة خالصة صافية واتباع في الأذكار والأوراد، وكل ذلك من أسباب اطمئنان القلوب، وقد مضت العصور على المسلمين في مباشرة الأسباب لإصلاح النفوس وتهذيبها بالفضائل، وكل هذه الأمور جارية على نظام هو اتباع الكتاب والسنة النبوية بالإستقامة بدون انحراف.

والحاصل: إن مباشرة الأسباب المادية لتحصيل السعادة المادية، ومباشرة الأسباب المعنوية لتحصيل السعادة الروحية. وبذينك تتكامل الرجولة في الانسان، فليس الرجل رجل الدنيا، ولا الرجل رجل الأخرى، بل الرجل رجلهما. وبالاكتساب المشروع ومباشرة الأسباب ينال الإنسان سعادة الدارين.

وأما الزائرون لقبور عباد الله الصالحين من الأنبياء والمرسلين، ومن دونهم فإن كانوا من المسلمين الفاهمين للدين فيقول داعيهم اللهم أَعل مقام عبدك هذا وارحمني بجاهه عندك. أو يقول: أيها العبد الصالح أُدع لي وتوجّه بهمتك العالية وبروحك المنورة الخالدة لدفع الشرِّ عني وجلب الخيرات لي ولا مانع عقلاً وشرعاً أن تكون لروح هذا الولي الصالح نوع من الإدراك لفهم طلب الزائر الدعاء منه وتوجيه همته إلى الله في كشف مهمته. فإن ذلك الإدراك علم جزئي حصل من أعلام الله تعالى، ومعرفة جزئية حصلت من تجليات أنوار الحق جل شأنه عليه فإن أهل البرزخ على الإطلاق لهم إدراك روحي مسلمين أو كافرين. قال صلى الله عليه وسلم: ((القبر إما روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النيران)) أو كما قال. وليس ذلك من علم الغيب لأن علم الغيب علم ذاتي لا يزول ولا يزال. وعلم كلي شامل لأمور الحال والإستقبال، بل ذلك علم جزئي كعلم الملائكة

المقـربين بمـا أسـند إليهم من الواجبـات والمهمـات، وعلم الحفظـة الكـرام الكـاتبين، وكعلم يوسـف بـأحوال المخـازن الـتي أسـندت إليـه. وكعلم أبيه حيث قـال: ﴿إِنِّي لَأَجِـدُ رِيحَ يُوسُـفَ لَـوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ وكعلم رسول الله بفتن آخر الزمـان. وكفى في ذلـك الموضـوع مـا كـان عنـد حذيفة اليماني لمن له معرفة بصحيح البخاري وغيره من الصحاح.

ونظير ذلك في الماديات علمك بأحوال البلاد البعيدة بوسائل المخـابرة والإعلام، وعلمك بما في الأرحام بوسيلة الأجهـزة المسـتعملة في هـذه الأيام. وقد أسند الله تلك العلوم إليه ذاتاً بالذات، ولم يمنـع إطلاع عبـد من عبـاده بـالأجهزة. والحاصـل أن طلب الزائـر من الـولي الصـالح المرشد، الولي الموفق في طاعة الله تعـالى من هـذا البـاب ومن هـذا القبيـل. ولا يطلب من نفسـه شـيئاً إلا من لم يفهم الـدين، ووزر هـذا الجاهـل على المـربيّ الغافـل من العلمـاء الفاسـدين والمتشـيخين المفسدين وأوزارهم ترجع إلى إهمال الأنظمة الشرعية في حقهم فإنه لا يتطور البشر إلا بالتربية النظامية، ولا نظام عند الإهمـال، ولا ينحصـر الدجل في أهـل العلم والمشـيخة الجامـدة، بـل يسـري في كـل طبقـة وصنف من الكسبة والعُمّال والتجار وأمثالهم.

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراة لهم

أعاذنا الله من الفساد والإفساد، وآتانا خير الرشد والإرشاد بمنّه.

ولما كانت الهداية إلى الخير أهم معونة منه تعالى لعباده عقبـه بقولـه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (5) فيُنادي ويناجي ويدعو ويرتجي فيقـول: يا ربنا نسترحم منك الهدايـة لنـا إلى الصـراط المسـتقيم، صـراط اللـه العزيز الحميد، والسلوك فيه، والإستقامة عليه، بلا انحراف واعتساف.

والهداية مشترك بين معنيين: الأول: الدلالة باللطف والرفق، سواء كان موصلة إلى المطلوب أم لا. ويتأتى من الله ورسـوله والكتـاب المـنزل عليه، ومن كل مرشد يهدي الناس إليـه والثانيـة: الدلالـة الموصـلة إلى المقصود ولا يتأتى إلا من واجب الوجود. ولها مراتب.

الأولى: جعل القلوب صافية منورة، والحواس والمشـاعر غـير مكـدرة، والأعضاء صحيحة قوية على العمل.

والثانية: نصب الدلائل الموصلة إلى الحق المبعِّدة عن الباطل.

والثالثة: تأييد العقول بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

والرابعة: الوحي والإلهام والـرؤى الصـادقة. والأول للأنبيـاء. والأخـيران لهم ولسائِر العالمين.

والصراط لغة الطريـق. والمسـتقيم: المسـتوى. وفي الهندسـة: أقـرب خط واصل بين نقطتين.

وأما المراد بالصراط المستقيم: فقد قال الإمـام الـرازي في تفسـيره: قال بعضهم: الصراط المستقيم الإسلام، وقال بعضهم: القرآن وهـذا لا يصح لأن قوله: صـراط الـذين أنعمت عليهم بـدل للصـراط المسـتقيم، وإذا كـان كـذلك كـان التقـدير: إهـدنا صـراط الـذين أنعمت عليهم من المتقدمين، (أي الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين) الى أن قال وإذا كان كذلك فالمراد: إهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة. إنتهى.

ويؤيـد ذلـك قولـه تعـالى في سـورة الأنعـام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَـدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ وإذا كان قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وارداً على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر أمته وكان

الرسول يطلب من الله الهداية الى الصـراط المسـتقيم.. فلا شـك أنـه يُريدُ التوفيق على إكمال دينهِ وتبليغ كتابه وسلوك سبيل أخلاق الرســل السابقين حيث أمَرهُ تعالى بالإقتـداء بهم في الآيـة الشـريفة المـذكورة فيكون الصراط المستقيم شاملاً لما في دينه من الإعتقـادات والأحكـام العملية، ومـا سـبق في الأديـان السـابقة من الفضـائل المتناسـبة لهـذا الدين، لأن شريعة من قبلنـا شـريعة لنـا فيمـا لم يُتَعـرض لنَسـخه. ومـا جرى على أهلـه من تحمـل الأتعـاب والمشـاكل الـواردة كمـا ورد على أصحاب الأخدود، وما جاء على سـيدنا إبـراهيم من جـانب نمـرود وعلى سيدنا موسى وعيسى إلى أقصى الحدود.

وفي تفسير المنار: وقد قالوا: إن المراد بالصـراط المسـتقيم الـدين أو الحق أو العدل أو الحدود، ونحن نقول: إنه جملة ما يوصلنا الى ســعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم.

وفي تفسير البيضاوي: والمراد به طريق الحق وقيل ملة الإسلام.

قال الشهاب: وعلى ما فهم المصـنف همـا متغـايران لأن ملـة الإسـلام تختص بالأصول والإعتقاد، وطريق الحق أعم لشموله الفروع والأصول.

وقيل: طريق الحق مطلقا يتناول ملة الإسلام وما فيها من العبـادة كمـا هو المناسـب لتنـوع الهدايـة. وقيـل: طريـق الحـق أخص لشـمول ملـة الإسلام للفرق الضـالّة كالقدريـة. وقيـل: الحـق أعميـة الحـق لشـموله السير في الله وما يترتب على الهداية من المراتب كما مر.

والتحقيق: إن الإسلام يشمل الإعتقاد والأحكام التي عليها جمهرة الأمـة المحمدية والحق يشملهما ويشمل سائر الأمـور النافعـة الواقعيـة الـتي هي على جانب الدين من الإعتقاد والأحكام وذلك كالتوفيق لإصابة

الرأي في الأمور الإجتهادية، والبعد عن الخطأ فيها وسلامة الأخلاق في مداراة العباد والتوفيق لكسب الطيب من الزاد والإهتداء إلى صحبة الصالحين للجوار في دار الإقامة، وشراكة رجال أمناءَ في التجارة والأسفار، والأهتداء إلى معرفة أمور إقتصادية في بذل النفقات، وإلى أهل صالح وأولاد ونسل أصيل يتعاونون مع الإنسان في الحياة الدنيا، وهذه كلها مواهب ليست من أصول الإسلام ولا فروعها وليس عدمها منافيا لها. فكم من اناس مسلمين صالحين محترمين وهم محرومون من هذه المواهب ويقبلون الأذى الى أن يتوفاهم الله؟ فيكون الحاصلُ طلب الهداية إلى الإعتقاد بدين الإسلام والعمل بأحكامه والتخلق بالأخلاق العالية وهي من متممات المكارم، وإلى مواهب شريفة تعين الإنسان في أيام الحياة الدنيوية إلى أن يلقى ربه الرءوف الرحيم.

هدانا الله إلى ذلك بمنه وفضله العميم.

فإن قلت: لاشك أن المؤمن مهتدٍ. فما وجه طلب الهداية بالنسبة إليه؟ فالجواب من وجوه:

الأول: إن المطلوب الإهتداء إلى طريق السابقين الصادقين من تحمل الأذى في الدين.

الثاني إن المقصود الإهتداء إلى المرتبة المتوسطة بين طرفي الافراط والتفريط في الإعتقاد والأعمال والأخلاق على وزان قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

الثالث الإهتداء إلى الزائد من العلوم النافعة والأدلة القاطعة على وجود الباري وحقية ما أنزله من الإعتقاد والأحكام.

الرابع: الإهتداء إلى الإستغراق في العبودية والأعراض عما يشغله عنها.

الخامس: الإهتـداء إلى أقـرب طريـق من الطـرق الموصـلة إلى رضـاء الباري.

السادس: الإهتداء إلى الثبات والإستقامة فإن أهل الاسـتقامة هم أهـل السـلامة في الـدنيا والـدين. فـإن قيـل كيـف يصـح طلب الهدايـة إلى الصراط المستقيم صراط الـذين أنعم اللـه عليهم مـع أن دين الإسـلام متبوع غير تابع، وناسخ غير منسوخ، وحاكم غير محكوم؟ قلنا: فالجواب إن الـدين بالإجمـال قسـمان: أصـول إعتقاديـة، وفـروع عمليـة. فأمـا الأصـول الإعتقاديـة فهي مشـتركة بين جميـع الرسـل عليهم الصـلاة والسلام بلا فرق ولا تبعية فيها لأي رسول للآخرين. وعليه قوله تعـالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِـهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى أَنْ أَقِيمُـوا الـدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ كَبُـرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْـهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَهْـدِي إِلَيْـهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

وأما الفروع العملية: فلا شك في مخالفة ما عندنا لما عندهم إلا ما شذَّ مما قرره الإسـلام. فظهـر أنـه لا تبعيـة لنـا في أي شـيء من الـدين لا أصولها ولا فروعها قطعاً.

فالمطلوب بالنسبة إلى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم الإهتـداء إلى تلك الأصول والفروع بالوحي الخاص وتوفيقه لتطبيقهـا وتبليغهـا وتنـوير العـالمين بهـا، أو أحـد الأوجـه السـابقة المـذكورة وبالنسـبة إلى أمتـه الإهتداء إليها من جهة الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم وبـذل التوفيـق للسلوك على منهجها، أو بعض الأوجه السابقة ايضـا. وإلا فالأصـول هي الأصول

بالنسبة إلى كل رسول، والفروع مختلفة لا تبعية فيها. فطلب الهداية إلى صراطهم الهدايةُ الى كيفية سلوكهم وإرتباطهم وذلك واضح.

ثم اوضح الباري تعالى معنى الصراط المستقيم ببدل إيجابي وهو قوله تعالى:

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (6)

وبسلبى بعده وهو قوله تعالى:

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)

حتى يتميّز الصراط المستقيم واهله.

ومما ينبغي علمه أن النعمة الواصلة قسمان: دنيوية، وأخروية: أما الدنيوية فمنها ما هو وهبي لا علاقة للإنسان فيه كخلقه، وتعريضه للنعيم، وتزويده بالحواس الكافية والمشاعر الصافية والعقل السليم.. ومنها ما هو كسبي ككسب العلوم والمعارف، وتزكية النفس عن الرذائل، وتحليتها بالفضائل، وتحصيل الجاه المشروع والمال الحلال النافع. وأما الأخروية فمنها غفران الذنوب، والوفاة مع الأبرار، والسكون في الجنة دار القرار، وشرف لقاء وجهه مع الإبصار... فأصحاب هذه النعم الجسام هم المقصودون. ويجوز أن يراد بهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

واما السلبيّ الموصولُ بالموصول أعني غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فمدلولها بالإجمال المستفاد من المضاف إليه قسمان: الأول عبارة عن الذين خرجوا عن الدين بعد علمهم به أي كفروا به، وتمردوا عن العمل به، واستمروا في تمردهم وعنادهم، وأثاروا نار الفتنة العمياء إزاء الحنيفية البيضاء، وتهالكوا وتظاهروا في إيذاء صاحب الإسلام وأهله، ودبروا تخطيطات جهنمية لإمحائه واستئصاله كالمعاندين له من عصر

الرسول إلى يومنا هذا ولا يزالون يسعون لتمزين أمة الإسلام وتفريقها وتبعيـدها عن المثـل العليـا، وعن عـزة الـدنيا، فلا شـك أن غضـب اللـه عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا. ويلتحـق بهم المسـلمون المنحرفون عن الحق والصواب، المحرِّفـون لنصـوص السـنة والكتـاب، والمأوِّلون لها بغير صواب، مع علمهم بعنادهم وفسادهم. وإذا نصـحتهم أخَذتْهمُ العزةُ بالاثم علاوة على أعمالهم السيئة. أو الطغـاة البغـاة على الأنفس والأعراض والأموال كيف يتمكنون ويتسع لهم المجال ولا شبهة أنهم في ركاب المغضوبين الأولين.

والقسم الثاني الضالُّون عن طريق الرَّشاد ممن وصلتهم رسـالة الحـق والإسـلام ولكنهم لم يعملـوا بهـا وسـلكوا مسـالك أربـاب الهـوى من أحبارهم وكبرائهم الضالِّين فأضلُّوهم. أو المسـلمون الضـعاف النفـوس الذين استمروا على أعمال فاسـدة حسـب التقاليـد والأوهـام الباطلـة، وهم عليها مرحون وبها فرحون.

وتفسـير الاول بـاليهود، والثـاني بالنصـارى وارد. ولكن المفهـوم أعمـد، والكفر ملـة واحـدة. ومـاذا بعـد الحـق الا الضـلال؟ اعاذنـا اللـه بفضـله ورحمته عن موجبات عذابه وسخطه برحمته إنه ارحم الراحمين.

ولما كان السلوك على الصراط المسـتقيم للوصـول والـدعاء للقبـول.. ورد بعـد طلب الهدايـةِ واسـتدعاء العنايـة للوصـول إلى النهايـة (آمين) على لسان الرسول الأمين. فعن أبي هريرة أن رسول الله صـلى اللـه عليه وسلم قال: ((اذا اَمّنَ الإمام فـأَمِّنوا فـإن من وافـق تأمينـه تـأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه)). وعن وائل بن حجـر قـال: سـمعت رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: قـرا غـير المغضـوب عليهم ولا الضالين فقال (آمين) يمد بها صـوته. رواه أحمـد وأبـو داود والترمـذي. وهـذا الأمـر للنـدب عنـد الجمهـور. والمشـهور عن أبي حنيفـة إخفـاؤه مطلقا. وكذلك

عند مالك في إحدى الروايتين ومذهب الشافعي وأحمد الجهر به في الجهرية، والإسرار في السّرية. ولكن حد الجهر أن يسمعه من يليك لا رفع الصوت به حتى تؤذيه أو يؤذيك. وما روي من أنه كان للمسجد في عهده صلى الله عليه وسلم لجّة من التأمين فمن تظاهر الأصوات لا من رفعها كما هو معمول عند بعض الناس.

وفي آمين لغتان: مد الألف، وقصرها. وهو اسم فعل بمعنى إستجب. أي اللهم استجب لنا دُعاءنا!

خلاصة معنى سورة الفاتحة

نبدأ بالطاعة بعون اسم الله الجامع للكمال، المنزه عن النقص، المنعم بجلائل النعم ودقائقها في الدنيا والآخرة حسب علمه المبين.

وكل حمد وثناء ملك لله الذي ربَّى العالمين؛ خَلَقهُم وسَوَّاهم واَوصَلهم إلى منتهم مُراده في الكائنات بصنعه الدقيق الرّصين.

الرب المنعم بالنِّعم. كلها حسب ما شاء على من شاء من العالمين. المالك للجزاء في يوم الجزاء، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء من الجنِّة والناس أجمعين.

فَلَك وحدك نخضع ونذل، ومنك وحدك نطلب العون للدنيا والدين فيا ربنا دُلَّنا بلطفك إلى الصراط المستقيم دين الإسلام من العقائد والأحكام، وسائر مواهبك على الأنبياء والرسل الكرام وعبادك الصالحين. صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، من عبادك المؤمنين.

المغايرين إعتقاداً وعملا لمن غضبت عليهم من الكفار المعاندين والمسلمين المتمردين، والضالّين عن طريق الحق في الدين. اللهم استجب لنا دعاءنا يا ربَّ العالمين!

سورة البقرة، مدنية وآياتها مائتان وست وثمانون آية

هذه السورة مدنية بالإجماع بناء على أن المدني مـا نـزل بعـد الهجـرة. وفيهـا آيـة هي آخـر آيـة نـزلت من القـرآن الكـريم، وهي قولـه تعـالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والسورة تقرأ مهموزاً وغير مهموز فعلى الأول من السؤر، وهو ما بقي من الطعام في الإناء، لأنها قطعة من القرآن. وعلى الثاني إمـا مخفـف المهموز، أو هو أصل برأسه بمعنى المنزلة، لأن القرآن منازل من أولـه إلى آخره، أو هي من سور المدينة؛ لإحاطتها بمقدار من الأحكام. والآي بمد الهمزة جمع آية. أصلها أوية بمعنى العلامة، وأصـله: أأُوي كـأفلس، خففت الهمزة الثانية بإبدالها ألفاً، وحذفت ضمة الواو لثقلها، ثم حذفت نفسها لإلتقاء الساكنين. وكل آية علامة على بعض من المقاصد الدينية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم﴿ (1)﴾

هذه الأحرف واشباهها من فواتح السور فيها آراء.

منها أنها أسماء للسور واختيرت لإشارتها إلى إعجاز القرآن، فإنه آيـات حاصلة من كلمات مركبة من الحـروف الهجائيـة المبذولـة لكـل متكلم، فلو كان من عند غير الله لقدر الناس على تركيب كلمـات متماثلـة مـع القرآن

الكـريم في مزاياهـا الانفراديـة والإجتماعيـة. والـراي الـراجح أنهـا من المتشـابهات، إسـتأثر اللـه بعلمهـا أو علَّم الراسـخين في العلم مـرادَهُ منها.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ إشارة إلى القرآن الكـريم، وفي البخـاري: وقـال معمـر ذلك الكتاب القرآن.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك ولا شبهة في أنه كلام الله سبحانه وتعالى عند من وفقه الله وصفا قلبه عن الكدر. أو لا ينبغي ولا يليـق أن يشـك فيـه أحـد؛ لأن من تفكـر في وجـوه بلاغتـه، والأخبـار الغيبيـة الـواردة فيـه، وتعرّضـه للأمـور العلميـة الـتي لا يفهمهـا إلا أولـو الألبـاب العليم. إلى أسلوبه المغاير لأساليب كلام البشر علم أنه من الله العزيز العليم.

﴿هُدًى﴾ مصدر حُمِل على وجه المبالغة.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العبـاد الصـائرين إلى التقـوى. وهـو لفيـف مفـروق من وقى. ودرجاتها ثلاث: الأولى: التقـوى عن الكفـر ويحصـل بهـا الإسـلام. الثانية: التقوى عن كبائر المعاصـي والصـغائر بالإسـتمرار، ويحصـل بهـا العدالة. والثالثة: التقوى عما سوى الله تعـالى. أي لا يتوجـه إلى شـيء إلا من حيث إرتضـاء الشـرع. ويحصـل بهـا الولايـة والإختصـاص باللـه سبحانه وتعالى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الموصول صفة للمتقين، أو خبر مبتدأ محـذوف أي هم الذين يؤمنـون. الإيمـان إفعـال من الأمن للصّـيرورة أو التعديـة، والغالب تعديته بالباء إذا تعلق بالله ويعتبر فيه معنى الإذعـان، وبـالكلام إذا تعلق بغـيره ويعتـبر فيـه معـنى التصـديق كقولـه تعـالى: ﴿وَمَـا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ وهو في أصل اللغة معناه جعـل الغـير آمنـا مطلقاً، ثم نقل إلى معنى جعلهِ آمِناً من التكذيب.

ويجتمع بهذا المعنى مع مخالفاته نحو ﴿وَمَا يُـؤْمِنُ أَكْثَـرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فالمشرِك المصدق بوجود الصانع وصفاته لا يكون إلا مؤمنـا بحسب اللغة دون الشرع، كما صرح به السعد في شـرح العقائـد. وفي حقيقته الشرعية أقوال أقربها ثلاثة:

الأول: إنه تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عنـده تعالى مع الاقرار بكلمتي الشـهادة. ويـروى هـذا عن الإمـام ابي حنيفـة رضي الله عنه.

الثـاني: قـول السـلف من التـابعين وجمهـرة المحـدثين أنـه التصـديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان. أي ترك المحرمـات وفعـل الواجبات فـإذا أرادوا بهـذا الإيمـان المسـتوعب لجميـع مـا هـو مـوجب للكمـال فلا نـزاع، بـل وينبغي أن يـدخل فيـه تـرك المكروهـات وفعـل المنـدوبات، إذ بهـا يتكامـل على مـا ينبغي. وإن أرادوا أنهـا معتـبرة في حقيقة الإيمان بحيث إذا انتفى شيء منها إنتفى الإيمـان، فلا شـبهة في أن رأيهم غير سـليم، إذ ورد النص بخلاف ذلـك فقـد قـال تعـالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَـانِ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ اقْتَتَلُـوا... ﴾ الآيــة، فإنــه أســند الإيمــان إلى المقاتلين ولاشك أن فيهم العصاة إلا إذا كـانوا على الإجتهـاد في الـدّين وهم أهل له وأني ذلك؟ ولزم منـه نسـبة الكفـر إلى من تـرك واجبـا أو فعل محرما. وجمهرة المسلمين على خلاف ذلك، وقال صلى الله عليه وسـلم.. في جملـة حـديث ((وإن زنى وإن سـرق على رغم أَنـف أبي ذرّ)).

والقول الثالث: هو التصديق للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله إجمالا فيما علم إجمـالا، وتفصـيلا فيمـا علم تفصـيلا، وهـذا القول هو الراجح. ويدل عليه الآيـات الدالـة على أن محـل الإيمـان هـو القلب كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾.

وكقولـه: ﴿وَقَلْبُـهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـانِ﴾ وقولـه ﴿وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمَـانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم ((اللهم ثبت قلبي على دينك)).

لكنه لا شك في أن ذلك التصديق مشروط بالإقرار بالشـهادتين لإجـراء أحكام الإيمان على صاحبه وإلّا فالإيمان مستور لا يعلم به إلا اللـه، كمـا أنه مشروط بالإذعان الفعلي وهو التسليم لما جاء به الرسـول، وبعـدم ملابسـته لمـا يـدل على السّـخط والإنكـار كشـد الزِّنّـار، ولبس الغيـار، وتحقير شعار من شعائر الـدين. والـدليل على اشـتراط التسـليم قولـه تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

فـإن العطـف يـدل على المغـايرة مـع العلم أن الإيمـان علم وكيفيـة نفسـانية، والتسـليم فعـل من أفعالهـا، والكيـف والفعـل متغـايران بلا شبهة، كمـا أنـه يـدل على وجـوب تجـرده من السـخط والجحـود قولـه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُـهُمْ ظُلْمًـا وَعُلُـوًّا﴾ وقولـه: ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَـاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًـا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُـونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وإنمـا إكتفى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم بنطـق النـاس بكلمـتي الشهادة في الإسلام؛ لأن الظاهر من حال العاقل المختـار أن لا ينـافق ولا ينطق إلا بمـا في قلبـه، ولأنـه شـعار الرضـا والإستحسـان. كمـا أن العلماء سلفاً وخلفاً عرفوا الإيمان بالتصديق بما جاء به الرسـول صـلى الله عليه وسلم بدون التعرض لاشـتراط التسـليم؛ لأن الغـالب الـراجح من حال الإنسـان الـذي عنـده اذعـان وتصـديق بشـيء أن لا ينكـره ولا يعانده ويسلّم نفسه له.

فعلم ممـا ذكرنـا أن الإيمـان في اللغـة، وفي العـرف المنطقي، وفي عرف الشرع: هو الاذعان العلمي والتصديق القلبي على حد سواء، غير أن الإيمـان في اللغـة وفي المنطـق لم يشـترطا بالتسـليم الفعلي ولا بمباينة

السخط، فإن المصدق لقول شخص يعتبر مؤمناً بكلامه، وإن عاداه نفساً وأنكره قلباً، فالإيمان اللغوي والمنطقي يجتمع مع الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، ولكن الإيمان في عرف الشرع لما كان هو التصديق بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله ومن جملة ما جاء به التوحيد لله؛ فلا يجتمع الإيمان مع الشرك، ومع الكراهية للدين وأهله، ومع الإستحقار لشعار الإسلام. حيث أن الغاية من الإسلام والايمان الدخول في ساحة سعادة الدين، والتعاون مع المسلمين، والنصح لهم، والإهتمام بشؤونهم الدينية والدنيوية المرضية. ولا يتناسب ذلك مع ما يخالفه قطعاً. ولذلك قال المحققون: إن الإيمان بالله وبالرسول وبما جاء به هو المحبة والرضا.

وعليه قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه والناس أجمعين)). أو كما قال.

وخلاصة الكلام: أن الإيمان في الشرع إذعان علمي وتصديق، وهو كيف نفساني كالإيمان لغة ومنطقاً، إلا أنه فيهما يجوز مقارنته للإستنكار النفساني. وأما الإيمان الشرعي فيجب مقارنته للتسليم الفعلي ومفارقته لكل سخط وإنكار.

ومما يجب أن يعلم أن التصديق المعتبر في الإيمان هو التصديق الجازم. أي أنه ليس التردد والشك ولا الظّن. فإن الظن لا يعني من الحق شيئاً، وأن التصديق الجازم يجب أن يسعى صاحبه في وصوله إلى

درجة لا يقبل الزوال بتشكيك المشكك. أي يكـون تصـديقاً جازمـاً ثابتـاً. ومن هذه الدرجة إلى أعلى درجـات اليقين مـراتب كثـيرة يعلـو بعضـها بعضا. ولا شك في ذلـك لمن أنصـف ونظـر إلى أحـوال نفسـه وأحـوال المسلمين. فإن قلت: يلزم من بيانك أن لا يعتـبر إيمـان المقلـد! قلت: ذلك صحيح وأساسه أنه عبـارة عن إيمـان لم يُبْنَ على تصـديق صـاحبه من ذاته، وإنما بُنيَ عَلَى التبعية للغير وتقليـده فيـه. حـتى إذا سُـئل عن أساس إيمانه أجاب بأن إيمانه ناشئ عن قول فلان وعن التبعية له. ولا شبهة في أن هذا الإيمـان ليس بمعتـبر عنـد أيِّ شـخص صـاحب تمكين في الدين.

وأمـا المقلـدون الموجـودون بيننـا فلكـل منهم حالـة نفسـية قدسـية، واستدلال بالإجمال حتى إذا سألته: ما دليلك على وجود البـاري تعـالى؟ يستدل لك بشيء يعجبك متانة ورزانةً. وقد سمعنا انه سُئل شخص عن الدليل على وحدة الباري سبحانه فقال: دليلي طاحونـة قريـة (بيسـتان سور)، فانها عندما كان صاحبها واحداً كـانت تطحن في كـل يـوم وليلـة عشـر تغـارات، والآن وقـد مـات المالـك وانتقلت إلى أولاده الأربـع لا تطحن إلا أربع تغارات!

والغيب كل ما غاب عن الحس، فلا يدركه ولا تقتضيه بداهة العقـل ممـا يجب الإذعـان والتصـديق بـه كوجـود البـاري تعـالى، وصـفاته ووجـود الملائكة، والكتب المنزلة على الرسـل الكـرام، ومـا أخـبر بـه الرسـول من: أحوال البرزخ، ونعيم الإنسان فيه، وعذابـه، ويـوم القيامـة، واحيـاء المـوتى فيـه، والبعث، والحشـر في المحشـر، والحسـاب للأعمـال، والسؤال والجواب، وما بعدها من الدخول في النار، أو في جنة الأبـرار، ولقاء الباري تعالى فيه... وغير ذلك مما أخبر به الصـادق. وذلـك مبـني على

أن المتقين هم الذين يؤمنـون بـه عنـد الإخبـار بـه من طـرف الرسـول صلى الله عليه وسلم عند تبليغ أحكام الإسلام ثم جـاء بمـا يشـهد على وجود ذلك الإيمان من الفقرات الآتية فقال:

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾:

أي يؤدون الصلاة المقررة في الذمة على الوجه المشـروع، أو يعـدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع خلل في مقـدماتها، أو نقص في أركانهـا، أو فتور في كيفية أدائها بترك الخشوع وسـائر سـننها، أو المـراد الـذين يروجـون الصـلاة، ويسـعون في إعلاء شـأنها، وتعمـير مكانهـا، ورعايـة زمانها، وكيفية أدائها عند الإنفراد أو الإجتماع. أو المراد الذين يـداومون عليها في أوقاتها ولا يتركونها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ﴾ (٣) والـرزق: مـا سـاقه اللـه تعـالى إلى المـرزوق من: الطعـام، والشـراب، والملبس، والمسـكن... وسـائر مـا يتنعم به في حياته. فمنها ما هو وهبي، ومنها مـا هـو كسـبي. وهـذا قـد يكون طريقُ اكتسابه مشـروعاً فيكـون حلالاً، وقـد يكـون غـير مشـروع فيكون حراماً. وكل ذلك رزق، والله معطيـه على سـنته الكونيـة لقولـه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فـالحلال والحـرام كله رزق.

ثم الإنفاق منه يشمل الإنفاق الواجب كالإنفاق على الممون شـرعاً من نفسه وغيره، وكصرف الزكاة والكفارات والنـذور. والمنـدوب كالهـدايا، والهبات، والصدقات. ووقوع الفقرة في سياق المتقين يؤيد الإستيعاب.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ وَبِـالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (4) عطف على ما تقدمـه، والمـراد بالموصـول كـل من حـاز الفضائل الثلاث من: الإيمان بالكتب السابقة، والإيمان بالقرآن، والآخرة حق الإيمان.

والمراد بالآخرة الدار الآخرة من الجنة والجحيم، أو الحياة فيها، أو جزاء الأعمـال. والإيقـان من اليقين، وهـو الإعتقـاد الجـازم الثـابت المطـابق للواقع. وفي تخصيصه بالذكر إشارة إلى عدم الإعتبـار بـالظن والتقليـد في الإيمـان. ولكن ذلـك مبـني على كـون المقلـد معتمـدا على تقليـده للغير فقط، وأما إذا نشأ بين أظهر قوم مؤمنين اولي مقـام وتبعهم في الإيمان، وكان مع ذلك عنده دليل على ما اعتقده فلا شبهة في إعتبـاره وقبوله. وروي عن ابن عباس وابن مسعود رضي اللـه عنهم أن المـراد بالموصول هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأشباهه. ويحتمـل أن يـراد بـه الموصـول الأول الـذي هـو أعمّ. ووجـود العـاطف للتغـاير الإعتباري المأخوذ من الصلتين وإنما ذكر الإيمـان بـالآخرة مـع اندراجـه في الإيمان بالغيب للإهتمام بالإيمان بها.

والإنزال: نقل الشيء من أعلى إلى أسفل، فإن كان النازل عينا فذاك. وإن كان معنى فإنزاله عبارة عن إنزال الملك الموكل به كجبريل عليـه السلام. بـأن يتلقفـه الملـك من اللـه تعـالى تلقفـا روحيـا أو يأخـذه من اللـوح المحفـوظ، فيـنزل بـه إلى الرسـول. والقـرآن، وإن لم يكن كلـه منزلاً عند نزول هذه الآية، لكن غلب المـنزل على غـير المـنزل لـترقب نزوله تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (5)

خبران للموصولين السابقين، إن وقف على المتقين، وقطع ما بعده عنه. وإلّا فمبتدآن وما بعدهما خبر. وفي بناء الخبر على اسم الإشارة إشعار بكون الأوصاف الواردة بعد الموصولين علة لتمكن الجمع من الهدى والفلاح. ولا شبهة أن من حاز فضيلة الإيمان على وجه الإيقان ومباشرة الأعمال الصالحة المرضية إستحق فضلا من الله أن يستقر على مراقي الهدى والفلاح.

وعن مجاهد رضي الله عنه أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة نزلت في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين. أخرجه الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري.

ولما تم بيان أحوال المؤمنين في الآيات الأربع أخذ في بيان أحوال الكافرين المعلنين للكفر المصرين عليه فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (6)

فأفاد أن اولئك الناس الذين بلَّغتَهُم الكتابَ وأرشدتَهُمْ إلى الصواب وعاملتهم معاملة الرجل مع الأحباب فلم يزيدوا إلا عناداً واستكباراً.. لا ينفعهم الإنذار والتبشير فيستويان بالنسبة إليهم لا إليك، فإنك مأجور وأجرك موفور فلا تتعب نفسك بعد اليوم على إرشادهم فهم لا يؤمنون.

وهنا فوائد: الأولى: أن الموصول وصلته إما للعهد والإشارة إلى افراد معينين كأبي جهل، وأبي لهب، والوليد بن المغيرة، أو للإشارة إلى الجنس المحتمل لهم ولغيرهم ممن سلك مسلكهم.

الثانية: أن الكفر في عرف الشرع إنكار الشيء مما جاء من دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلم بداهة. فمن أنكر وجود الله، أو صفة من صفاته، أو اعترف بذلك، ولكنه اعتقد وجود واجب، أو خالق، أو معبود ثان فأشركه به، أو أنكر وجود الملائكة، أو أحدا من المرسلين، أو كتاباً من الكتب المنزلة عليهم، أو أنكر تأثير الله تعالى في موجود من الممكنات، وقال إنه مخلوق غيره تعالى! أو أنكر القيامة وبعث الموتى وحشرهم وحسابهم، أو أنكر وجوب أحد الأركان الخمسة من الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت، أو ظهر منه قول أو فعل يدل على شيء من ذلك كشد الزنار ولبس الغيار فهو كافر. وكذا من حَرم حلالاً أو أحل حراماً بالإجماع أو بالنصوص كقتل النفوس البريئة وهتك الأعراض، ونهب الأموال فهو كافر. وعليه فالإيمان والكفر وصفان وجوديان متضادان لا يجتمعان في ذات واحدة أبدا. وقيل: الكفر مفهوم عدمي كالظلمة مقابل النور، فهو عدم الإيمان عمن شأنه الإيمانُ حتى يشمل الإنسان الذي خلا قلبُه عن التصديق والتكذيب، والشاكَ المتردد في الأمر. فالوجه الأول مبني على التغليب.

ولما أفاد الباري تعالى أن أولئك الناس لا يؤمنون علل ذلك بقوله:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧) يعني أن أولئك الناس لمّا لم ينتفعوا بادراك القلوب وبإحساس الحواس والمشاعر، ولم يهتموا قطعاً بتبليغات الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يستمعوا لما ألقاه إليهم، ولم يروا بأبصارهم العلامات الدالّة على صدقه شبهت قلوبهم بصناديق نقودٍ سُدَّت أبوابها واسماعُهم بجهاز منع عن أخذ الأصوات، وأبصارهُم بعيون غطيت بما يمنعها عن إبصار الألوان والأضواء.

وبما أنهم هم الـذين أضـروا بأنفسـهم حيث وجَّهـوا قـواهم إلى الجمـود والجحـود، ولم يسترشـدوا بإرشـاد الرسـول، بـل عانـدوه واسـتكبروا وامتنعوا من القبول ومنعوا الناس من إطاعة أمر الله قـرّر اللـه تعـالى لهم عـذاباً عظيمـاً لكفـرهم وتسـبّبهم في كفـر غـيرهم. وكـذلك حكم أشباههم من الفاسدين المفسدين.

وممـا يجب أن يعلم أن ليس المـراد بـالختم والغشـاوة في هـذه الآيـة والإضلال ونحوه في الآيات الأخرى إن الله تعالى تعمّد بقهر العباد على هـذه الأمـور بـل معنـاه أنـه تعـالى خلقهم وسـوّاهم وأعـانهم بـالعقول والحواس والمشاعر، ثم أيد عقولهم بإرسـال الرسـول وإنـزال الكتـاب وتبليغ كل حكم من الأحكام فلم يسمعوا ولم يطيعوا، وقابلوا تلك النعم العظيمة بـالكفران والإسـتكبار، ومعانـدة الرسـول بكـل مـا لـديهم من القوة والطاقة.. تعلقت قدرته تعالى بصب الجزاء عليهم فخلق الضـلال والغواية فيهم، وجعل حواسهم ومشاعرهم معلولة مؤفة ترتيبـاً للجـزاء على الأعمال، وإلا فلو قهرهم الله تعالى على ذلك مـا ارسـل الرسـل، وما بين السبل، نعم إنه سبحانه وتعالى يعلم أزلاً وأبداً أحـوال كـل عبـد وأعماله وصرف إرادته إلى ما يختار من آماله، فإنه علام الغيوب. ولكن العبد أيضا بدوره عـالم عامـل عاقـل مختـار في أحوالـه ومسـؤول عن أعماله فإذا أهمـل عقلـه ونـوره، ولم يسـتعمل بحـقٍّ حواسـه وشـعوره فالموافق لعدل الباري أن يقابلهم بسلب سَلَب الفضائل وجلب الرذائل إلى نفوسهم في الـدنيا وعقـابهم في الآخـرة، ومـا كـان اللـه ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ولمــا بيّن البــاري ســبحانه وتعــالى القســم الأول من النــاس وهم المخلصـون في الإيمـان وثنـاهم بالخالصـين في الكفـر والعـدوان تلتهم بالمنــافقين اللاعــبين على الحبــال والميــول، والجــارفين الصــائلين كالسّيول. فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)﴾

يعني سبحانه وتعالى أن من جنس الناس أناساً ناسين لحقوق المَلكِ العادلِ، لابسينَ الحق بالباطلِ، ينافقون الرسول والمؤمنينَ فيقولون باللسان آمنَّا بالله المسيطر على العباد المثيبِ المعاقِب في المعاد، وباليوم الآخر يوم الميعاد، وماهم بمؤمنين، فليس عندهم التصديق والإستقرار، بل عندهم الجحود والإستكبار والإستنكار، وغرضهم من قولهم ذلك أنهم يخادعون الله أي رسوله، ويخادعون الذين آمنوا فإنهم من البشر ويمكن التأثير في قلوبهم بإظهار ما في جيوبهم وإخفاء ما في غيوبهم وفي الواقع ما يخدعون إلا أنفسهم؛ لأن الله يصون الرسول والذين آمنوا من آثار مقالتهم ومكائدهم التي سمعوها وعاينوا. ويصب عليهم عذاب مقالهم وأعمالهم في حالهم ومآلهم وما يشعرون بذلك.

ثم أراد الله بيانَ سرِّ ذلك النفاق فيهم فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (10)

يعني أن أساس ذلك القول والخداع هو أن في قلوبهم مَرَضَ العِداء والعنادِ والحسد في الرسول والمؤمنين من إختصاصهم بنور الإيمان وتلقي أنوار الوحي من الملك الدّيان الذي يتزلزل به عرش كل من يخالفهم، ونشأ من ذلك مرض النفاق في إظهارهم خلاف ما أضمروا حتى يصونوا أرواحهم وأموالهم ويفوزوا بما يريدون من الغنائم والمنافع ويقرروا بين الناس عزتهم وكمالهم فزادهم الله تعالى باستمرارهم على ذلك. مرضاً من عروض وجوه أخرى من العداء والأحقاد، وإظهار نوع آخر من النفاق في غير أصول الدين، وهذا كله في الدنيا ولهم في دار الآخرة

عذاب أليم مؤلم مقيم بسبب كذبهم مع الرسول والمؤمـنين في إسـناد الإيمان إلى أنفسهم بدون أن يكون في الواقع كذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: من جانب المؤمنين بعـد أن تـبين أنّهم من المنـافقين المفسـدين ﴿لَا تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا تسـتمروا على هـذه الحالـة الخارجة عن الإعتدال الموجبة لفساد قلـوب الـذين يريـدون الإسـلام أو قلوب المؤمنين الضعاف ﴿قَالُوا﴾: مستنكرين لوجود الفسـاد والإفسـاد فيهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْـلِحُونَ (11)﴾ـ أي ليس شـأننا إلا الإصـلاح. وقـالوا ذلك أيضا إما: على وجه النفاق لأنهم يعلمون قلبا أنهم مفسدون لعـالم الإسلام مع أنه يعلنون أنهم مصلحون، أو على حقيقة ما اعتقدوه فـإنهم كانوا يزعمون أن الرسول ومن معـه أفسـدوا الأرض، وأنـه يجب عليهم معارضتهم حتى لا تبقى آثار فسادهم فيها ويصلحونها بأهوائهم الباطلة.

ولما ادعوا بكل قوة أن الإصلاح منحصر فيهم وليس شأنهم إلا ذلـك. رد الله تعالى عليهم بكمال القـوة وقـال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِـدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12)﴾ـ أي إن أقوالهم وأعمـالهم في مقابلـة الأمـة المسـلمة الإفساد للقلوب وجلب الكروب واختلاق العيوب والخيانة في الغيوب.

ولكن لا يشعرون بـأنهم المفسـدون فضـلا عن العلم بانحصـار الإفسـاد فيهم. وذلك لاعتقادهم خلـود دين موسـى عليـه السـلام، وتعـاميهم عن الأدلة القاطعة والبراهين اللامعة على أن دينه قد مضى وأنه قد ظهرت أشعة أنوار النبي الهادي المبعوث رحمة للعالمين محمد الخـاتم الأنبيـاء والمرسلين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُـؤْمِنُ كَمَـا آَمَنَ السُّـفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)﴾

وقولــه تعــالى: ﴿وَإِذَا قِيــلَ لَهُمْ﴾ معطــوف على الجملــة الســابقة، والمقصود أن الإنسان يحصل له الكمال الإنساني بالتخليـة عن الرذائـل والتحلية بالفضـائل، وارذل الرذائـل إفسـاد المجتمـع وأكمـل الكمـالات والفضائل التحلي بالإيمان، فـإذا نهـوا عن إرتكـاب القسـم الأول أجـابوا بأنهم براء منها ومتصفون بأضدادها ولكن الله رد عليهم أنه ليس الأمــر كذلك، وإذا امروا بالقسـم الثـاني وقيـل لهم آمنـوا كمـا آمن النـاس أي الناس المعهودون المعروفون بالصدق والإخلاص كالرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم وأصـحابه، أو جنس النـاس لكن الثـابتون منهم قـالوا في الجواب: أتؤمن كما آمن السفهاء أي الناس الخفاف العقـول فـرد اللـه عليهم وقـال: ألا تنبهـوا لمعرفـة الواقـع إنهم هم السـفهاء لا المؤمنـون ولكن لا يعلمون ما هـو الإيمـان ومن هم المؤمنـون، أو لا يعلمـون أنهم هم السفهاء ولا الذين آمنوا. أي فهم في جهل مركب.

ثم فصّل البـاري أحـوالهم، وبيّن أنهم يتحببـون إلى أهـل ملتهم لكسـب المزيد من عـزتهم، كمـا ينـافقون المؤمـنين لحفـظ أمـوالهم وأنفسـهم وصيانة حريتهم فقال: ﴿وَإِذَا لَقُـوا الَّذِينَ آَمَنُـوا قَـالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَـوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)﴾

أي أنَّهم مُصِرّون ودائبون على شيمة الكذب والنفاق مع المؤمنين فــاذا لقوا الذين آمنوا من كبار الناس قالوا آمنا بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من زمان سابق ونحن مستمرون عليه كما أنهم تَحَببُـوا إلى كُبَــرائهم في الشــيطنة والملعنــة الــذين يُــرجى منهم شــيء من المطامع الدنيئة وقالوا: إنا معكم في العقيدة

والدين، وفي معاندة المؤمنين. وإنما نحن في مجاراتنـا لهم مسـتهزؤن بهم لا معظمون ولا معتقدون فجازاهم الله بقوله:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)﴾

يعني إعلموا أن الله يستمر في الاستهزاء بهم ويزيدهم الآمال الباطلة، والأهـواء الفاسـدة، فتعمى بصـيرتهم، وتظلم سـريرتهم وفي طغيـانهم يبقون متحيرين حتى يَلْقوا موتهم متحسرين.

والمدُّ: الزيادة في القوة كالإمداد. والطغيان: تجاوز الحـد في العصـيان والعَمـه في البصـيرة كـالعَمى في البصـر. أعاذنـا اللـه منهمـا بفضـله ورحمته.

ثم إستأنف الباري سبحانه وتعالى لبيان أحوالهم فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الضَّـلَالَةَ بِالْهُـدَى فَمَـا رَبِحَتْ تِجَـارَتُهُمْ وَمَـا كَـانُوا مُهْتَدِينَ (16)﴾

يعـني إن أولئـك المنـافقين كـانت لهم فطـرة سـليمة مناسـبة للهـدى، وكانوا مستعدين لتوجيهها إليه، ولكنهم أسـاؤا معاملـة النفس، وأهملـوا تلك الفطرة وما تؤول إليه، واختـاروا مقابلهـا الزائـف الفاسـد المفسـد وهو الضلال، فما ربحت تجارتهم ومبادلتهم، نقدَ الذهب ببالي الخشـب. وما كانوا مهتدين لطريق التجـارة الرابحـة بـل ضـلوا فيهـا حيث ضـيعوا رؤس الأموال والأرباح الواصلة في المآل.

وفي الآية الكريمة إستعارة مكنية؛ حيث شبَّه الضلال بالأموال الفاسـدة الكاسـدة، والهـدى بالـذهب والأحجـار الكريمـة الـواردة، وذكـر إشـترى قرينة وفيه إستعارة تخيلية. وذكر الربح والتجارة الـتي وسـيلة التبـادل، والمعاملة إستعارةٌ تخييليةٌ وترشيح لها.

وخلاصة المقام: أنه كان في المدينة المنورة أنـاس منـافقون كعبداللـه بن أبي بن سلول وأعوانه. كانوا يدعون الإيمان ويقولون: آمنا بمـا جـاء به

محمد من عند اللـه من الإيمـان باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـله وبـاليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. وهم ما كانوا مؤمنين واقعـا، وغرضـهم من ذلك القـول أن يخـدعوا رسـول اللـه والمؤمـنين ولم يشـعرُوا أن وبـال خدعهم يعود عليهم؛ فإن الرسول الكريم قد زاده مقامـاً وشـأناً، ونشـر دينه في العالَم وأبقاه مخلّدا، والمؤمنون قد نالوا بالرشاد والجهاد أعلى مقام الكرامة اللائقة بالأمة. وإذا نصحهم ناصح على أحوالهم وقال لهم: لا تفسدوا في الأرض بالشقاق والنفاق وسـوء الأعمـال والأخلاق. قـالوا في جوابـــه على التوريـــة: إنمـــا نحن مصـــلحون الأرضَ، أي ناشـــرونَ الإسـلام. والمعـنى المكنـون في قلـوبهم: أنـا إذا سـعينا في توقيـف مساعيكم فنحن مصلحون لها بإزالتكم عنها وتنويرهـا بمـا عنـدنا. واللـه سبحانه ردَّ الجواب عليهم وقال ألا إنهم هم الذين إنحصـر الفسـاد فيهم ولكن لا يشعرون بما هو الفساد في الواقع، فكـانت أحـوالهم هكـذا: إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا مضوا إلى شياطينهم الإنس الطواغيت قالوا: إنا معكم إعتقادا وعملا، وإنا مستهزؤن باتباع محمد وبه وبأتباعه؛ لأنهم حُقَراء عندنا ورد اللـه عليهم بقولـه: ﴿اللَّهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وهنـاك فرق فارق بين من يستهزئ بالله وبين من يستهزئ اللـهُ بـه، ويزيـدهم قوة على الجهالة حـتى يمشـوا ويمسـوا عمهين في مقاصـدهم وعمين في مسـالكهم. فأولئـك النـاس حـالهم الجسـارة، ومـا لهم الخسـارة، وليسوا مهتدين.

ومما يظهر من المقام أنه قد يدعي الإنسـان الإيمـانَ ولا يكـون مؤمنـاً واقعاً لعدم وجود التصديق في قلبه، ولكنه يقر بالشهادتين لأغـراض لـه كالمنافقين وكما في الأعراب الذين جاؤا إلى الرسول وقالوا آمنّا، فـردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُـوبِكُمْ﴾ أي قولوا أسلمنا في ظاهر الحال وإلا فالإسلام والإنقياد النفسي لم يتحقق فيهم أيضاً.

ومما تبين عند المحققين أن الإيمان صفة من صفات النفس وكيفية من الكيفيات النفسانية، وهو العلم التصديقي أي الإعتقاد الجازم المطابق للواقع. والإسلام فعل من أفعال النفس، وهو الإنقياد والإذعان الفعلي وما دام الإيمان كيفا والإسلام فعلا فهما أمران متغايران مفهوماً وذاتاً. ولكن لمّا كان الإيمان أي التصديق الجازم للمؤمن مشروطاً بالتسليم. والإنقياد لِما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الإسلام في الشرع هو التسليم لما جاء به صلى الله عليه وسلم كان الإسلام والإيمان متساويين صدقاً وتحققاً، فكلما وجد الإيمان والمؤمن وجد الإسلام والمسلم، وكلما وجد الإسلام والمسلم شرعاً وجد الإيمان والمؤمن. فنسبة الكفر والجحود والظلم إلى اليهود كانت لعدم مقارنة تصديقهم واستيقانهم بالتسليم، بل كان مع الإباء والعداء النفسي له صلى الله عليه وسلم.

فالإستيقان المنسوب إلى أنفسهم في قوله تعالى ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وكذلك المعرفة المنسوبة إليهم في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ عبارة عن التصديق الجازم المطابق للواقع، ولكن لمّا لم يقارِن التسليمَ النفسي لم يعتبر إيماناً في الشرع فهم كافرون. فخُذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين.

فإن قيل: لما كان الإيمان الشرعي مشروطاً بالتسليم والإنقياد فلمَ لَمْ يعتبر العصاة من الناس كافرين؟ قلنا: ذلك التسليم المفسر للإسلام تسليم لأصل الرسالة، فمخالفه منكر لها. وأما المخالفة من العصاة فمخالفة مع التصديق بالأصل، أي مخالفة في الفروع وبينهما ما بين الثرى والثريا. أو ما بين الكفر والإيمان هذا.

ومما ينبغي معرفته أنه ثبت بالدليل القـاطع أن الإنسـان كائنـاً من كـان مستعد بالطبع للخير والشر، وتوجيهه إلى أحـدهما مبـني على التـدريب والتعويد، ويشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) فمن تعـودَ شـيئاً شـبَّ عليـه، ومن شـبَّ على شـيء شـاب عليـه. ولا علاقـة في ذلـك للـذكاء وتعلم العلـوم وأخـذ الفلسـفة وغـير ذلـك. فكم من فيلسـوف معتقـد للخرافات؟ وكم من جاهـل معـروفٍ لـه إعتقـاد سـليم بـرب البريّـات؟ فالدور الأساسي للتربية والتعليم والتدريب والتهذيب ولها طـرق كثـيرة لا تحصى، ومن أوضحها أن يكون المربِّي المهذّب مهذّب الأخلاق صـالح الأعمال حسن الإعتقاد. وقد يؤثر في طبع النشـء الجديـد الكلام اللّين، والطعامُ اللذيذ، والإحـترام، وحُسـنُ الإدارة معهم. وبـذلك ينشـأ الجيـل الجليل.

فان قلت: اذا تشعب الإنسـان إلى شـعوب، وكـان لكـلٍّ نحلـةٌ ومـذهب وكلٌّ إعتقد حسـن مذهبـه فمـا الممـيز للحـق من الباطـل منهـا؟ قلنـا: العقل السليم مجبور على إسناد الآثار إلى الفاعل العليم المختار، وبعد الإعتراف به يهتـدي العقـل إلى الصـواب، فإنـه لا يجـوز أن تكـون هـذه النحل المتناقضة كلهـا حقـاً، ولا كلهـا بـاطلاً؛ لأن النقـائض لا تجتمـع ولا ترتفع، فيجب أن يكون الحق واحـداً، وطريـق الوصـول إليـه عبـارة عن البراهين القاطعة المؤلفة من المقدمات البديهية. كأن يقال: كلما كـان العالم متحركا إحتاج إلى محرك قادر عالم دائم، لكن المقدم حق فثبت التالي. أو تقول: كلمـا ثبت تـواترا أنَّ سـيدنا محمـد إدَّعى الرسـالة من الله واظهر المعجزة كانت رسالته حقَّةً، لكن المقدم حق فثبت التالي.

ولا يخفى تأثير المغريات والمخوفات في القلوب، وهذه هي التي يعبر عنها بالظروف والمحيط. وهي أقوى عامل في تحويل الإنسان، ومن الله. العون وهو المستعان.

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لأولئك المنافقين مثلين: الأول باعتبار أول أحوالهم من الإستبشار بقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم والإستفتاح به على المشركين في الديار، ثم التحول إلى الجهود في الجحود والإستنكار. فقال:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)﴾

المثل في الأصل بمعنى الشبيه والنظير، ثم نقل إلى الكلام المشهور السائد بين الناس المشبه مضربه بمورده، ثم. استعير لكل حال أو قصة لها شأن واعتبار. والباء في قوله تعالى ﴿بِنُورِهِمْ﴾ للتعدية. ولما كان فيها معنى الإلصاق والمصاحبة كان أبلغ من الهمزة وفي المثل: كل من ذهب بشيء فقد أذهبه، وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به. وترك بمعنى صيّر.

يعني أن قصة المنافقين باعتبار أول أمرهم من الإستبشار ببعث الرسول الأمي العربي وأنه هو الرسول الذي بشر به الأسفار القديمة، والإستفتاح بظهوره على مشركي العرب بأنه لما جاء الرسول واستقرت له الدولة لا يبقى للمشركين أية صولة وجولة، ثم التحول عن هذه الحال إلى العداء والعناد والإستكبار والإستنكار كمثل القوم الواقع في مكان طامسٍ وليل داج دامس؛ فاستوقدوا نارا للإستفادة من نورها فلما اشتعلت واضاءت تلك النار بنورها ما حولهم ومحلَّهم.. كفروا بنعمة ذلك النور بسوء

العقيدة والشعور، والعمل الفاسد والقصور، فعاقبهم الله تعالى، وذهب بنورهم مع بقاء النار، وضرب بينهم وبينها بستار، وصيَّرهم في ظلمات لا يبصرون فيها، أي لا يبصر بعضهم بعضا. والظلمات بالنسبة إلى القوم ظلمة الدهشة والحيرة، وظلمة فقد البصيرة، وظلمة فقد الإبصار للاستراحة في المقام، أو لإتمام المسيرة. وبالنسبة إلى المنافقين ظُلمَة الكفر ظلمة النفاق اللتين جعلتاهم صُمَّاً عن استماع الحق. وبُكْما عن القول به، وعُمياً عن إبصار ما أمامَهم حتى يَتَخَطَّوْا خُطواتٍ لايقةً بالعقلاء.

والظلمة الثالثة: ظلمة يوم القيامة ولذا قال تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)﴾ والكلمات الثلاث على وزن فُعْلٍ بضم الفاء وسكون العين جموع: للأصم، والأبكم والأعمى. أي لما أَيِفَتْ عُقُولُهم أَيِفَتْ حَواسُّهُم، فكأنهم لا يسمَعون، ولا ينطقون، ولا يُبصرون. ما ينفعهم فهمٌ بعد هذه الحالة لا يَرجعونَ إلى الهدى.

والمثل الثاني: باعتبار ما استمرّوا فيه من العتوّ والعناد والفساد والإفساد. فقال:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)﴾

والصيَّب: فيعلٌ من الصوب، وأصله صَـويب، فقلبنـا مكـان الـواو واليـاء فصار صَيْوب، وقلبنا الواو ياء وأدغمنا الياء في الياء فصار صيّب كسـيّد. والصّيب هـو النـازل من فـوق ويقـال للمطـر باعتبـار ذاتـه، وللسـحاب باعتبـار مـا فيـه من المـاء. والمضـاف محـذوف، أي كـذوي صـيِّب. والظلمات بالنسبة للمطر ظلمة تكاثفه، وضلمة غمامه، وظلمـة الليـل. وبالنسـبة إلى السـحاب فهي سـواد الغيم، وتـراكم بعضـه على بعض، وظلمة الليل. والرعد: صوت يُسمَع من السحاب. والبرق: مـا يلمـع من السحاب. ولا شك أن الأجرام العلوية ومـا في الجـوِّ بـل كـل كـائن من الكائنات عليها ملائكة تتصرف فيها بإذن الله، فإذا ساق الملك السحاب وقطعهـا حَـدَثَ من تفريقهـا أصـواتٌ ولمعـاتٌ نوريـة مختلطـة فتسـبّح ملائكتها، وأهل الله يسمعون تسبيحها معرضين عما سواه. والناظر إلى المـواد يسـمع حركاتهـا ويَـرى مـا يحـدث من اصطكاكها، والصـاعقة: قصـيفة رعـد هائـل معهـا ثـار لا تمـرّ على شـيء إلا أَهْلَكتـه وأفنتـه. والخطف: الأخذ بسرعة، ومعنى الآيـتين: أو أنّ قصَّـة المُنـافقين كقـوم تحت مطـر شديد نـازل، أو تحت سـحاب فيـه مطـر هاطـل من جـانب الفوق في هذا أو ذاك ظلمات بعضـها فـوق بعض، ورعـد وبـرق هـائلان مخيفان، ويجعلون أصابعهم في آذانهم من أجل الإحتراز عن أضـرارهما بخرق ستار السمع، أو بأخذ نور البصر، حـذر المـوت أو مـا يقـرب منـه الله محيط بالكافرين، لا يفوتونه فلا يفيدهم الحذر إذا أتى عليهم القدر. وعند لمعان الـبرق على الإسـتقامة والإنحـراف واسـتيلائه على العيـون تكاد قوة الـبرق تأخـذ بسـرعة نـور أبصـارهم، وكلمـا أضـاء لهم الـبرق حواليهم مشَوْا فيه بمقدار ما استفادوا من نوره، وإذا أظلم اللـه عليهم منع البرق أو أظلم عليهم البرق باختفائه قـاموا هـائمين مترقـبين برقـاً ثانياً

وثالثـا. ولـو شـاء اللـه أن يـذهب بسـمعهم بقصـيف الرعـد وبأبصـارهم بوميض البرق لفعل ولذهب بهما، ولكنه لم يشأ ذلك رحمة بهم، إن الله على كل شيء قدير، أي أنه قادر على ابداع كـلّ أمـر ممكن يتعلـق بـه ارادته.

والقدرة: صـفة تقتضـي التمكن من الإيجـاد والاعـدام والإبقـاء. ومعـنى كونه قادرا على الموجود حين وجوده أنه إن شاء عدمـه أعدمه، وإن لم يشأ لم يعدمه، وعلى المعدوم حين عدمـه أنـه إن شـاء وجـوده أوجـده وإن لم يشأ وجوده لم يوجده.

والغرض من الآيتين تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة بما يكابـد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة. أو بحـال من أخذَتْـه السـماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف، وبرق خاطف، وخوف من الصواعق.

قال الشهاب: والمشبه في الأول مجموع أحوال المنافقين في تحـيرهم واضطرابهم مع إظهـارهم الإيمـان حفظـا لـدمائهم وأمـوالهم وذراريهم واهلهم وزوال ذلك عنهم سريعاً بإفشاء أسرارهم وافتضـاحهم المـؤدّي إلى خسـارة الـدارين. والمشـبه بـه حـال المسـتوقِد نـاراً مضـيئة لـه فانطفأت، ووجـه الشـبهِ صـلاح ظـاهر الحـال الـذي يـؤل لخلافـه. وفي الثاني حالهم في الشدة ولباس إيمانهم المبطن بالكفر المطرز بالخداع حذر القتل بحال ذوي مطر شـديد بـبرق ورعـد، يرقعـون خـروق آذانهم بأناملهم حَذَرَ الهلاكِ، ووجه الشبَّه وجدان ما ينفـع ظـاهره، وفي باطنـه بلاء عظيم. ويمكن جعلهمـا من قبيـل التمثيـل المفـرد وهـو: أن تأخـذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها. وملاحظتُها يسيرةٌ.

ولمـا ذكـر اللـه تعـالى فِـرق المكلفين من المؤمـنين المخلصـين، ومن الكـافرين المعانـدين المفلسـين من الرحمـة والنجـاح، ومن المنـافقين الذين ليس

لهم شرف التقوى وكرامتها ولا شخصية العدوِّ وشدتها.. نادى عباده المكلفين نداء مؤكداً، وأمرهم بعبادة الرب الواحد الأحد التي هي أساس السعادة ولها خلق الجن والإنس، وأتى في سرد ندائه بصفات للمعبود يصح أن يكون كل منها علة لاستحقاقه العبادة فضلاً عن مجموعها.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)﴾

قالوا: إن النداء بصيغة (يا أيها) فيه وجوه من التأكيد وفُسِّرت بتكرر ذكر المنادي لأنه متبوع بِوَصْفٍ هو المقصودُ بالنِّداء فايٌّ منادى صورةً، والناس منادى قصدا. وفيه الإيضاح بعد الإبهام، واختيار أداة نداء البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه واجتماع التعريفين في النداء وأل، ويستعمل في مقام الإهتمام بالمنادى له وهو العبادة هنا فإنها من شأنها أن يتفطن الناس لها، ويقبلوا إليها بقلوبهم ويستعدوا لأدائها. والناس اسم جنس معرف باللام، وحيث لا عهد فهو للعموم، وهذا النوع من العموم، يسمى بالعموم الشفاهي في الأصول؛ لأن بعض الأفراد موجودون ومخاطبون شفاها، والحق أنه يشمل أفراده جميعاً سواء الموجودون منهم والمعدومون. أمّا وضعا فلأن لفظ ناس بدون اللام كلي يصدق على أفراد كثيرين ذهنا، وتعريفه باللام يفيد عمومه وإحاطته بجميع أفراده مرة واحدة، ويكفي في صحة الخطاب وجود بعضهم؛ لأن المعدومين ملحوظون بالتبع كما في قول الواقف: وقفت هذه البساتين على العلماء المدرسين في المدرسة الفلانية. وعلى ذلك فَهم أهل اللغةِ

والعرفِ.

وأما شرعاً: فلأن عموم الخطابات علم بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما خصّ منها حيث قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. على أن المنادِيَ هو الله وهو عالم بجميع أفراد المنادى، وهم موجودون حاضرون في علمه تعالى، والمأمور به من المخاطبين المسلمين إدامة العبادة، والإستقامة عليها، ومزيد الإخلاص فيها. ومن الكافرين العبادة وإبداؤها بإبداء الإيمان؛ لأن التكليف يستلزم التكليف بشرطه كما في الأصول.

وذكر المعبود بعنوان الرب إشعاراً بأن تربيته لكم توجب عبادتكم له وتوصيفه بالوصول للتوضيح أو لإخراج الرب المزعوم للكافر البعيد عن قدرة الخلق، والتوصيف به وعطف عليه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إشعارا بعلة أخرى لاستحقاق العبادة؛ لأن خلق من قبلنا من مقدمات خلقنا في سلسلة التناسل فخلقهم نعمة لهم بالذات، ولنا بالواسطة. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إما حال عن فاعِل ﴿اعْبُدُوا﴾ يعني أعبدوه راجين الإندراج في سلك أهل التقوى الذين عَبَرُوا عَقَبَة الكفرِ والكبائرِ والركونِ إلى الدنيا الدنية التي هي أساس كل فساد.

ثم إستأنف بذكر نِعَمٍ أخرى من مقتضيات خلق البشر وبقائه في الأرض فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي بساطة تبْقَونَ عليها قعوداً وقياماً، ومستريحين نياماً، وساعين للرزق ساعات وأياماً. والأرض كيفما كانت كروية أو بيضية أو غيرهما، فكل قطعة منها تظهر كفراش مبسوط ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي وجعل السماء قبة مضروبة عليكم. والبناء مصدر أطلق على المبني بيتا، أو قبة، أو خباءً، أو غيرها. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ ولما جرت عادة الله تعالى

بجعل الماء الممزوج بالتراب سببا لإخراج الناميات التي لهـا منـافع في معـاش الإنسـان ومعـاده، وللمـاء دور هـام فيهـا.. عقب النعم السـابقة بـإنزال المـاء من السـماء الـذي يسـتعقب إخـراج الثمـرات مرزوقـة للإنسان للاقتيات أو التفكه أو التداوي أو للبّس أو غير ذلك.

ولمّا عدد تلـك النعم المقتضـية لعبـادة المنعم أكّـد ذلـك بعطـف جملـة النهي على الأمر وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي بعـدما علمتم من إفاضـة النعم المتلاحقـة الـتي لا يمكن صـدورها بـدون اِلَـه واجب خالق قادرٍ فاعبُدُوه وحَده، ولا تجعلوا له أمثالاً مزعومةً مع أنـه لا مثل له بالبداهة، وحالكم انكم من أصـحاب العلم والنظـر، وإذا نظـرتم بفكرٍ صافٍ خالٍ عن العناد والخلاف تبيّن لكم أنكم عـاجزون عن إيجـاد أيّ موجود، وعن دفع الموت والفناء عنكم، وعن جلب أسباب المعـاش وإخراجها من العدم إلى الوجود. فاكتفوا بعبادته وحـده، وكونـوا لـه من الشاكرين.

وهاتان الآيتان نزلتـا بالمدينـة المنـورة، فمـا اشـتهر من أن كـل سـورة نزلت فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهي مكية لا يُوافِقُ الواقع، فـالحق مـا قالـه الإمام الجعبري كما نقله الشهاب: أن كل سورة فيهـا ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ﴾ فقط أو أوّلها حرفُ تَهجٍّ سِوى الزَّهراوين - وهما: البقرة، وآل عمـران - والرعد في وجه، أو فيها قِصـة آدم وإبليس سـوى الطـولى فهي مكيـة. وكل سورة فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أو ذكر المنافقين فهي مدنية.

وفي الحقيقة إن الله سبحانه وتعـالى خلـق الجن والإنس لعبادتـه حـتى ينـالوا السـعادة الأبديـة، ومـا خلقهم لمعصـيته حـتى ينـالوا الشـقاوة للسرمدية،

والإنسان إذا تفكر بعقله السليم علم أنه ما من خير في الوجـود إلا من حضـرة واجب الوجـود، وأن الأسـباب على الإطلاق أسـباب وعلامـات ومعرفـات، وأن المسـببات إذا وجـدت عنـدها (لا) بهـا. اللـه خـالق كـل شيء، وهو على كـل شـيء وكيـل. فمن كـان يريـد العـزة فللـه العـزة جميعا، ومن كان يريد الرزق فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وعلى هذا الأساس يقول الباري سبحانه يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي ربّاكم وسـائر البريـات، وخلقكم وجميـع الكائنـات. ولا تعبـدوا الكـواكب والهياكـل والأصـنام والأوثـان وسـائر الجمـادات، ولا تتـذللوا للأعـاظم كالأعاجم، ولا تتزلفوا إلى أولى القوة والمناصب لنيل الجاه والمـراتب، واعلموا أن المنافع من أي المنابع فهي في قبضة قدرة المبدع الصـانع، فإذا كانت عقيدة المكلف هـذه عـاش سـعيدا، ومـات سـعيدا، ولا يغش الناس في المعاملة ولا ينافق بصورة المجاملة، ولا يعتبر نفسه إلا فردا من أفـراد الأمـة العظيمـة الإسـلامية؛ نقصـه في نقصـها، وكمالـه في كمالها.

وليس هناك تطرق إلى أن لا يتـذلل الإنسـان لوالديـه جـزاء لإحسـانهما إليه، وقد قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، ولا يخضع لأستاده حتى يدر عليه بعلمه وإسـناده، ولا يطلب من أي شـخص دعـاء وقد سأل سـيد الرسـل من صـاحبه أن يـدعو لـه وقـال: ((لا تنسـنا من دعائك يا أُخي)) وأن لا يطلب من الرسول شفاعة أو لا يستشـفع بجـاه أحد وقد استثنى الباري شفاعة من أذِن له، وأن لا يحترم شخصا ممتازا بالعمل الصالح، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((ما زال عبدي يتقـرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصـره الذي يبصر به، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجلـه الـتي يمشـي بهـا، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لاعيذنه)).

رواه البخـاري. ولا نـدري مـاذا يريـد بعض المفسـرين المقصـرين من عباراتهم العارية عن الحقيقة باسم التبصير والتنوير؟ وما هي إلا تعميـة وتكدير! فسبحانك ربنا أنت تحكم بين عبادك وأنت أحكم الحاكمين.

ولمـا أمـر البـاري سـبحانه وتعـالى عبـاده بعبادتـه الـتي هي السـعادة، وأرشدهم إلى استحقاقه لها بسـرد الجمـل الجميلـة الواضـحة عنـد من نظر في نفسه وفي تلك الأمور الآفاقية أرشـدهم إلى الإيمـان برسـالة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الإعتراف بالله وبرسوله هما النقطتان الجوهريتان في باب الإيمان وذلك بإرشادهم إلى الإعتراف بأن الكتـاب المنزل عليه صلى الله عليه وسلم كتـاب اللـه، ومن زوده ربـه بكتابـه، وشرفه بخطابه فهو الرسول القائم بامره على بابه، والإعتراف يحصـل بأن يسعَوْا ويتهالكوا في الإتيان بمثل ذلك الكتاب حتى إذا تبين عجزهم عنه علموا أنه كتاب الله المنزل على رسول الله، فقال مخاطباً ايّاهم:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُـوا شُـهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (23) فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُـوا وَلَنْ تَفْعَلُـوا فَـاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَـا النَّاسُ وَالْحِجَـارَةُ أُعِـدَّتْ لِلْكَـافِرِينَ (24)﴾

الريب: في الأصل قلق النفس، والمراد الشك. وهو هنا نكرة واقعة في سياق الشـرط فتعم كـل فـرد من أفـراده من أي صـنف كـان. وقولـه: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ مِن بابِ التَّفْعِيلِ للتكثـير في مـرات الـنزول، ويشـمل كـل نجم من نجومه قصيرة أو طويلة. وربـط الفعـل بذاتـه والإتيـان بضـمير الجمع

للدلالة على أنا إذا فعلنا شيئاً اتقناه. ولا يصدر منا عمل غير متقن لاسيما إذا كان العمل تنزيلاً لكتاب يكون أفضل الكتب.

وذكر الرسول بعنوان العبد وإضافته إلى نفسه إشارة إلى أن الذات الذي نزل عليه الكتاب لما كان متصفا بالعبودية الخالصة لله وهي أرقى مراقي الإنسان، وعبوديته له عبارة عن إختصاصه به وانقطاعه عما سواه، وحاصله: أنه اختارني للربوبية فاخترته للعبودية. وقوله ﴿فَأْتُوا﴾ أي كلكم وكل من له قابلية الإتيان كائنا من كان وقوله ﴿بِسُورَةٍ﴾ أي أية سورة كانت. وقوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ صفة لها، والضمير راجع إلى ما. أي فأتوا بسورة كائنة مِن مثل ما نزلنا على عبدنا. وقوله: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي الحاضرون، أو المعينون لكم. وقوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ متعلق بادعوا أي (أدعوا غير الله تعالى من حضركم للمعارضة) وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في أنه من كلام البشر.

وحاصل المعنى يا أيها الناس اعترفوا برسالة رسولنا محمد، واجعلوا الكلام الذي أنزلنا عليه دليلا على صدقه في دعواه، لأنه كلام لا يعارَض، ولا يؤتى بمثله، وإن كنتم في شك مما نزلناه عليه وتظنون أنه كلامه أو كلام غيره كجن أَلْهمَهُ أو إنسان علَّمه فأتوا بسورة كائنة من مثل ذلك الكتاب في حيازته الفصاحة والبلاغة، وكشفه ما في الأرض والسماوات وإخباره عن المغيبات، واعتداله، وصدقه، ومغايرة أسلوبه، ودعوة العالم إلى صلاح المعاش والمعاد، والتخلق بالهدى والرشاد. وعارضوه إن كنتم تقدرون على المعارضة وادعوا شهداءكم غير الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تأتوا بمثله ولاشك أنكم لن تفعلوه انتم وشهداؤكم إلى الأبد فاعلموا أنه منزل من اللهِ على رسوله الأمين المبعوث رحمة

للعـالمين. ولا تكفـروا بـه واتقـوا النـار الـتي وقودهـا النـاسُ المعـذبون والحجارة من الأصـنام الـتي كـانوا يعبـدونها، أو حجـارة الكـبريت لقـوة اشتعالها وشدة لهيبها، أو مطلق الحجارة لصلابتها، لأن قوة الوَقود على حسب شِدّة الوقود، واعِدّت وهيئت، وخلقت تلك النار لتعذيب الكافرين المتمردين الخاسرين. أعاذنا الله من أحوالهما.

ثم إعلم أنه قد ثبت عند المنصـفين من أهـل البلاغـة والأدب الرائـع أن القرآن الكريم معجزة ببنائـه وبيانـه، ولم يعارضـه أحـد منـذ نزولـه إلى الآن، ولو عارضه أحد لنقل تواترا لتوفر الـدواعي على نقلـه، وقـد ذكـر العلماء في سرِّ إعجازه أمورا كثيرة. واقواهـا هي الوجـوه الـتي ذكرهـا الإمام الرازي في تفسيره الكبير فقال:

أحدها أن فصاحة العـرب أكثرهـا في وصـف المشـاهدات، مثـل وصـف بعير، أو فرس، أو جارية، أو مِلكٍ، أو ضربة أو طعنة، أو وصف حرب، أو وصف غارة... وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء. فكـان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم.

وثانيهـا: أنـه تعـالى راعى فيـه طريقـة الصـدق وتـنزه عن الكـذب في جميعه، وكل شاعر ترك الكـذب والـتزم الصـدق تـنزل شـعره ولم يكن جيّـدا، ألا تـرى أن لبيـد بن ربيعـة، وحسـان بن ثـابت لمـا أسـلما نـزل شعرهما، ولهم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجـاهلي، وإن اللـه تعـالى مـع مـا تـنزه عن الكـذب والمجازفـة جـاء في القـرآن فصيحا كما ترى.

وثالثها: أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنمـا يتفـق في القصـيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كـذلك، وليس كـذلك القـرآن؛ لأنـه كلـه فصيح بحيث يعجز عنه الخلق، كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة، ولم يظهر التفاوت أصلا.

وخامسها: أنه إقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، وترك الدنيا.. واختيار الآخرة، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة.

وسادسها: أنهم قالوا: إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب، وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطلب، ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء... وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك. امّا القرآن فإنه جاء فصيحا في كل الفنون على غاية الفصاحة، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ الآيات، وقال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ الآية. وقال في الزجر: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ الى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وقالَ في الوَعظ ما لا مزيد عليه: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾؟ وقال في الإلهيات: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ الآية.

وسابعها: أن القرآن أصل العلوم كلها، فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه، وعلم النحو، واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وإخبار الآخرة، واستعمال مكارم

الأخلاق... ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى. إنتهى كلامه.

قلت: وكل من هذه الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي رحمه الله تعـالى حق حقيق بالقبول، وحقيقة سرّ تلـك الوجـوه أن الكلام صـفة المتكلم، وكل متكلم فله طاقات محـدودة والقـرآن الكـريم كلام البـاري تعـالى، وللباري تعالى قدرة شـاملة لا نهايـة لهـا، فـأي موضـوع يتصـور ويـذكر فالباري تعالى عالم بـه وبملابسـاته، ولـه الكلام النفسـي الـذي يتحمـل التعبـيرات اللامتناهيــة بــالوجوه اللامتناهيــة. فكيــف تصــل الطاقــات المحدودة إلى درجة الطاقات اللامحدودة؛ فإذا فرضنا رجلين يتسـابقان في الوصول إلى غاية، وفي أثناء المسـافة طـار أحـدهما إليهـا ووصـلها بقي منافسه في دهش وحيرة، وإذا تنـاظر عالمـان في موضـوع علمي يختص أحدهما به وللآخر يد طولى في سائر العلوم ايضـا فكيـف يقابـل هذا العالم المختص ذلك العالم المتبحر؟ فسر أوجـه إعجـاز القـرآن أن ألفاظـه من أي بـاب كـان فللبـاري سـبحانه علم وقـدرة في التصـوير والذكر والتعبير بحيث تتجاوز عن إمكان غيره، وفي واقـع الحـال يعجـز غـيره عن الإتيـان بمثـل مـا أتى بـه. يرشـدك إلى صـدق ذلـك مغـايرة أسلوب القرآن الكريم لأساليب التركيبات العربية نظماً ونـثراً بحيث إذا تفكـر العاقـل فيـه علم أن أسـلوبه لا يناسـب أسـاليب الكلام المعتـاد، ويعلم أنه مختص برب العباد وكذلك بلاغته المتجاوزة عن طاقة البشـر، وذلك لأن بلاغـة الكلام مطابقتـه لمقتضـى الحـال، ورعايتهـا تحتـاج إلى العلم الوافي بـالأحوال والمقتضـيات، والقـدرة على التعبـير على ذلـك، وليس عند احدٍ العلم بها غـير اللـه سـبحانه وتعـالى إلا بمقـدار محـدود وربما يرى المتكلم مخاطبه عاقلاً أو عالماً أو جـاهلاً ويتصـور لـه أحـوالا ويلقى كلامه حسب مرامه مع أنه يخالف واقع الحال ومقتضاه.

ثم إنا إذا نظرنا إلى أحوال الناس وعلومهم وأفكارهم علمنا أن الأفـراد منهم قليلا ماله العلم بأحوال الدنيا ومتطلباتها فإذا تكلم بشئ من ذلـك فلا يأتي إلا بناحية من نواحيها وشيء قليل، حـتى لـو قـررت جماعـات، وشكلت لجان لتأليف كتاب حول ذلك وجدناه ناقصـا بعـد مـدة وجـيزة، ومحتاجاً إلى التغيير والتكميل. وأما القرآن الكـريم فبمـا أنـه كلام علام الغيوب عالج النظر إلى الصانع ووحدته وصفاته، ورسالة رسله، والكتب المنزلة عليهم. وعالج عالم الغيب، والبرزخ، والآخـرة، وجـزاء الأعمـال، وما يستحقه العمال بالمآل. وعالج أمور الدنيا بـراً وبحـراً وجـواً، وأمـور السموات ومـا فيهـا من الكـواكب. وعـالج الأمـارة، والإدارة، والعدالـة، والمشاورة، ورعاية الأمانات، والإجتماعات، وأسـباب المعـاش، وصـيانة البلاد والعباد بإعداد القوة، والنظر في المستقبل والحال، إلى غير ذلـك من الأمور المهمة التي يحتاج إليه البشر. وقد جمع القرآن الكـريم كـل ذلك إجمالاً أو تفصـيلاً. فالإنصـاف أن هـذا الكلام لا يمكن صـدوره على وجه الكفاية إلا من علام الغيوب العالم بالبداية والنهايـة، فسـبحانه مِن إلهٍ عليم علام المنزل على حبيبه كلاماً مرشداً إلى السعادة بالدّوام.

ولما ذكـر الكـافرين وعقـابهم، جـاء بـذكر المؤمـنين على صـورة الأمـر برسوله الأمين أن يبشر عباده المؤمنين تبجيلا وتشريفا لهم. فقال:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًـا قَـالُوا هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَـا مِنْ قَبْـلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25)﴾

جملة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ﴾ عطف على الجملـة السـابقة، كـل جملـة لطائفـة وبيان عاقبة أمرهم جَريا على عادة الباري سبحانه وتعالى في تشفيع

الترهيب بالترغيب. والبشارة: الخبر السارّ، ولذلك خص شرعاً بأول الأخبار السارّة فإن ما بعد الأول لا يفيد ما يُفيده الأول، وقالوا: مَن بَكر به فهو المبشّر، ومن أتى بعدُ فهو مخبر. وعطف العمل على الإيمان دليل على تغايرهما. وهو يدل على أن السبب لدخول الجنة ونيل الجزاء الموفور هو مجموع الأمرين. فإن قلت: قد عُرف من الدين أن الإيمان وحده سبب لدخولها. فكيف تجعل الأمرين معاً سببا له؟ قلت: قد يكون لشيء واحد أسباب متعددة، فجعل شيء سبباً لا ينفي وجود أسباب أخرى، كما تقول: متى طلعت الشمس أضاءت الغرفة. ويجوز أن تكون مضيئة في الليل بالمصباح. وقد يجاب بأن الإيمان الثابت في الواقع لا ينفك عن الأعمال الصالحة فَتَعَودُ سببيةُ الإيمانِ لدخولها إلى سببيته مع الأعمال، والتصريح بالإيمان فقط في بعض ما ورد لكونه اساس السعادة ومنبعها. وأجاب آخرون بأن الإيمان وحده سبب لدخول الجنة مع قلة الدرجات، ومع الأعمال سبب له مع كثرة الدرجات على مستوى الأعمال الصالحات، فإنه لا يستوي من المسلمين من آمن وعمل كثيرا من الأعمال الصالحة المهمة مع من يؤمن ويعمل بعضاً منها، فالجنة من الإيمان والدرجات بحسب الأعمال. وقد يقال: إن الإيمان لا يثبت شرعاً إلا بالإقرار، وهو من جنس الأعمال الصالحة.

وقوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ صفة أولى للجنات. وقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ صفة ثانية. وكلما ظرف والعامل فيه جوابه وهو لتكرار ترتب الجواب على مدخوله. وقوله ﴿مُتَشَابِهًا﴾ أي متماثلاً في الصورة. وقوله ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أي من أدناس الصورة والسيرة، والدماء والأمراض، مما ينغص

العيش على الصـاحب. وقولـه ﴿وَهُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ﴾ من تتمـة النعم وجزؤها الأعلى في الاعتبار. إذ

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادّكار الموت والهرم

يقول الباري سبحانه آمراً حبيبه لتشريف المؤمنين وإفـادة أن الرسـول هو الوسيلة لوصول الإيمان إلى العباد فيكون مبـدأ لبشـارتهم بـالثواب، بشر المؤمنين الذين يعملون الأعمـال الصـالحة المُستسـاغة المحسّـنة في الـدين كـأداء الأركـان، والوفـاء بحقـوق الإنسـان، ورعايـة الأمانـة والعـدل في الأحكـام والعفـو والإحسـان، وصـلة الأرحـام، ومسـاعدة الضـعاف والأرامـل والأيتـام، والجهـاد في سـبيل إعلاء كلمـة الإسـلام، والجهد في نشر العلم والعمل الطيب ودفع المفاسد والأوهام، وإطعـام الطعام، وإفشـاء السـلام، والمجاملـة في المعاملـة والكلام، والإنصـاف وحفظ الغيب للأنام ومنع الجوارح عن الآثام، والقلب عن كـل مـا يضـرّ الخواص والعـوام.. أن لكـل منهم جنـات بحسـب مسـتوى أعمالـه على العدل، أو فوق ذلك بالفضـل، وتلـك الجنـات تجـري من جـانب أسـافل أشجارها الأنهار في سواقٍ وخدود، أو على سطح الأرض بـإرادة الملـك المعبود، ويتمتعون بثمارها التي لا تحيط بها إلا علم الله، فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعينٍ، وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الثمر هو الذي رزقنا من قبل في الدنيا ويفرحون به؛ لأنهم مألوفون به، أو هـذا الثمـر هـو الـذي رزقنـا من قبـل في الجنـة، وأتـوا بـذلك الثمـر متشـابها بعضـه مـع بعض في الصـورة، ومتخالفـاً في الطعم واللَّذة، وهنـاك مـا تشـتهيه الأنفس، وتلـذ الأعين، ولهم فيهـا للإبتهـاج والأنس والألفة أزواج لطيفة المزاج، مطهرة

من كـل مـا يكـدر صـفو العيش من الأقـذار والأوزار وسـوء المقـال والطيش، وهم فيها خالدون دائمون، وعن كل أذىً سالمون. رزقنا اللـه الدخول والخلود ببركة صاحب المقام المحمود سيدنا محمد صـلى اللـه عليه وسلم.

وممـا ينبغي أن يتنبـه لـه أن من مقتضـى الإيمـان باللـه واليـوم الآخـر الإيمان بأنه كما كان الباري تعالى قـادرا على خلـق الأرض والسـماوات وما فيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب اللماعـة الثابتـة الدائمـة منذ خلقت، والمواد العنصـرية الجامـدة والناميـة والحيوانـات والإنسـان المتصف بالاستعداد للتطورات.. فهو قادر على خلق الجنة التي عرضها السماوات والأرض في العـالم الـذي هـو أوسـع منهمـا بمـا لا يعلمـه إلا خـالق الكائنـات، وعلى خلـق جهنم مـأوى لأهـل السـيئات، وعلى خلـق إستعدادات بلا نهاية وقابليات بلا غاية في أجزاء الجنـة والجحيم وأبـدان أهلهما للبقاء في العـذاب الأليم أو في النعيم المقيم. فـإن القـادر على الإبداء قـادر على الإعـادة، والقـادر على الإعـادة قـادر على الإخلاد ابَـدَ الآبدين.

والإيمـان بعـالم الغيب إيمـان باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـالات رسـله وبالقضاء والقدر ويوم الـدين، فـإن الإيمـان بقـدرة إخـراج الشـيء من العدم إلى الوجود هو إيمان بالذات الـواجب الوجـود. والـواجب متصـف بالكمـالات اللا متناهيـة والتصـرف في الممكنـات من خصـائص رب العالمين.

ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض التمـثيلات إدعى بعض المعانـدين أنهـا لا تناسب عظمة الباري سبحانه رد عليهم ذلك وأنزل قوله

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

الحياء: إنقباض النفس عن القبيح مخافة الذم، وهو الوسط بين الوقاحة والخجل. وإذا وُصِف الباري تعالى به فالمراد الترك اللازم للإنقباض. وضربُ المثل: ذكر مثال لإيضاح أمرٍ مُبهم مهم. والبعوضة: الخموش، والحق: الأمر الثابت، أو الحكم المطابق للواقع، والفسق لغة: خروج مادة من محل إلى آخر، وشرعاً: خروج المكلف عن أمر الله بارتكاب الكبيرة أو الإصرار على الصغيرة. ولها ثلاث درجات: الأولى التغابي وهو أن يرتكبها مستقبحاً لها. والثانية: الإنهماك وهو أن يعتاد إرتكابها غيرَ مبالٍ بها. والثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها فيخلع ربقة الإيمان عن عنقه، ويلابس الكفر والعياذ بالله. والنسبة بينه وبين الكفر العموم والخصوص المطلق؛ فكل كفر فسق وليس كل فسق كفرا.

والنقض: تفريق طاقات الحبل وربطه بالعهد لتشبيهه به في الربط بين الطرفين، واستعير له الحبل في النفس إستعارة مكنية، وذكر النقض قرينة.

والعهد: الموثق. والوثاق والميثاق: عقد يؤكد بيمين. والموثق: الاسم منه، قالوا: عهود الله تعالى ثلاثة: عهدٌ أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقرّوا بربوبيته. وعهدٌ أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه. وعهدٌ أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه.

والمراد بالعهد هنا الحجة القائمة على عباد الله عقلا الدالة لهم على توحيده وصدق رسوله، فعلى هذا يلزم الذم لأنهم لما نقضوا ما أبرمه الله من الأدلة العقلية التي كررها عليهم في الأنفس والآفاق، وأكدها وأوثقها بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وإظهار المعجزة..

فقد نقضوا عهده من بعد ميثاقه. والناقضون على هذا جميع الكفار. أو العهد المأخوذ بالرسل على الأمم بأنهم إذا بُعِث إليهم رسول مصدّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، والناقضون على هذا علماء أهل الكتاب، والمنافقون السائرون في فلكهم.

وقوله: ﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ في محل الخفض بدل من ضمير به. وهذا القطع يشمل قطع الصلة المشروعة أيّا كان، كقطع الصلة بين الله وبين الرسل بإنكار رسالتهم، وبين الرسول والأمة بمنع إيمانها به، وبين العلماء وأفراد المسلمين بمنع إرشادهم لهم وقطع الأرحام وأواصر المحبة بين العوائل، وقطع علاقة النفس بالجمعة والجماعات وغيرها من الأمور الإجتماعية الإسلامية.

والفساد: الخروج عن الإعتدال. والإفساد إخراج الشيء عنه، ويشمل السعي في إنشاء كل عمل غير مشروع كالمنع من الإيمان والاستهزاء بشعاره، وبث النفاق والشقاق والتفرقة بين المسلمين. والخسران: يكون بإضاعة رأس المال كله أو بعضه وبعدم الفائدة. وإهمالُ العقل رأسُ كلِّ خسارة أعاذنا الله منه.

وحاصل تفسير الآيتين: أن الله سبحانه لما أرسل الرسول وانزل الكتاب أراد إتمام نعمته على عباده بإرشادهم إلى سبل السعادة. والناس

على اختلاف الطبيعة في فهم المعتقدات والأحكام، فإذا بين لهم مبهما بمثال مفسر عظيمـاً كـان كالجبـال والجِمـال، أو صـغيراً كالبعوضـة، أو متوسطاً كما بينهمـا.. فقـد أكمـل نعمتـه وأوسـع رحمتـه فلا يـترك هـذا الخير أبدا والناس عند ذلك صـنفان: مـؤمن، وكـافر. فأمـا الـذين آمنـوا بالله وسعة رحمته ومقارنـة أعمالـه لحكمتـه فيعلمـون أن ذكـر المثـال عمل جليل ومتقن من ربهم. وأما الذين كفـروا باللـه وآياتـه فاسـتمرّوا في معارضة بيناته ويَسْتَفْهِمون إستنكاراً: ماذا أراد الله بهــذا مثلاً؟ وهم وإن أنكروا وَأبَوا عن قبول الحكمة - نقول لهم: أراد اللـه بـذلك المثـال وأشباهه أن يُضل كثيرا من الناس الناسين لحقـوق النعمـة، ويهـدي بـه إلى فهم المقصـود كثـيرا من النـاس الشـاكرين لهـا. ومـا يُضِـلّ بـه إلا الفاسقين الخارجين عن الطاعـةِ، الـذين ينقضـون عهـد اللـه معهم في التزام الحقوق بعـد ميثاقـه وتوكيـده بإرسـال الرسـول وإنـزال الكتـاب ويقطعـون مـا أمـر اللـه بوصـله من الإيمـان والإسـلام وملابسـاتهما، وينشرون الفساد في الأرض وأولئك هم الخاسـرون في الحـال والمـآل بإضاعة العقل والكمال كالتجار المضيعين للأرباح ورؤوس الأموال.

ولما ذكر أحوال المؤمنين الراشدين والكـافرين المعانـدين والمنـافقين وضـرب لهم الأمثـال واجـاب عن توهمـاتهم توجـه إلى الكـافرين على الإطلاق، واستخبرهم عن الحال التي يقع عليها كفرهم مستنكراً فقال:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ (28)﴾

كيف: أداة إستفهام، وقـد تسـتعمل للإسـتخبار اسـتعمالَ اَرَأَيتَ بمعـنى أخبِـرني، والفـرق بينـه وبين الإسـتفهام أن الإسـتفهام يقتضـي جهـل المسـتفهم بـالجواب بخلاف الإسـتخبار، فقـد يسـتخبر العـالم بـالجواب للتوبيخ

والتعجيب، فإذا كـان الإسـتخبار معـنى حقيقيـاً يكـون التـوبيخ والتعجيب معنى لازمـاً مجازيـاً، أو معـنى مجازيـاً كمـا هـو المشـهور كـان التـوبيخ والتعجيب من المستتبعات حسب عرف المستعملين.

والحياة والموت: أمران متقابلان تقابل العدم والملكة، فالحياة: حقيقـةً كيفية من الكيفيات النفسانية وصفة تقتضي الحسن والحركـة الإراديـة. والموت: عدم الحياة عما من شأنه ذلك كما في العناصر الموجودة في الوالدين القابلة للاتصاف بها.

وقد تستعمل الحياة مجازاً في القوة النامية؛ لأنها من مقدماتها كما في قولـه تعـالى: ﴿اعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا﴾ وفي مـا يخص الإنسان من الفضائل كالعقل، والعلم، والإيمان.

كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـاهُ﴾ ويسـتعمل المـوت في كل مقام مقابلاً لها كما عرفت. وأما في الباري تعالى فهي صفة قائمـة بذاته مبدأ لاتصافه بالعلم والإرادة والقدرة وغيرها.

فإذا كان الإستخبار والتوبيخ على كفرهم بوجود البـاري تعـالى كمـا هـو الظاهر فمعنى الآية: أخبروني على أيّ حالٍ يصدر منكم الكفر والإنكـار لوجود الله وكنتم أمواتـا وعناصـر ومَـوادَّ لاً حيـاة فيهـا فعلاً على الوجـه المعتاد، وإن كانت فيها قابليتهـا، فأحيـاكم بخلـق الأرواح، ونفخهـا فيهـا، ودخلتم في عـالم الإنسـانية والإنصـاف بالفضـائل وبقـائكم عائشـين متنعمين، ثم يُميتكم بعـدها ثم يُحـييكم الحيـاة البرزخيـة في القبـور كروضـة من ريـاض الجنـان، أو حفـرة من حفـر النـيران. أو الحيـاة الإعتياديـة بـل أقـوى وأولى في يـوم النشـور بنفخ الصـور للحشـر والحساب والميزان بامر الملك الديان. ثم إليه تُرجَعون فيجـازيكم على أعمالكم.

فأخبروني ما هي الحال التي تقع الكفر فيها فإذا لم تجدوا حـالاً مناسـباً لــه فلابــد أن لا تكفــروا، وأن ترجعــوا إلى الإيمــان باللــه ذي العــدل والإحسان.

وتلك الأحوال لما كانت بعضها الأكثر يقينية، والبعض الآخر عليه البرهان فكأنها كلها معلوم عندهم. ويصحّ التوبيخ على كفـرهم مـع علمهم بتلـك الأعمال. وإذا كـان الخطـاب للمسـلمين كـان الإسـتخبار بكيـفَ لتقريـر المنَّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم. ويحمل المـوت والحيـاة على المعنـيين المجازيين؛ إذ لم يكفروا حتى يحتج عليهم بهما. والمعـنى كيـف يتصـور منكم الإنحـراف عن الإيمـان والتلبس بـالكفر مـع أنكم جـاءتكم النعم الجسـام من اللـه إذ كنتم جهـالاً لا علم لكم، وأفـاض اللـه عليكم نعمـة العقــل والعلم والإيمــان والفضــائل، ثم يميتكم للتنعم الــبرزخي في القبور، ثم يحييكم حياة سرمدية للجنان والرضوان.

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أمـوراً أخـرى هامـة ممـا تقتضـيه الحيـاة حتى تكـون حجـة على من كفـر باللـه العلام، أو أشـرك معـه الأصـنام، وتذكيراً بالنعمة لمن آمن به وأخذ يسلك مسـلك الإسـلام. فقـال: ﴿هُـوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ فَسَـوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)﴾

ومعنى خلق لكم: خلق لأجل إنتفاعكم في دنيـاكم ودينكم على أسـاس أنها حِكَمٌ ومصالح وغاية مترتبة على أفعاله تعالى، لا على أنهـا أغـراض للباري تعالى يستكمل بها، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. والمراد بـالأرض: جهة السفل من نفس الأرض ومـا معهـا وفيهـا ومـا عليهـا من المعـادن والأنهار للمزارع، والبساتين والجبال، والصحارى والبحـار، للسـير عليهـا والغوص في أعماقها والإستفادة مما فيها. وجميعـاً حـال من الموصـول الثاني. ولما كان

الخلـق للإنتفـاع خُصَّ من العمـوم مـا لا نفـع فيـه من أي جهـة. وهـذه الجملـة الشـريفة تقتضـي إباحـة جميـع الأشـياء النافعـة بعـد الشـرع بالطريق المشروع؛ فلا يستلزم إباحـة كـل واحـد لكـل واحـد بـل إباحـة الكل للكـل أي المجمـوع للمجمـوع. وهـو ظـاهر وأمـا قبـل الشـرع فلا حكم، لأن الحكم للـه وحكم اللـه يبينـه الرسـول وإذ لا رسـول فلا حكم قطعاً. وأما حكم المعتزلة بإباحتها قبله فمبني على تحكيم العقل، وإذ لا تحكيم عندنا فلا حكم. وأما ما نسب إلى بعض أهل السنة من القول به فإن كان على معنى الترجيح بالعقل فلا مانع منه، وإن كـان على تحكيم العقل وتحسين الفعل أو تقبيحه فليس ذلك من شعارنا.

وثم: للتراخي الزماني واستوى أي قصد وتوجـه. والسـماء إن أُريـد بهـا الأجرام فضمير الجمع المؤنث عائد إليها، وإلا فهو ضـمير مبهم يفسـره سبع سماوات. وفي خلق السماوات والأرض آيات ظـاهر بعضـها تقـدم الأرض على السماوات، وظاهر بعضها العكس وفي ذلك إضطراب.

ودُفِع بأن خلق نفس الأرض كان قبل خلق السـماوات، وأمـا دحوهـا أي بسْـطُها، وخلـق الجبـال والتلال والأنهـار ومـا شـاكلها فكـان بعـد خلـق السماوات كمـا يظهـر من صريح جـواب ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا للسائل عن الموضوع وأمّا قوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو تعليل لمـا سبق من خلق ما ذكره على الكميات والكيفيات والغايات التي معها أي ولكونه تعالى عالماً بكل شيء أزلا وأبدا خلـق مـا خلقـه كـذلك. فعلمـه تعالى بهـا للقضـاء وإرادتـه للتخصـيص وقدرتـه للتطـبيق بتـأثيره. وبعـد صدور ما صدر يتفكـر من تفكـر ويتبصـر من تبصـر إن اللـه تعـالى حي عليم ومريد وقادر وحكيم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى في سرد قصة عجيبة نعمة أخرى ممــا أنعم بها على عباده بقوله الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَـا لَا تَعْلَمُــونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْــمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَــهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (31) قَـالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَـالَ يَـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْـجُدُوا لِآدَمَ فَسَـجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْـتَكْبَرَ وَكَـانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)﴾

وهنا فوائد مهمة ينكشف بها المقام:

الأولى: أن الملائكة والجن نوعان ممتازان موجودان خلقهما الله تعـالى قبل خلق البشر.

أما الملائكة فجمهور العلماء على أنها أجسام لطيفة نورية أو هوائية شأنهم الخير والطاعة. وأما الجن فأجسام لطيفة نارية متمكنة من الطاعة والعصيان. فتميز كل عن الآخر في الخلق، وكل منهما قادر بأمر الله على التشكل بأشكال مختلفة، لكن الملائكة لا تتشكل في غير شكلها الأصلي إلا بشكل نظيف مرغوب. وأما الجن فقد تتشكل بالمرغوب أو بالمكروه، وسرّ الإقدار على ذلك التشكل التمكنُ من الوفاء بما أُسند

إليهما من الأعمال. ولذلك تمثل جبريل عليه السلام عند سيدتنا مريم بشرا سويّاً وكان يتمثل عند الرسول صلى الله عليه وسلم مرات في صورة دِحية وهو شاب من شباب العرب المسلمين.

ولكل منهما أصناف كثيرة حسبما وردت بها الآيات والأخبار والآثار فمن الملائكة: المقربون وهم: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل. ومنها حملة العرش. ومنها أهل الملأ الأعلى. ومنها: الكروبيّون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومنها: المدبرات لأمور الكائنات ومنها: زوار البيت المعمور المقابل لبيت الله الحرام فوق. ومنها: من غشي سدرة المنتهى.

ومنها: الحفظة والكرام الكاتبون وملائكة السؤال في القبور. ومنها: خزنة الجنة ورئيسهم رضوان. ومنها: خَزنة النار ورئيسها مالك. وتفصيل أصنافها وترتيب درجاتها مذكور في الكتب التفسيرية وغيرها، كتفسير الإمام الرازي، وفتاوى الخاتمة للشيخ ابن حجر الهيثمي وغيرهما، وخلقهم بأمر الباري كن فيكون.

ولهم حياة أقوى من حياتنا وعلم أوسع من علومنا، وأولهم خلقا حملة العرش ثم الملائكة الأربع المقربون، وآخرهم موتا أولئك الأربعة. وفي الآخرة منهم من هو في الجنة لكن لا للتنعيم؛ لأنهم خلقوا على الطاعة وما كانوا مكلفين. ومنهم على باب الجنة. ومنهم حملة العرش. ويزدادون على ما في الدنيا، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

وأما الجن: فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله خلق أبا الجن من مارج من نار، ودلّ القرآن والسنة على أن أصل الجن النارُ، ولكنها مخلوطة بمواد أخرى، ولذا تحرقه الشهب السماوية. وورد أنهم

يتناكحون ويتناسلون، وهم مكلفون. وقد أرسل الله رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم إليهم، وذكرهم في كثير من الآيات والسور، كسورة الأحقاف، وسورة الجن، وسورة الناس. وإن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، وإبليس عليه اللعنة هو واحد منهم. وله ذريات لا يحصَوْن كثرة، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ونحن لا نراهم في الدنيا، وهم يروننا. وأما في الآخرة فبالعكس. ويموتون ويُحاسَبُون كالبشر. فمنهم من في الجنة ومنهم من في النار. فالمعاد شامل للفريقين كما ثبت في الكتاب وسنة النبي المختار صلى الله عليه وسلم.

فتبين من هذا التقرير: أن الملائكة والجن نوعان متباينان ويختص كل منهما بجنس وفصل جوهري للتميز والفرق بينهما من وجوه كثيرة عديدة:

الأول: أن الملائكة خلقوا من النور أي مادة مضيئة غير النار، وخلقهم بالأمر التكويني لا بطريق التناسل. والجن خلق أصله من النار قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ويقول ابليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وانتشارهم بطريق التناكح والتناسل. ومعناه أن فيهم الذكور والإناث. واما الملائكة فلا يوصفون بهما. ورد الله تعالى على الزاعمين لذلك بقوله الكريم ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾.

الثاني: أن الملائكة معصومون لا يتأتى منهم العصيان إذ ليس فيهم قوة النفس من: الغضب، والشهوة، وما يترتب عليهما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المبينة لصفاتهم الحميدة.

وأتعجب من قول بعض المفسرين الذين أعجب بهم العالم حيث قال: ولا نرى فصلاً جوهرياً يميز بين الجن والملائكة مع الفرق بينهما بأخص الصفات! فإن أراد أنه لا يعلم كنه ذلك الفصل فله الحق؛ لأن كشف سر الحقائق متعذر أو متعسر. وإن أراد أنه لا علم له بأدلة ترشده إلى تميز جوهري بينهما فأظن بعد هذه الآيات والأخبار الحاكية عن اختلاف اللوازم أن عدم التميز بينهما من عدم التميز!.

الفائدة الثانية: أن ظاهر الآية الشريفة أن الحِوار كان مع جميع الملائكة، والذي يقرب إلى العقل أنه كان مع أهل الملأ الأعلى منهم. فإن من الملائكة جمعاً مختارون بمزيد عناية يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وقال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ وعلى أي حال فظاهر الحوار: أنه كان كلام الباري تعالى معهم إلقاءً ربّانيّاً وسماعهم منه تلقيّاً روحانياً على مثال الأوامر الأخرى الصادرة منه تعالى إلى المأمورين منهم. وهذا المقدار كاف في المقام لأهل الاعتبار.

ثم الخطاب لم يكن على وجه الإستشارة بهم لأن الله تعالى جرى علمه الأزلي بكل شيء يجري في الكون، وإنما كان على وجه الإخبار لهم ليذكروا ما ذكروا حتى يبين لهم بعضا مما أراد إظهاره من شرف سيدنا آدم عليه السلام، وتعليمه الأسماء كلها، ثم عجز الملائكة عن إظهار ما علمه وأمره تعالى بسجودهم له سجودَ تشريف وتكريم على العادة لا سجود تعظيم وتقديس وعبادة. ولِيَتَسلَّى الرّسولُ صلى الله عليه وسلم بحكاية الواقعة عليه وانَّ الملائكة المعصومين لما كانوا مع الله على سؤال واستفسار فكيف لا يكون الكفار المعاندون له على عناد معه واستكبار؟ وليبين للملأ الأعلى أنه كما كان قادراً على خلق العالم وخلق قوم لا يعصون

الله ما أمرهم فهو قادر على خلق قوم شأنهم المعصية والبغي والعنـاد كالشـيطان وذريتـه، وخلـقِ قـومٍ فيهم الأنبيـاء والأصـفياء، والصـالحون الأتقياء والعلماء الأعلام، والمجتهدون الكرام كما أن فيهم قوماً تمـردوا عن الطاعة ورضوا ببخس البضاعة، وسـلكوا مسـالك الإجـرام والآثـام. وإلا فَسِـرد الإبـداعِ والقـدر لا يُكْتَنَـه للملـك ولا للبشـر؛ لأن سـرّ خلـق الكائنات أجسامها وأرواحها، وشقائها وسعادتها المحدودة واللامحـدودة، وأسرار كيفية تصريفه للعالم وأوضاعه وأحواله من جهل إلى علم ومن علم إلى جهل من سيء إلى حسن ومن حسن إلى سيء.. مما اسـتأثر الله بعلمه وهو من الغيب، وبعض الغيب يبقى غيباً، وبعضه مما يكشـفه لأنبيائه ورسله كما قـال: ﴿لَا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَـدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَسُولٍ﴾ أو لبعض المخلصين السالكين في سبيل الحق وعَبَدوا الله كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أو لمَنْ اختاره لتدبير أمـور أجـرى بهـا قَلَماً كما قال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَـةً مِنْ عِنْـدِنَا وَعَلَّمْنَـاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

الثالثة: الظاهر من الأدلة: أن المـراد بالخليفة خليفـة اللـه تعـالى فـإن إطلاق الخليفة بذلك المعنى هو المتبادر كما في قوله تعالى: ﴿يَـا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ وليس المـراد بالخليفـة من يخلـف الجن عليها؛ لأنهم لم يكن لهم مقام كريم ولا جاه عظيم حتى يأتي الله بقـوم يكونون خلفاء عنهم. ثم خلافتهم عنهم لا تحتوي شيئاً مهماً، وإنما المهم في أن يكون البشر الشـريف كـآدم وسـائر الأنبيـاء والرسـل من نسـله مظـاهر تجليـات الرحمـة في التعليم والتربيـة الصـالحة وبث الأعمـال العالية، والأخلاق الراقيـة، وتعمـير الأرض بـالتنوير، وبثِّ روح الإعتصـام وصلة الأرحام، وتقوية أواصـر الوئـام بين الأنـام. حـتى يعيشـوا سـعداء ويموتوا سعداء وتتحقق

الغاية في خلق البشـر من العرفـان والعبـادة. وبـذلك كـانوا خلفـاء في خدمة الحق وإعانة الحقيقة وإلا فسائر الأشياء هباء.

ولما استفادت الملائكـة الكـرام من كشـف معـنى الخلافـة لهم إحتـواء الخلفــاء مظــاهر القــوة، وإيــداع الطاقــات الإيجابيــة والســلبية فيهم استفسروا واستكشفوا ما أبهم عليهم من الحكمة حيث أن قوماً كـذلك يكونــون على إســتعداد التعليم والتعمــير والإدارة والتمصــير، وبطبيعـة الحال يقـع فيهـا الخلاف والعـداء والعنـاد، فيضـطر النـاس إلى الفسـاد والإفساد وسفك الدماء. فرد الله تعالى عليهم بأنـه يعلم مـالا يعلمـون. وينطوي تحته أن فائـدة الوجـود الجـود للأنـام والسـجود للملـك العلام، ومن إفاضة الخير والجـود علم نـافع منشـور ودسـتور كـالقرآن الكـريم مسطور وتهيئة أمة قائمة على ساق لتطبيقه وإبلاغـه بين النـاس، ومن فوائد الوجود بـذل المجهـود في إضـاءة الأرض بمصـابيح الهـدى، ورجم شياطين الإنس الداعين إلى العناد والعداء، حتى تصبح الأرض مخضــرة بالبهجة، واهلها منوراً بالضمير ومراقباً لربه الخبير البصير، فإنَّ شخصـاً واحـداً إذا تحلى بالفضـائل يفـوق مليونـاً من النـاس الناسـين للحقـوق المتوسخين بالرذائل، فإذا ظهر فرد أو أفراد من العباد سالكين مسـلك الرشاد ظهرت فيهم حكمة الخلق والإيجاد وهذه الحكمـة منسـجمة مـع قولــه تعــالى: ﴿وَمَــا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُــدُونِ﴾ والعبــادة للــه والإلتزام بأوامره ونواهيه لا يكون إلّا بالعلم والمعرفة فظهر أن الحكمة في خلق العالم بث العلم والعمل الصالح وإلى الله ترجع الأمور.

الرابعـة: إن سـؤال الملائكـة كـان إستكشـافاً للحكمـة بعـد فهم معـنى الخليفة من الله سبحانه وتعـالى، ولم يكن تكـبراً واسـتعظاماً لأنفسـهم ولا غيبـــة لســـيدنا آدم وأولاده لأن النص أرشـــدنا إلى أن الملائكـــة لا يعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون على أن الغيبة إنما تكون للموجود وعند شخص غير عالم بالأحوال ولم يكن سيدنا آدم إذ ذاك موجوداً فضلاً عن نسله، وكان الله تعالى عالماً بآدم وأصله وفصله. فلا تنظر إلى ما قاله الجاهلون.

الخامسة: إن المراد بالأسماء الألفاظ الدالّة على المعاني سواء كانت أسماءً أو أفعالاً أو حروفاً، وإلا لم يكن آدم عالماً بفعل الأمر ولا بحرف النداء والجر، فما كان يفهم معنى قوله تعالى: ﴿يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وخلْقُ العلم بالأسماء بالنسبة إلى الباري تعالى كان خلقاً ضرورياً آنياً لا يحتاج إلى زمان، وكذلك تعلم سيدنا آدم؛ لأن الفاعل مختار والقابل مستعد لأخذ الأسرار، وهذا فيض مطلق ومدد روحي من الله تعالى. وخلقُ العلم الضروري معلوم لكل إنسان منصف فإنا نرى الأطفال في البيت في السنة الثالثة من عمره أو أقل يتكلم بكلمات لم يسمعها من الأبوين ولا من العابرين هناك، وقد يأتي بمفاهيم يعجز عنها الوالدان وغيرهما، وتعد من أبكار الأفكار. وقد تنظر إلى شخص وترى على وجهه بشرا وعلى شفتيه إبتسامة فتدرك من وضعه الآني حكايات ووقائع، وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى. والحقيقة أن التجلي بخلق العلوم الضرورية كإضاءة الشمس للكائنات، ففي لمحة من اللمحات تنور مسافات واسعة شاسعة، وكذلك تجلي الرحمة على قلوب عباده المؤمنين، لاسيما الأنبياء والمرسلين، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ إبهام كلمة ما يدل على أن الوحي كان لما لا يتحمله غير قلب الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم.

ثم إن الله تعالى، وإن أراد إظهار فضل سيدنا آدم على الملائكة لم يكن هو المقصود إلا لإلزامهم واعترافهم بفضله، وإلا فآدم لم يكن

يعلمها من نفسه، وإنما علمه الباري سبحانه ولو كان يُعَلّم أحداً من الملائكة لتعلمها مثل آدم. وحقيقة العلم، وإن كانت فضيلة، فالفضل في العمل بها فالحق أن الله تعالى أراد وجود آدم ليكون مظهر الفضل والسعادة - ووالداً ماجداً للأنبياء والمرسلين، وصدفاً لدرة وجود الرسول الأمين محمد. المبعوث رحمة للعالمين، وأصلَ سلسلة الأصفياء الكرام والعلماء الأعلام، وقادة الأمة إلى الخير والرشاد على مر الأيام... وهذا ظاهر لمن تفكر بعين البصيرة في فضل الأنام.

واختلاف العلماء في أن الأسماء هل هي عين المسمى أو غيره ليس مرتبطاً بالألفاظ لمغايرتها للذات بداهة، ولا في الوجود الذهني الذي هو أحد الوجودات الأربعة لكل شيء من الخط، واللفظ، والصورة الذهنية، والحقيقة العينية، وإنما كان ذلك؛ لان من الأسماء ما يدل على نفس المسمى فقط كزيد، ومنها ما يدل على الذات وأوصافها الذاتية كالعالم والقادر. ومنها ما يدل على الذات والاوصاف الفعلية كالكاتب والماشي. فمن قال بعينيتها أراد بها القسم الأول مطلقاً، والثاني والثالثَ باعتبار أنّ المقصود هو نفس الذات، والأوصافُ قيود خارجة عنها، ومن قال بغيريتها نظر إلى أن كل اسم، ولو كان اسم الذات، يدل على الذات وعلى مشخصات خارجة من الحقيقة النوعية فيكون مدلولها بهذا الاعتبار غير الذات المحض.

الفائدة السادسة: إن الضمير في قوله تعالى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ راجع إلى الله تعالى والضمير البارز راجع إلى الحقائق التي كانت مدلولات. الأسماء التي علّمها آدم عليه السلام؛ لأن الله تعالى لما علمه الأسماء أفهمه أن هذا الاسم موضوع للمسمى الفلاني، وأن هذا الفعل دال على العمل

الفلاني، وأن هذه الحرف مدلولها ذلك الشيء، ثم عرَض الله تعالى أولئك الأشخاص المدلولة للأسماء على الملائكة في صورة اختبار، وسألهم عن أسمائها، فلما عجزوا عن معرفتها أمر آدم أن ينبئهم بها، فأنبأهم بها. فظهر فضله وعلمه وكماله عليهم. وهنا ظهر أن آدم مراد للميزات المختصة هو ونسله في العالمين بها.

الفائدة السابعة: إن السجود الذي أمر به لآدم كان سجود التشريف والإحترام، وكان لائقاً لكل محترم، ولم يكن سجود تقديس وعبادة؛ لأن الله تعالى لا يأمر أحداً بالعبادة لغيره، بل خَلَقَ الجنَّ والإنس للايمان بذاته وصفاته وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. وإبليس أبى ذلك السجود قياساً للفرع على الأصل فقال: أصلي نار وأصلُ آدمَ تراب وغبار، ولما كان اصلي خيراً من أصله لزم أن يكون شخصي خيراً من شخصه؛ لأن شرف الأصل دليل لشرف النسل. ولم يعلم أن أصل النار ليس خيراً من أصل التراب؛ لأنه إذا كان في النار بعض الفوائد ففي التراب أكثر من ذلك، ثم لم يَدْرِ أن الأصل ولو كان خيراً كان إتباع أمر الخالق أوجب من رعاية ذلك.

وعلى كل حال أبي عن إطاعة الأمر واستكبر وكان من الكافرين. فطرده الله عن ساحة السعادة أعاذنا الله من شر الغرور بفضله ورحمته آمين.

فإن قيل: إذا كان إبليس من الملائكة فكيف عصى ربه مع أن الله أخبر بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا مجال لنسخ الخبر كما هو مقرر، وإن كان من الجن فكيف شمله الأمر بالسجود للملائكة وكيف صح استثناؤه منهم؟ قلنا: لا شبهة في أن إبليس لم يكن من الملائكة، وكان من الجن لأدلة.

الأول: نص قوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾.

الثاني: لو كان من الملائكة ما كـان يعصـي ربـه للآيـات الكثـيرة الدالـة على نزاهة الملائكة من العصيان.

الثالث: أن إبليس خُلِق من النار بنص قوله تعـالى حاكيـاً عنـه ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾.

الرابع: أن الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، لقوله تعالى في مقـام الإستنكار والتوبيخ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾.

والخـامس: أن إبليس لـه ذريـة كثـيرة كمـا نص عليهـا بقولـه تعـالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

السادس: أن الملائكة نورية لا يمكن العصيان منهم إلى غير ذلك.

وإذا كان من الجن لا من الملائكـة فوجْـهُ صـحة الإسـتثناء دخولـه فيهم صورة أو على التغليب. كما تـدخل مـريم في القـانتين وتـدخل الأم في الأبوين وغير ذلك، وما قيل: إن هذا لا يخرج الكلام حقيقة عن الإسـتثناء المنقطع ولا استثناء منقطعاً فيه مردودٌ بأن هذا خلاف الواقع، فإن فيــه استثناءات منقطعة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُـدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَـرَنِي﴾ وقولـه تعـالى: ﴿لَا يَسْـمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)﴾ـ وقوله تعـالى: ﴿لَا تَـأْكُلُوا أَمْـوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِـلِ إِلَّا أَنْ تَكُـونَ تِجَـارَةً عَنْ تَـرَاضٍ﴾. فـإن سلّمت ذلك فبها، وإلا فهناك دليـل قـاطع على أن اللـه أمـره بالسـجود بنصّ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَـا خَلَقْتُ بِيَـدَيَّ﴾؟ فـإن لم يكن عاصياً بخروجه عن أمره تعالى للملائكة فقد عصى بخروجه عن إطاعـة ذلك الأمر، وبعد ثبوت أمره

بالنص لا يهمنا أن يكون الأمر مـأخوذا من أمـره تعـالى للملائكـة أو من أمر آخر، هذا والله ولي التوفيق.

وحاصل تفسير الآيات: واذكـر يـا حبيـبي نعمـةً أخـرى من النِّعم الهامّـة العامة التي تشمل المكلفين بل كل العالمين: إذ قال ربك للملائكة إني جاعــل وخــالق خليفــة لي في الأرض يكــون مظهــراً لتجلِّيــاتي في الإيجابيات والسلبيات، فقالوا: ربنا إن الخليفة بهذه السـيماء قـد يغلبهـا العداء والبغضاء، ويظهر منها الأعمال المخالفة لعظمة صاحب الكبريـاء أفتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح وننزه ذاتـك مـع حمدك على نعمائك ونقدسك ونبرئك عن كـل مـالا يليـق بجنابـك؟ قـال الله في جوابهم: إني أعلم ما لا تعلمون من سرِّ الخلائق وآثار الحقائق. فخلق اللـه آدم كمـا أراد، وعلمـه الاسـماء لمـا دخـل في عـالم الإبـداع والإيجـاد. ثم أظهـر صـور تلـك الحقـائق على الملائكـة فقـال: أنـبئوني وأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في أن فيكم الكفايــة عن آدم ونسله. قالوا معترفين بالعجز: سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم بالأشــياء. وتخص برحمتــك من تشــاء. فقــال: يــا آدم انــبئهم بأسـمائهم، فلمـا أنبـأ آدم بأسـمائهم قـال: ألم أقـل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض من سر القـدر في خلـق البشـر وغـيره من كـل أثـر وأعلم ما تبدون من الإستفسار ومـا تكتمـون من الأسـرار. فلمـا أظهـر الله تعالى فضل الخليفة بين الخليقة أمرهم بالسجود الإحترامي له كما قال وإذ قلنا للملائكـة اسـجدوا لآدم حيث يجب إحـترام الجاهـل للعـالم والعــالم للأعلم فسـجدوا كلهم إطاعــة لأمــر مــولاهم إلا إبليس منبــع التــدليس والتلـبيس أبى عن السـجود، لشـبهٍ واهيـة لا قيمـةَ لهـا في الوجود، واستكبر على آدم وزعم أنه أعلى منه في العـالم وعصـى ربّـه بالإِباء عن الطاعة إنكاراً لائقاً بأهل الجحود، وصـار من جملـة الكـافرين أو

لأنه كان في علم الله الأزلي من الكافرين حيث علم أنه يصرف طاقته وقواه في تطبيق هواه، فعاد من الخاسرين أعاذنا اللـه من كـل كفـران وخسران، وعافانا من كل بلاء يكون الحليم فيه حيران آمين.

ولما انكشف الأمر بلا إلتبـاس وتمـيز المطيـع من العاصـي أمـر البـاري تعالى خليفته بالسكون في جنته تحت ظلال رحمته كما قال:

﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَـا رَغَـدًا حَيْثُ شِـئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَـا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَـا الشَّـيْطَانُ عَنْهَـا فَأَخْرَجَهُمَـا مِمَّا كَانَـا فِيـهِ وَقُلْنَـا اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)﴾

واعلم أن في الآية الشريفة إيجاز الحذف حيث طـوى خلـق أمّنـا حـواء عليها السلام من سيدنا آدم الـذي دلت عليـه آيـات منهـا: قولـه تعـالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَا﴾ وتقـدير الكلام: ثم خلَقْنا منه زوجه، وقلنا: ﴿يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

وورد في خلق آدم عليه السلام ثم خلقها منه ما حاصله أن اللـه تعـالى لمـا أراد خلـق آدم عليـه السـلام أمـر بعضـاً من الملائكـة فـنزلت إلى الأرض وأخذت من أقاليمها مقداراً من التربة وصعدت بها إلى السـماء، ثم إلى الجنة وعجنتها بمـاء من عين التسـنيم وهـو نهـر فيهـا، فصـورها الباري بقدرتـه على هيكـل آدم، ونفخ فيـه الـروح فصـار ذلـك الإنسـان الشريف. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وبعد زمان غلبـه النـوم فنـام وأثنـاء نومـه خلق الله سبحانه

أمّنا حواء من أحد أضلاعه من الجانب الأيسر فلما انتبه رآها عنده فألِف بها، وألهمه الباري أنها زوجتك وقرينتك. وهذه الأمور من الغيبيات التي أخذناها وتحول تفصيلها إلى علم رب العالمين. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

ومما يجب أن يعلم أن الله خلق في العالم الجنة والنار دارين لأهل الثواب والعقاب، وهما وإن لم ينزل نص في تعيين موضعهما إلا أن وصف الجنة بأن عرضها السمواتُ والأرضُ يدل دلالةً واضحة إنها فوق السماوات السبع، وظاهر الحديث الوارد ((سقف الجنة عرش الرحمن)) يدل على أنها بين الكرسي والعرش وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وبما أنه لم يذكر بنص صريح محلهما المعين ذهب كثير من العلماء إلى التوقف في محل الجنة والنار، وإلا فالظاهر مما ذكرنا أن محل الجنة هناك ومحل النار في محل آخر حسب علم الباري وقدرته، مع العلم أن هناك آيةً تدل على أن أهل الجنة وأهل النار يترائيان ويتناديان وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. وكذلك ينادي أصحاب الجنة: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا إلى آخر الآيات. وعلى كلٍّ فالجنة دار الثواب، والجحيم دار العقاب. ومذهب جمهور المسلمين أنهما مخلوقتان وموجودتان في العالم، ويدل على ذلك ما رواه البخاري: أنه صلى الله عليه وسلم وقال: ((أُريت الجنة في عرض الحائط الفلاني)) إلى آخر ما هو مذكور هناك. والمقصود أن الجنة في عرف الشرع إذا أُطلقت فالمراد بها الجنة المعهودة التي هي دار الثواب. فالمراد من لفظ الجنة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الجنةُ المعهودة

العلوية التي تعتبر المقرَّ الأخير لأهل الطاعة، وهي دار الثـواب الأبـدي، اكُلُها دائم وظلها، تلك عقبى الذين اتقوا وعقـبى الكـافرين النـار. وهـذا مما أجمع عليه قبل ظهور أهل البدع والأهواء الـذين لا وزن لكلامهم إلّا كوزن الهباء، فمـا يُنْقَـلُ ويُلاكُ بَينَ اللّحـيين انّ المـراد بالجنـة جنـة في الأرض في جبال هند، أو بين بلاد فارس وكرمان، مما لا يليـق أن يتكلم به الإنسان الذي له حظ من الإيمان. فاحذروا من أغاليـط النـاس، أهـل الأوهام والوسواس، فإن القـرآن الكـريم دسـتور عبـاد اللـه المؤمـنين، وكل مؤمن معترف بأن عجائب صنع الله وآثار قدرتـه ممـا لا يحيـط بـه فكر المتفكـرين، وأن اللـه تعـالى كمـا خلـق السـماوات السـبع وزيّنهـا بالمصابيح، وخلق الشمس على حجم يساوي حجم الأرض بمليون مرة. وخَلَـق كـوكب الشِّـعرى وأن حجمـه يسـاوي حجمَ الشـمس مليونـاً من المرات، وأنهما يظهران في العالم الواسـع كشـيء صـغير بسـيط فهـو قادر على أن يخلق الجنة وعرضها السماوات والأرض، وأن يخلق جهنم ومسافتها على ما قدره الرب الأكرم، وأن إصعاد البشر إلى السماوات وإنزاله منها إلى الأرض لا يماثل إلا حركة طير خفيـف الجثـة يطـير في الفضاء وإذا آمنا بالله الحي القيوم فكلما أبلغنا شيئا أخذ مقام البـديهي المسلّم المعلوم.

وقوله تعالى: رغداً بمعنى واسعاً رافهاً. وهو صـفة لمصـدر محـذوف أي أكلاً واسـعاً مترفهـاً بـه. والشـجرة هي شـجرة الحنطـة. وقولـه: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي من المتعـدين على حقكم في التمتـع كيـف تشـاؤون، وليس الظلم هنـاك بمعـنى التعـدي على الحـق المشـروع إذ لم يكن إذ ذاك شرع كمـا يـأتي قريبـاً. وقولـه ﴿فَأَزَلَّهُمَـا الشَّـيْطَانُ﴾ أي فأزلفهمـا وأبعـدهما الشـيطان بالقـاء الوسوسـة في قلـوب آدم وحـواء حـتى أكلا منها. والجار في عنهـا للتعليـل أي إذلالاً مسـبباً عن الشـجرة وقربانهـا. وقوله:

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يعني أخرجهما الشيطان عن السكون في الجنة والستر والإستراحة التي كانا فيه، وضمير الجمع في ﴿اهْبِطُوا﴾ إما لآدم وحواء ونسلهما الذي سيوجد منهما تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود، أولهما فقط على سبيل الإحترام، فإن الكرام يعاتبون بلطيف الكلام لا بالخشونة والتحقير كاللئام. وقوله ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ بتنكير الكلمات إشارة إلى أن زمان الإستقرار والتمتع في الأرض قليل لا يذكر بالنسبة إلى زمان الآخرة وسكنى الجنة التي أعدت للمتقين.

وليعلم أنه كما لا يعلم أحد إلا الله تعالى مبدأ خلق السماوات والأرض كذلك لا يعلم مبدأ خلق البشر فيها، وأن تحديد مبدأ إستقرار سيدنا آدم فيه وحسابه إلى عصرنا هذا بعشرة آلاف سنة لا إعتبار بها مطلقاً، والإنسان المتفكر إذا تأمل في سرد الآيات الحاكية عن الكفرة المتمردين، وأهل البغي والطغيان الهالكين فهي مما تدهش العقول والألباب، وكلام القصاصين الحكاة بملء الأفواه ليس إلا لغواً من الخطاب، وعلمُ ذلك عند اللهِ فلا تحديد له في علمنا لا بمليون ولا بملايين، وإنما علمه عند رب العالمين.

وحاصل تفسير المقام: أنه يقول الباري تعالى بعد إباء إبليس من السجود وظهور عدائه لآدم في الوجود خَلَقنا لآدمَ قرينته، وقلنا: يا آدَمُ اسكُنْ انت وزوجك الجنة الواسعة العالية، وكُلا مِنَ الثمرات الطيبة وتَمَتَّعا حيث شئتما، ولكن لا تقربا شجرة الحنطة فضلاً عن أن تأكلا منها؛ فإنه ممنوع منكما، وإذا أكلتما منها تكونان من المتعدين، على أحوالكما. فاغتَنَمَ الشيطانُ العدو اللدود الفرصةَ فوسوس إليهما من خارج الجنة؛ لأنه كان من المنظَرين، وأغراهما على الأكل منها، فصار الأكل منها سبباً لإخراجهما من الأحوال التي كانا فيها

ومن الإستقرار في الجنة. وقلنا لهما: اهبطوا منهـا إلى الأرض حـالكون النسل المولود منكما متعاركين على المشتهيات ومتنازعين بعضكم مـع بعض في الملـذات، ولكم في الأرض بهـذه الحالـة إسـتقرارٍ وتمتـع بمـا تتمكنـون منهـا إلى حين، وقـارن أمـره تعـالى هـذا قـوة هادئـة تنزيليـة فنزلتهما إلى حيث شاء الله من الأرض، وتم أمر رب العالمين.

ولما هبط سيدنا آدم إلى الأرض إستوحش لفـراق الجنـة ومـا فيهـا من الطيبات، ولكنه لما كان الإحباط لشـد الإرتبـاط بينـه وبين اللـه لنفسـه ولنسله سارع الباري سبحانه برحمته فألهمـه كلمـات لائقـة للـدعاء في حضرته كما قال تعالى:

﴿فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَـا جَمِيعًـا فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدًى فَمَنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَـا أُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)﴾

التلقي: هُنا مستعار من التَّلَقي بمعـنى إسـتقبال النـاس من يعـز عليهم إذا قدم بعد غيبة، وهو يكون بـأنواع الإكـرام، وإكـرام الكلمـات الـواردة من الحضرة الإلهية العمل بها، وتلك الكلمات المباركة على ما قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومجاهـد في قولـه ﴿رَبَّنَـا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِـرْ لَنَـا وَتَرْحَمْنَـا لَنَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِـرِينَ﴾ وعن مجاهد أيضاً (سُبْحانَكَ اللَّهم لا إله إلا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لي إنـك أنْت الغفـور الـرحيم) وقـالت طائفـة: إنـه كشـف اللـه تعـالى عن العرش فـرأى مكتوبـاً على سـاق العـرش محمـد رسـول اللـه فتشـفع بذلك.

وقالت طائفة: المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء. وقيل: الندم والإستغفار والحزن.

ومما يستحسن بمناسبة المقام أن نذكر لطيفة عصمة الأنبياء والرسل الكرام عن الذنوب. فاعلم أوّلاً أن العصمة عند الجمهور أن لا يخلق الله فيهم ذنبا مع وجود الدواعي النفسية عندهم، فإنهم بشر والبشر كما ينام ويقوم ويأكل ويشرب ويأتي ويذهب كذلك توجد عنده شهوة اللذائذ وما تريده النفس الإنسانية ولكن لا يخلق في قلوبهم، ولا في قوالبهم منها كل ما لا يرضى به الله تعالى. ومعنى ذلك أنه توجد عندهم ملكةٌ تملك حواسهم ومشاعرهم وأركانهم من فعل ذنب وارتكاب جريمة على ما يأتي إن شاء الله وليس معناها أنه يمتنع عنهم صدورها، وإلا كانت من مقتضيات الحلقة كالملائكة، فما كانوا مثابين على الترك، ولا ممدوحين على الفعل. وفيها آراء وخلاصة القول المختار: أنهم معصومون عن الكفر بأنواعه وعن تعمد ارتكاب الكبائر قبل النبوة وبعدها، وعن تعمد الكذب لاسيما في الأحكام التبليغية، وعن الصغائر الدالة على خسة مرتكبها، وعن تعمد الصغائر غيرِها بعد النبوة عند كثيرين. والدليل عليها من وجوه.

الأول: أنه لو صدر عنهم الذنب لحرم إتباعهم فيما صدر عنهم ضرورة أنه يحرم إرتكاب الذنب مع أن إتباعهم واجب بالإجماع ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

الثاني: أنهم لو أذنبوا لردّت شهادتهم، ومن لا تقبل شهادته في الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين؟

الثالث: أنه لو صدر عنهم الذنب لوجب زجرهم لأن النهي عن المنكر واجب، وزجرهم إيذاء لهم، وايذاؤهم حرام.

الرابع: أنه لو صدر عنهم الذنب لكانوا أسوأ حـالاً من عصـاة النـاس؛ إذ يضاعف لهم العذاب بسبب علوِّ مقامهم.

الخامس: أنه لو صدر عنهم لم ينالوا عهد النبوة والرسالة. قـال تعـالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

السادس: أنه لو صدر عنهم لكانوا غير مخلصين؛ لأنه بإغواء الشـيطان، والشيطان لا يغوي المخلصين.

السابع: أنـه لـو صـدر عنهم لكـانوا من الـذين صَـدَّق عَلَيهم إبليسُ ظنَّه واتبعوه، وحاشاهم وهو أعْدى أعدائهم أن يتبعوه.

الثامن: أن المذنبين من حزب الشيطان فكيف يصدر الـذنب منهم وهم قادة حزب الله في طريق الحق والدين؟

التاسع: أن اللـه تعـالى مـدحهم بفضـائل ومنـاقب مهمـة لا تليـق بأهـل الـذنوب فقـال في جمـع منهم: ﴿إِنَّهُمْ كَـانُوا يُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ﴾. وقال ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْـدَنَا لَمِنَ الْمُصْـطَفَيْنَ الْأَخْيَـارِ﴾. وسـلم على كثـير منهم فــرداً فــرداً، وعلى الجمــع في قولــه: ﴿سُــبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِــزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182)﴾. فما نسب إلى حضـراتهم ممـا يـوهم خلاف العصـمة على مـا ذكرنـا إن كـان من أخبـار الآحـاد فمـردود، وإن كـان من غيرهـا فمـؤل بصدورها بطريق الخطأ الإجتهادي، أو السهو، أو النسيان، أو أنهـا كـانت خلاف الأولى وجرى عليها عتاب. كمـا بين الأحبـاب. أو أنهـا كـانت قبـل النبوة بناء على أن العصمة قبل النبوة غير الازمة كما ينسب إلى سيدنا آدم عليه السلام؛ لأن الراجح أنـه لم يكن نبيـاً قبـل الهبـوط إلى الأرض والأمـر والنهي المتوجهـان إليـه كانـا على العـادة كمـا تكلم البـاري مـع الملائكة في تطبيق الأمور وإنزال الأوامر...

على أنه إذا لم يكن شرع ودستورٌ فلا مخالفة فلا ذنب فكيـف يعـد ذنبـاً قضـاءُ سـيدنا موسـى على الرجـل القبطي الصـائل على مسـكين من المساكين؟ وإن كان دفع الصائل واجباً لكنه بحسب الشـرع ولم يكن إذ ذاك شرع كما هو معلوم!

والتوبة في اللغة: الرجوع، وفي الشرع: النـدم على مـا فعلـه من حيث أنه ذنب، والعزم على أن لا يعود إليه، وإذا كان هنـاك حقـوق ردَّهـا إلى أصحابها المستحقين. هذا والله اعلم.

وظاهر معاني الآيات: أن آدم عليـه السـلام إسـتقبل الكلمـات الملهمـة فدعا بها تضرعاً وابتهالاً إلى مولاه العظيم فتاب عليه، ورجع إليه بالعفو والسماح عن المخالفة، فإنه هو التوّاب بكثرة، والرحيم على وفــرة، ثم أفاده الباري أن العفو عن المخالفة لا للرجوع في الدنيا إلى الجنة فإنه يخالف سر القدر المحتوم، فأكد الأمر بهبوط له ولنسله جميعاً، وأخـبره انكم مـا دمتم على الأرض إذا جـاءكم مـني هـدى وإرشـاد الـدين على لسان أحد المرسلين سواء كنتَ أنتَ الرسول أو غيرك منهم، فمن تبـع إرشادي وديني علماً وعملاً فلا خوف عليهم من المـآل، ولا هم يحزنـون على الواقع في الحـال. إذ لا عـذاب ولا عقـاب. والـذّين كفـروا وكـذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لأن مَن جاءه الهدي وتبين له الرشد من الغي ومع ذلك تهالك على إختيار المهالـك فقـد ظلم نفسـه، وخالف قدسه، ومن أنذر أعذر، وكذلك سنة الله في العالمين.

ولما ذكر الباري سبحانه وتعـالى عبـاده بأنـه جعـل آدم ونسـله الصـالح خليفته في الأرض لغاية نيـل السـعادة بعبـوديتهم الخاصـة المبنيـة على العلم والعمل الصالح والأخلاق الحسنة من الإيمان والصـدق والإنصـاف وما شاكلها من الأوصاف، وكان الإسـرائيليون الموجـودون في المدينـة المنورة

على جانب من العلم وتمكن من الامور بحيث كان صلاحهم سبباً لصلاح كثير من الناس، وفسادهم سـبباً الفسـاد كثـير منهم.. نـاداهم وذكّـرهم بالنعم الجِسام التي أفاضها على أسلافهم كي يتعظوا ويتنبهوا ويتوجهوا إلى طريـق الإنصـاف. ويؤمنـوا بالرسـول الكـريم المعـروف بفضـائل الأقوال والأخلاق.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُـوا بِمَـا أَنْـزَلْتُ مُصَـدِّقًا لِمَـا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًـا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَـاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)﴾

وقبل أن نذكر تفسير الآيات الكريمة نرى من المناسـب أن نـذكر أدوار الإسرائيليين لكثرة ذكرهم في القرآن الكريم لأسباب داعيـة إليـه، حتى يكون القارئ عند كل مبحث على علم من الدور الذي وقع فيه الحـادث الواقع المذكور. ورأيت نقل ما نقلـه العـالم المصـري المشـهور السـيد محمد فريد وجدي في كتابه: (دائـرة معـارف القـرن الرابـع عشـر) في المجلد الأول منه فقال ما نصه:

(إسرائيل هو يعقوب عليه السلام ابن إسحق، ابن إبراهيم أبو الأسـباط الإثني عشر الذين منهم يوسف عليه السلام). وكـان عائشـاً في القـرن التاسع عشر قبل المسيح عليه السلام - وقيل: إسرائيل معناه عبداللـه وصفوته من خلقه، و(إيل) هو الله و(إسرى) هو العبد.

وبنو إسرائيل هم اليهود قوم موسى عليه السلام وقـد لعبـوا في تـأريخ العـالم دوراً عظيمـاً يجب علينـا تتبـع أسـبابه ونتائجـه على مـا تعطيـه المقررات العلمية الصحيحة.

إذا اعتبرنا في تأريخ اليهود ما لديهم من الكتب القديمـة والآثـار الباقيـة حكمنا بأنه لا توجد أمة من أمم الأرض تملك على تاريخها مثل ما يملكه بنوا إسرائيل من الأسانيد والأعلام. ولكن إذا تصفحنا تلـك الكتب وجـدنا فيهـا التـأريخ مبعـثراً في المعجـزات وخـوارق العـادات، ولـذلك صـار إستخلاص تأريخهم من مجموع هذه الأمور من أصعب المباحث.

ينقسم تاريخ الإسرائيليين إلى خمسة أدوار:

الأول من عهد إبراهيم عليه السلام إلى خروجهم من مصر.

الثاني من خروجهم من مصر إلى تأسيسهم الملكيّة.

الثالث من تأسيسهم الملكية الى اسر (بابل).

الرابع من أسر (بابل) إلى خراب بيت المقدس بيد الملك (أدريان).

الخامس من عهد تفرقهم في الأرض إلى اليوم.

ونحن ناقلون ملخص هذا التاريخ من دائرة معارف القرن التاسع عشر.

الدور الأول: كـان من سـنة ألـف وتسـعمائة وسـت وتسـعين إلى الـف وستمائة وخمس وأربعين قبل الميلاد.

ففي سنة ألف وتسعمائة وتسع وستين قبل الميلاد غـادر إبـراهيم عليـه السلام - كما يقول اليهود - مدينة (خالد) في (جزيرة بن عمـرو) ونـزل بكنعان بوحي من الله نـاقلاً معـه عبيـده ومواشـيه، فولِـد لـه (إسـحق) ولإسحق

يعقوب الملقب بإسرائيل فَرَزق الله يعقوب هذا أثني عشر ولداً، تَوَصَّل أَحَدُهم وهو يوسف عليه السلام إلى مكانة عالية في خاصة فرعون مصر فاضطرت المجاعةُ أباه يعقوب وأولاده إلى الرحيل إلى مصر فنزل في الوجه البحري منها، وكان عددهم إذ ذاك سبعين، فَنَمَوْها نموّاً عظيماً، فاضطهدهم الفراعنة وسخروهم في أشق الأعمال، ثم قتلوا الذكور منهم واستحيوا الأناث حتى ظهر موسى عليه السلام، فأخرجهم من مصر، وكان عدد من يستطيع حمل السلاح منهم، وهم خارجون، ستمائة ألف نَسَمة.

الدور الثاني: من سنة ألف وستمائة وخمس واربعين، إلى ألف وثمانين قبل الميلاد. اتجه الإسرائيليون تحت قيادة موسى عليه السلام إلى أرض كنعان التي سموها بالأرض الموعود بها. فاجتازوا في طريقهم الخليجَ العربيّ من البحر الأحمر ثم تاهوا في الصحراء أربعين عاماً فَلقُوا في التّيه كلَّ ما يصادف الأمم البدوية من شدة الحال وخشونة العيش، فتلقى موسى عليه السلام شريعة الألواح في سفح جبل طور سيناء.

فلما مات موسى سنة ألف وستمائة وخمس قبل الميلاد تولّى قيادة الإسرائيليين يوشع فاجتاز نهر (الاردن) وأباد الأعداء الذين أرادوا صرفه عن طريقه. ثم إحتل بقومه الأرض الموعود بها وهي أرض كنعان. فقسم يوشع تلك الأرض بين الاثني عشر سِبْطاً، فكانت قبيلة (ليفي) التي خصت برياسة الدين لا أرض لها، فأعطيت ثمان وأربعين مدينة مبعثرة في أرض الأثنتي عشرة قبيلة. وكانت على الشاطئ الأيمن والأيسر من نهر الأردن ست مدائن جعلت ملجأ للملتجئين من بني إسرائيل وغيرهم من الأجانب المتهمين بالقتل خطأً.

فخلفت يوشع حكومة القضاة فدامت أربعة قرون فكانوا يقيمون العدل بين الرعية ويقودون الجيش فدوّخ القضاة مالم يستطع تدويخهم يوشعُ وَشنّوا غاراتٍ شعواءَ على الشّعوب المجاورة لهم مثل (الأَمُونيتيّين) وغيرها.

الدور الثالث: من سنة ألف وثمانين الى خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد في هذا الدور أظهر بنوا إسرائيل تعبهم من حكم القضاة، فطلبوا إلى النبي صموائيل (إشماويل) أن يقيم لها ملكاً، فعارضهم في ذلك قائلاً ما ملخصه:

الملك يعلق ابناءكم في مَركباته، وجعل منهم من يَجُرونَ أمَامَها، ويأخذ بناتكم فيجعل منهم طباخات وخبازات، ويسلب حقولكم وكرومكم يعطيها لخدمة المحتفّين به.

فلم يسمع الإسرائيليون لقوله فاضطر (صموائيل) لأن يقيم (شاول) (طالوت) ملكاً عليهم، فلما لم يسر على تعاليم (صموائيل) عزله وأقام بدله (داود) عليه السلام، فَمَدَّ في ملك الإسرائيليين، ومات بعد أن حكم أربعين سنة، وكان إذ ذاك عدد اليهود (1500000) مليوناً ونصفاً، فَتولى بعده سليمان عليه السلام فبنى مدينة (أورشليم)، واشتهر في العالم كله شهرة فائقة.

ولما مات إنقسم ملكه إلى قسمين: قسم بقي تحت حكم إبنه (رَحَبعام) وهذا القسم كان يتألف من قبيلتي: يَهُودا، وبنيامين.

والقسم الآخر المكوّن من عشر قبائل إختار (جَبْرَ حَبعام) ابن ناباد فسمي القسمان بمملكتي: يهودا، وإسرائيل، فكان هذا الإنقسام شراً عليهم، إذ وقعت المملكتان في حرب دَمَوية مستمرة، وزادوا بأن

صار بعضهم يسـتنجد بالأجـانب لقتـال بعض. وفي السـنة الخامسـة من حكمِ رحبعام بن سليمان عليه السلام، شنَّ ملك مصر (سيزاك) الغـارة على أورشليم، فنهب معبدها. ولما تولّى ابنه (آبياس) غزا (جبر حبعـام) واخرب له عدة مدائن، فلما وصل الملك إلى (جيهو) كانت الحروب بين مملكة إسرائيل ويهوذا والآشوريين، بالغة أقصى درجات الشدّة وزادتهـا شدة الحروب الأهلية، فلما تولّى الآشوريين (سالمانازار) إسـتولى على مدينـة السـامرة. وقـاد أهـل مملكـة إسـرائيل إلى بلاده أسـرى وبـذلك إنتهت مملكـة إسـرائيل وبقيت مملكـة يهـودا هـدفاً لسـهام المطـامع الآشورية. فلما تولّى ملكها (مناسيس) قهره ملك آشور، وقـاده أسـيراً إلى بلاده، فلما وصل الملك إلى (يواقيم) حاربه بختنصـر وقـاده أسـيراً إلى بلاده، فلما عاد إلى بلاده ثار على بختنصر، فكان ذلـك سـبباً لعـودة هذه الطاغيـة عليـه ودخولـه إلى أورشـليم وتخريبهـا، وقـاد أكـثر أهلهـا أسـرى وكـان ذلـك سـنة خمسـمائة وسـبع وثمـانين قبـل الميلاد. فلمـا اسـتولى الملـك قـيروش (كـورش) الفارسـي على بابـل تخلّص الإسرائيليون من أسر البابليين، وعـادوا إلى فلسـطين سـنة خمسـمائة وست وثلاثين قبل الميلاد.

الدور الرابع من سنة خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد إلى سنة مائة وخمس وثلاثين بعـد الميلاد. إسـتقبل الإسـرائيليون غـارة قـيروش على بابـل بالتَّرْحـاب فعـادوا إلى فلسـطين تحت قيـادة (روزا بابـل) وسـمّوا الجهة الـتي عـادوا إليهـا (يهـوذا) وسـموا أنفسـهم اليهـود لتمـيزهم عن سواهم من الإسرائيليين، ووعدهم (دارا) بإعـادة بنـاء أورشـليم، فبناهـا لهم، وأحاطها بسور. فقسـموا بلادهم أربعـة أقـاليم وصـارت حكـومتهم أشـبه بجمهوريـة (تيوكراطيـة) يرأسـها حاخـام كبـير من دونِـهِ مجلسٌ مُكَوّنٌ من إثنين وسبعين شخصاً. فعاش أهل فلسطين في خفض تحت هذه الحكومة

وسيادة الفارسيين حتى أغار عليهم الأسكندر المقدوني مضوا لهم شرا بسبب انحيازهم إلى الفرس وعدم تمكينه من أخذ الميرة من (صور).

فلما اقترب من أورشليم خـرج إليـه الحاخـام الكبـير في مـوكب رهيب واستقبله إستقبالاً كريما وأدخله إلى المدينة بسلام، وأطلعه على نبوءة (دانيال) القائلة بأن الأسكندر سيغلب الفارسيين فسُرَّ الأسكندر سروراً عظيماً، وعامل اليهود بالحُسنى، وأعفاهم من الضرائب سبع سنين.

فلما مـات الأسـكندر وقعت فلسـطين في قسـم (لاوريـون) أحـد قـواد الأسكندر، فلما استلبها منه (بطليموس لاغوس) أخذ قسـما من اليهـود وأسـكنهم في مصـر سـنة ثلاثمائـة وعشـرين قبـل الميلاد، وفي سـنة ثلاثمائـة اسـتولى على مملكـة يهـودا ملـك سـوريا المـدعو (سـيلوكس تيكـارنو) ثم ردت إلى ملـك مصـر بعـد ذلـك بقليـل، وفي سـنة مـائتين وثلاث قبـــل الميلاد وقعت يهـــودا ثانيـــة تحت حكم ملـــوك (ســـورية) (السلوسيديين) فأثقلوا كاهل اليهود بالضرائب، واضـطهدوهم من أجـل دينهم أكبر إضطهاد: فلما تولى سـوريا (أنـتيخوس أبيفـان) أمـر بنصـب تمثال (جوبيتر) إله اليونانيين في وسـط معبـدهم، ومنعهم عن الختـان، وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهوراً منهم لتمسكهم بالدين.

ولكن القس اليهـــودي (ماثانيـــاس) رفض أن يقـــرب الخنـــازير قربانـــاً للأصنام، وقتل رسول ملك سوريا إليه فاضطر للهرب هو وأولاده وتبعه جماعة من أهل الجرأة إلى الجبال، فلما كثر عـدد الملتجـئين إليـه قـام ابنه المدعو (يهوذا ماكابيه) وشهر القتال على (أنتيخوس) فهزمـه سـنة مائـة وخمس وسـتين قبـل الميلاد، ودخـل أورشـليم منصـوراً، فهـدم الأصنام. وشهر عبادة الله المنزه عن الأنداد.

وبعـد سـنة مائـة واحـدى وسـتين قبـل الميلاد قـام أخـواه جونـاثوس وسيمون، وتمما انقـاذ وطنهم من أيـدي ملـوك سـورية، ولكن لم يـأت حكم (هيركان) و(أريستوبول) إبنا سيمون حـتى فقـدت البلاد إسـتقلالها ثانية.

والسـبب في ذلـك أن الأخـوين إشـتجرا على الملـك فجـاء (بومبيـه) الروماني ليحكم بينهما، فحكم لنفسه، واستولى على بلادهما سنة ثلاث وستين قبل الميلاد، وجعل مملكة يهودا إقليماً رومانياً. فلما كـانت سـنة اثنـتين وأربعين قبـل الميلاد. رَدَّ (أَنْـتيفُون) ابنُ أرَسْـتُوبُولُ للبلاد حرّيتهـا واسـتقلالها ولكن لم تـأت سـنة سـبع وثلاثين قبـل الميلاد حـتى سـاعد الرومانيين الملك هيرود على تدويخ مملكة يهودا، فاستولى عليها، وقتل (انتيفون) و(هيركان) وهو آخر ولد من ذرية (ماكابية) تحت حكم (هيرود انتياس) الـذي حَكَمَ على عيسـى عليـه السـلام بالإعـدام، فلمـا عَسِـفَ الرومانيون باليهود، وسامُوهُم سُوءَ العـذاب ثـاروا فاضـطرّ الرومـانيون لأخذ أورشليم سنة سبعين بعـد الميلاد، وأمـر ملكهم (نيتـوس) بـإحراق معبـدهم، وذبح معظم أهلهـا وبيـع من بقي منهم. فلم يمض غـير قليـل حـتى عمـرت أورشـليم بالسـكان ثانيـة، ولكن ثـورة أخـرى جعلت الأمبراطور الروماني (ادريان) سـنة مائـة وخمس وثلاثين ميلاديـة يـأمر بهـدم المدينـة من أساسـها وذبح نصـف مليـون منهم وبيـع البـاقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة، ولكن هذا التشريد الهائـل لم يـزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم.

الدور الخامس: من سـنة مائـة وخمس وثلاثين ميلاديـة إلى يومنـا هـذا. لما تمزق شمل اليهود كل ممزق، وانشقت عصى وحـدتهم الإجتماعيـة هاجرت طائفة منهم إلى آسيا، ونزلت بشواطئ نهر الفرات، وقصدت

أخـرى بلاد الأفغـان وهبطت بعضـهم الهنـد والصـين. وبقي بعضـهم في أوروبا موضع الإهانة والسخرية والعذاب، حتى بعد سنة مائـة وخمسـين حيث تولّى الملك (كونستان) الروماني حين أبهض عواتقهم بالتكـاليف، ولكن عهـده كـان أخـف من عهـدي الإمـبراطورين (جونسـتيان) و(هـبراقليوس) إذ أمـر باضـطهاد اليهـود بأشـدّ أنـواع الإضـطهادات وسَوْمِهِم سوء العذاب.

قالت دائرة معارف القرن العشرين التي ننقل عنها هـذا التـاريخ: ولكن لما فتح المسلمون بلاد الرومان حَسُنَ حـال اليهـود فاشـتغلوا بالتجـارة فارغي البالِ في بغداد والقاهرة وقرطبـة بـاختلاطهم بـالعرب ودرسـوا العلـوم والصـنائع بنجـاح. ومن أول القـرن التاسـع صـارت لهم مراكـز يهودية في القاهرة، وفارس، ومراكش، وفي ذلك العهد قلَّ عددهم في بابـل، وكـثر في فلسـطين وحُظُـوا بـالتقرب من خانـات المغـول المسلمين.

قالت الدائرة: لا توجـد بلـد في الأرض الآن تضـطهد اليهـود إلّا أواسـط (آسيا) فـإن هنالـك نحـو أربعـة آلاف نسـمة منهم محكـوم عليهم بلبس ألبسة خاصة، وعدم وضع العمائم، ولا الركوب على الخيول.

أمـا ببلاد العـرب فقـد لقي اليهـود من الصّـليبيين عهـداً جديـداً من الإضطهاد والآلام؛ فقد اعتبروا أنهم لشؤم طالعهم سببُ كـل المصـائب النّازلة والحروب الهائلة، ولكل فتنةٍ تصيبُ رجالَ المسـيح. فـإذا إرتكب أحدهم أقلَّ هفوة انتقم من سائر اليهـود أشَـدَّ انتقـام، وكـانوا يبتكـرون الأسـباب للانتقـام من اليهـود، ومصـادرة أمـوالهم. وناهيـك عمـا كـانوا يتقوّلون عليهم من تسميم ينابيع المياه، وقتل الأولاد الصغار، وتخريقهم الخبز المقدس بالسكاكين. فكانوا يعتبرون طـرد اليهـود ونهب أمـوالهم وقتلهم.. من أعمال البر والتقوى، فإذا أذنت الحكومة لبعضهم

بالتعامل بالنقد وهي الوظيفة التي يفوقون سواهم فيها، فما ذلك إلا الوجدان السبيل لمصادرة أموالهم وابتزاز خيراتهم. ولم يكن لدى هؤلاء الغربيين من التسامح ما يسمح لليهود بالتمتع براحة الحياة في حوزتهم.

قال المسيو (دانتيه) كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر: كانت اليهود معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة في كل مكان محبوسين في أقسام منعزلة من المدينة، ومحكوماً عليهم بوضع علامات مُهينة على ملابسهم؛ لتميزهم من غيرهم. وكانوا لأقل هفوة يحكم عليهم بالغرامات الباهظة أو بالطرد. ففي سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين ميلادية حكم عليهم في (انجلتره) بدفع خمسة الاف مارك من الفضة، وفي سنة ألف وثلاثمائة وتسعين صدر أمر الملك (ادوار) الأول بطردهم من المملكة ما في المانيا فكان اليهود ملكاً للإمبراطورة أو الأمراء، فحدث أنهم بيعوا أكثر من مرة، وطردهم من فينا (ماتياس كورفان) ولم يدخلوها إلا في عهد (فرديناند الأول).

ثم عادت دائرة المعارف فقالت: أما في (أسبانيا) حيث عاش اليهود تحت حكم المسلمين زماناً طويلاً في هدوء كامل فانه بمجرد انْ امتلك بلادَ الأندلس (فرديناند) الكاثوليكي طارَدَهم كما تُطَاردُ الضّواري! وجاءت محكمة التفتيش فَأمرت بطردهم، فطردوا فذهب بعضهم لهولاندا، والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا.

أما في فرنسا فكانوا أسعَدَ حالاً مما كانوا في غيرها في القرن الثامن والتاسع وبخاصة المدائن الكبيرة مثل (باريس وليون ومرسيليا) إذ كان لهم حق امتلاك الأراضي، وكانوا محكومين (بمجستر جودوروم) أي بقاض منهم، ولكن ما تولت أسرة (كارلوفنجيين) الملك في فرنسا

حتى تناولهم الطرد والتغريم. وفي سنة ألف ومائتين وخمس وعشـرين طردوا من جنـوب فرنسـا كلـه. وفي سـنة ألـف وخمسـمائة وخمسـين سمحت لهم فرنسا بسكني (بورد) و(بابون).

أما في (بولونيا وليتوانيا) فكان حظُّهم مُرضياً في القرن الحـادي عشـر بفضل (استر) مَحظيّة الملك (كـامير) فإنهـا كـانت من ملّتهم فتحصـلوا هناك على امتيازات جمة، فآلت إليهم ملكية قرى ومـدائن، وكونـوا بين الخاصّة والعامة طبقة إحتَكَرت التجارةَ والصناعةَ لنفسها. وكـان حظهم في (بولونيـا) ومـا يجدونـه من الإضـطهاد في سـواها يضـطرهم إلى الهجرة إليها أفواجاً أفواجاً.

فلما تـولى الملـك (جـان البـيرو) ووجـد أن الهجـرة مسـتمرة إلى بلاده منهم، وإن هذه الطائفة إحتكرت التجارة والصناعة والثروة.. وضع حـداً لهذه الهجرة، وقلل من إمتيازاتهم. فلما جاء خلفاؤه عملـوا على سـنته حتى إستحال أمر اليهود إلى مثـل حـالهم في سـائر ممالـك أوروبـا من المَهانة والصغار والإضطهاد.

ولما تولى الروسيا بطرس الأكـبر فتح لليهـود بـابَ الروسـيا، ولكن لمـا تولت الملكة (اليزابت) أمرت بطردهم، وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين ألفاً. فلما تـولت الملكـة (كـاترين الثانيـة) سَـمَحَت لهم بـالعودة، وجـاء القيصـر المسـمى بالأسـكندر الأول فأعطـاهم امتيـازاتٍ، فلمـا تـولى (نيقولا) أمر بطردهم، وهم الآن من بلاد الروسـيا في (كولانـد) والقـرَمْ (وبلاد القوقـاز وجيورجيـا) وحـدث في شـأنهم شـيء من التسـامح من سنة ألف وثمانمائة وخمس وثلاثين ميلاديـة. ولكنهم مـع ذلـك يعتـبرون خـارج القـانون، ويعـاملون باسـتبداد كـأنهم في قـرن سـابق على عهـد التأريخ.

فقد حدث أن مدير بوليس مدينة (فرزوفيا) سنة ألـف وثمانمائـة واربـع وستين أصدر أمره بمنـع اليهـود من لبس بعض الألبسـة الوطنيـة، ومن حمل القبعات السوداء، ومن إلقاء ضفائر شعورهم على صدورهم.

كان اليهود لا يقبلون في الجندية في أوروبا، فلمّا تولى الرّوسـيا قيصـر يوسف الثاني سـنة ألـف وسـبعمائة وثمـان وثمـانين م إسـتخدمهم في حربه مع تركيا، وقدر عدد اليهود الذين كانوا في جيـوش (أوروبـا) بنحـو ستمائة ألف يخص جيش النمسا وحده منهم نحـو ثلاثمائـة ألـف جنـدي. نقول: لا شبهة في أن هذا العدد قد تضاعف إبّانَ الحـرب العامـة: فـإن هذا الاحصاء عُمِلَ قبلَ سنينَ كثيرة.

وقد أُضطهد اليهود في ألمانيا طوال القرون الوسـطى، ولا تـزال بعض الصنائع ممنوعة إلى اليوم هنالك عن اليهود. أما أسبانيا والبرتغـال فقـد أوصدت أبوابها في وجوههم، حتى إلى هـذه السـنين الأخـيرة. ولم تفتح لهم السويد أبوابها إلا منذ سـنة ألـف وثمانمائـة وأربـع وخمسـين. وقـد سمحت لهم إنجلترة بدخول البرلمان منذ نحو خمسين سنة. أما فرنسا فقد إعترفت لهم بالمساواة منذ سنة ألف وسـبعمائة وإحـدى وتسـعين م. وقد وصل فيها اليهود إلى درجات نوّاب عن الأمة ووزراء ايضـا. أمـا في (روما) فإن اليهود كانوا قبل دخول هذه المدينـة في حـوزة سـلطة الملك سنة ألف وثمانمائة وسبعين مضطرين بحكم القوة لسكنى قسم قذر من المدينـة يقـال لـه: (الجيتـو). وكـانوا يقفلـون ابوابـه عليهم في الليل، ويشدون الأبواب بسلاسلَ من الحديد. وحدث أن السلطة الدينية اختطفت ولداً يهودياً في العهد الأخير وربّته على الديانة المسيحية رغماً عن أهله وعلى مَرأىً ومَسـمعٍ من العـالَمِ المتمـدن الـذي اَظهـر لـذلك غايةَ الدهش.

وكان على اليهودي إن أراد الإنتقال إلى بعض الجهات الرومانية ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ رخصة بذلك من السلطة الكهنوتية، وكان مُحَرَّماً عليهم: هنالك أن يتخذوا كنائس أو أدْيرة، وأَن يتحدثوا مع المسيحيين، أو يُصاحبوهم، ومن خالف كان يحبس مدة لاحد لها. ويغرم خمس ريالات. صدر هذا الأمر سنة ألف وسبعمائة وخمس وستين، أي منذ ثلاث وسبعين سنة فقط.

إنتهى الآن هذا العهد، ولم يبق من أمم أوروبا على شيء من الكراهة لليهود إلا رومانيا وألمانيا؛ فإن لديهما نحو مليون يهودي، مُكوّنين حقيقة للطبقة النشيطة المتنوّرة من اهلها، ولكنّها رغماً عن ذلك مُهانةً، ومُضطَهَدَة. ومُنِحوا سنةَ ألف وثمانمائة وثمان وخمسين المساواةَ المدنيةَ، ولكنهم حُرمُوا المساواةَ السياسية، ولكن في سنة ألف وثمانمائة وست وستين ثار الشعب على اليهود حتى اضطرّت فرنسا وإنجلتره إلى التدخل لتسكين الثائرة من طريق السياسة.

هذا ما نقلناه ملخصاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية، وهو تأريخ، كما يراه القارئ، مُحزِنٌ يُمثلُ القسوةَ الإنسانية والأحقاد الدينية في أفظع صورها. ومما يجب أن نلفت إليه نظر القارئ أن المسلمين بين جميع الأمم أعطَوا اليهودَ الحقوق الإنسانية والحرية الإجتماعية في العهد الذي كانت أرقى دول أوروبا تعامل اليهود معاملة الأفاعي السامّة، أو الوحوش الضارية. فهل لا يصح هذا المثال الباهر وهو مثال من ألف غيره دليلا على أن المسلمين بطبيعة دينهم وبتعاليم كتابهم أمة منزهة عن الأحقاد الدينية والتعصبات المذهبية؟ أليس بمثال مدهش أن نجد في تاريخ الأديان أمة شديدة البطش قوية السلطان متماسكة القوى

مغرمة بعقيدتها تعامل الأمم التي تحالفها في الدين معاملة قصرت عنها ورثة الكتب السماوية القديمة وحفظة المدنية الإنسانية العتيقة؟

أمة بدوية لم يكن لها عهد بنظام ولا تسامح تقوم فتعلم غطارفة الشرائع والحقوق كيف يجب التسامح للأجنبي عن الدين والتواد مع المُعاشر في الوطن مهما خالفها في العقيدة والنظر. هذا مثال من أبهر الأمثلة على سمو التعاليم الإسلامية وبعدها عن السفاسف والصغريات.

أليس من المدهش أن يرى الناس أوائل المسلمين على هذا الصدر الرحب، والذرع الواسع، والكرم الجم، في معاملة الأجانب عن الدين فينعق في القرن العشرين ناعق بأن الإسلام دين التعصّب الذميم، وأنّ المسلمين يَحفظونَ بين جوانحهم أَشدَّ درجات الحقد على سواهم من أهل النِّحل الأخرى؟ هل تَبَدَّلَ الدينُ وكتابُهُ محفوظ الى اليوم؟ امِ المدنية والعلمُ يسممان الفِطرة ويحولان الأخلاق الى الفساد فأصبح المسلمون بعد العبّ مِن مَواردهما إلى الشر امَيَلَ منهم الى الخير؟

يبلغ عدد اليهود في العالم كله نحو عشرة ملايين نسمة أكثرهم في بولونيا، والنمسا، وتركيا، ومراكش.

ولنرجع إلى تفسير الآيات الكريمة أما أجزاؤها فهي أنّ المرادَ بالنعمة ما ذكره الله تعالى في آيات كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وقوله تعالى

﴿وَظَلَّلْنَـا عَلَيْكُمُ الْغَمَـامَ وَأَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّـلْوَى﴾ وقولـه تعـالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ وَاَهَم النعم إنزال الألواح على سيدنا موسى المحتويـة على العقائد والأحكام.

والمراد بالعهدين ما في قوله تعـالى ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَـاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُـوهُمْ وَأَقْرَضْـتُمُ اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ﴾ فعهـد اللـه تعـالى معهم على لسـان موسـى عليـه السـلام من اوّل القَسَـم إلى صـدر الجواب، وعهدهم معه ما في الجواب. ويدخل في قوله تعـالى ﴿وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أنه إذا جاءهم رسولٌ مُصِدقٌ لما معهم يؤمنون بـه وينصـرونه. وقوله: (فَإِيَّايَ) ضمير منصوب منفصل مفعول لفعل مقـدر يفسـره مـا بعده على ما نذكره بعده. وقوله: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فعـل أمـر وفاعلـه ومفعوله، أعني ضمير المتكلم. والرهبة خوف مع تحرز.

وفي البيضاوي: وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد؛ لما فيه مع التقديم من تكرير للمفعول والفـاء الجزائيـة الدالـة على تضـمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبون.

قال الشـهاب: قولـه: وهـو آكـدُ في إفـادة التخصـيص هـذا من مسـائل الكتاب، وهو مما اختلفوا فيه واضطربت أقوالهم وها أنا ذاكـر لـه زبـدة ما قالوه: قـال سـيبويه: الأمـر والنهي يختـار فيهمـا النصـب في الاسـم الذي يُبنى عليه، كما اختير في بـاب الإسـتفهام. ثم قـال: وذلـك قولـك زيداً إضربه، وزيداً أمرر به. ومثل ذلك أمـا زيـداً فاقتلـه. فإنـك إذا قلت زيد فأضربه لم يستقم أن تحمله على الإبتداء، ألا ترى أنك لو قلت:

زيد فمنطلق لم يستقم؟ فإن شئت نصـبت علي شـيء. هـذا تفسـيره. وإن شئت على تقدير عليك زيداً.

ثم نقل الشهاب من السيرافي شارح الكتاب ما نصه: إذا قدمت الأسـمَ وأخـرتَ الفعـل كنتَ في إدخـال الفـاءِ بالخيـار؛ إن شـئت ادْخلتهـا وهي بمنزلتها في جواب اَمّا، وإن شـئت اخرجتهـا وذلـك قولـك زيـداً إضِـرب وزيـداً فاضـرب. فـإذا قلت: زيـداً أضـرب فتقـديره: اضـرب زيـداً. وإذا أدخلت الفاء فلأن حكم الأمر أن يكون الفعل فيه مقـدَّماً، فلّمـا قـدّمتَ الإسم أضمرتَ فعلاً وجَعَلَتَ الفاءَ جواباً لـه، واعمَلَتَ مـا بعـدَ الفـاء في الإسم عوضاً من الفعل المحذوف. وتقـديره: تَـأهَّبْ فاضـرب زيـداً ومـا اشبه. فلّما حذفته قدمتَ زيداً ليكون عوضاً عن المحذوف واعملتَ فيه ما بعد الفاء كما أعملت ما بَعدَ الفـاءِ في جـواب أمّـا فيمـا قبلهـا. فـإذا قلت زيداً فاضـربه فهـو على تقـديرين: أحـدهما إضـرب زيـداً فاضـربه، والثاني عليك زيداً فاضربه انتهى.

ثم قال الشهاب: وههنـا مبـاحث: الأول أن ﴿إِيَّايَ فَـارْهَبُونِ﴾ ليس على شريطة التفسـير الامتنـاع توسـط الفـاء بين الفعـل والمفعـول، ومـا لا يعمل لا يفسر عامِلاً. ودفعه أن أصـله ﴿فَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ﴾ زُحلِقَت الفـاء لشغل حيّز الشرط.

الثاني: أنه لا حاجة إلى جعلها جزائية مع ظهور العطف الذي إختاره في المفتاح، ولا يقدح فيه إجتماعهـا مـع واو العطـف ونحوهـا لأنهـا لعطـف المحذوف على ما قبله، وهذه الفـاء لعطـف المـذكور على المحـذوف. إنتهى أي فيجوز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها[2].

---

[2] ومجمل ما قالوا: أن الفاء زائدة وانه اذا ذكر الضمير فهو من باب الاشتغال، أو أنها عاطفة على فعل طلبي مقدر متضمن لمعنى الشرط، كما في اسلم تدخل الجنة.

بقي أنه إذا كان تركيب قوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ هكذا. فما وجه وجوب الرفع في الإسم السابق في قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ وامثاله؟ والجواب من وجهين:

الأول: أن الفاء مرتبطة بشرط مقدر تقديره: إن زنت المرأة وزنى الرجل فالحكم أن يقال لكم فاجلدوهما، مائة جلدة. وما بعد فاء الجزاء لا يعمل في ما قبله.

والثاني أن الآية في حكم جملتين مستقلتين ولا يعمل عامل في جملة مستقلة في اسم في جملة مستقلة أخرى.

وأما قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فالاسم واقع في حيز الشرط ومنصوب بفعل شرط مقدر تقديره: متى لقيت يتيما فلا تقهره. ومتى وجدت سائلاً فلا تنهره. فليس الإسم فيهما معمولاً لما بعدهما. وأما نحو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فالجواب أن الفاء دخلت في الكلام على توهم شرط او تقديره فيه، وهو قريب من قول النجاة: (زيدا فأضرب) قالوا تقديره: تنبّه فاضرب زيداً، فالفاء في جواب الأمر المضمّن معنى الشرط أو في جواب شرط محذوف، أي فليس معمولاً لما بعدها. ويجوز القول بأن نصب اليتيم والسائل بما بعدهما لأن موقع الفاء قبلهما لكنها أخرت لئلا يجتمع كلمة أما الشرطية مع فاء الجزاء. افاده المحقق السيالكوتي في حاشيته على الحواشي الغفورية.

وقوله ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ نوقش أن بني إسرائيل لم يكونوا أول كافر بالقرآن فما وجه هذا النهي؟ وأجيب بأن المراد به وكونوا أول المؤمنين به لأنكم علمتم من كتابكم انّ هذا الرسول هو الرسول الموعود

بـه. أو المـراد: لا تكونـوا أول كـافر بـه بَينَ اهـلِ الكتـاب. وقولـه ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا الإيمان والعلم الموجود عنـدكم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالكفر به والمعاندة معه لأجل ثمن بخس من الهدايا والرَّشايا وسائر الدنا يا من حظوظ الدنيا.

وفي الآيات إستعارة بالكناية والإشتراء قرينـة، وقولـه ﴿وَإِيَّايَ فَـاتَّقُونِ﴾ مثل نظيره تركيباً (والتقوى) الإحتراز من كل أمر غير مشروع.

والباء في قوله تعالى بالباطل إمـا للصـلة أي لا تخلطـوا الحـق المـنزل بالباطل الذي تخترعونه حتى لا يُميّـز بينهمـا أو للإسـتعانة أي لا تجعلـوا الحق ملتبساً ومختفياً على الناس بسبب خلـط الباطـل الـذي تذكرونـه في تأويلـه. والحـق محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم أو القـرآن أو دين الإسلام والباطل معلوم تقابلا. وأنتم تعلمـون أي بـالحق الأبلج مـع انكم تكتمونـه، او بكتمـانكم لـذلك الحـق، أو أنتم من أهـل العلم ولا يناسـبه نكـران الحـق وكتمانـه. والمـراد بالصـلاة الصـلاة المشـروعة في دين الإسلام. والمراد بالزكوة ذلك الركن النـافع للأنـام. وبـالركوع الخضـوع للحق مع الخاضعين المسلمين، او الركوع في الصلوة مـع سـائر آدابهـا أي لا تصلّوا كاليهود بلا ركوع. أو المراد صَلّوا بالجماعة لا منفردين.

وحاصل تفسير الآيات: يا بني إسرائيل اذكـروا نعمـتي الـتي أنْعمتَ بهـا عليكم خلفاً عن سـلف بـالعلم والمـال والجـاه والشـرف؛ جعلنـا أبـاكم إسرائيل رسولاً من رسول من رسـول. ونجينـاكم من فرعـون وأعوانـه وظلمه وعدوانه، فأغرقناهم وعبّرنـاكم من النيـل، وشـرفناكم بمصـابيح النــور بــالتوراة والزبــور. وظلّلنــا عليكم الغمــام وأنزلنــا عليكم المَن والسلوى، وفجرنـا لكم من الصّـخرة الصـماء إثنـتي عشـرة عينـاً بعـدد الأَسباط، قد علم كـل أنـاس مشـربهم للإمتيـاز بلا إختلاط، وأخرجنـاكم من

مصاعب التَّيْهِ، ومكّناكم من الأرض المقدسة والمسجد الأقصى وفيها نِعَمٌ لاتُعد ولا تحصى، وعاهدناكم على لسانِ رسولي وكليمي موسى المسعود بالإيمان بحبيبي محمد صاحب المقام المحمود، فها قد أتاكم وَبَلَغتم مُناكم، فأوفوا بعهدي وأشرف العهود، أوُفِ بعهدكم مِن النّيل بالسعادة إلى أقصى الحدود، وإياي فارهبون، وكونوا أوّل المؤمنين به ولا تكونوا من الكافرين، ولا تستبدلوا بآياتي البينات ثمناً قليلاً من دنايا الدنيا فتكونوا من الخاسرين. وإياي فاتقون، ولا تخلطوا الحق المنزل في التوراة من أوصاف حبيبي محمد الجليل بالباطل من الكلام المزيف وفاسد التأويل، ولا تكتموا الحق باللف والدوران والتهويل، وأقيموا الصّلاة مع المسلمين، وآتوا الزكاة للمستحقين، وأطيعوا الله مع المطيعين.

وفي تفسير القرطبي: وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فَعل فِعلهم؛ فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله أو امتنع من تعليم ما وجب عليه، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حق حتى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية والله أعلم.

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعِلم لهذه الآية وما كان في معناها: فمنع ذلك الزهريّ وأصحاب الرأي، وقالوا: لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والاخلاص، فلا تؤخذ عليه أجرة كالصلاة والصيام. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ثم روى في الموضوع أحاديث شريفة عن جمع من الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين.

وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك، والشافعي، وأحمد وابو ثور، وأكثر العلماء لقوله عليه السلام: في حديث ابن عبـاس حـديث الرُقيـةَ ((إن أحق ما أخذتم عليه أجـرا كتـاب اللـه)) أخرجـه البخـاري. وهـو ان يرفع الخلاف فينبغي أن يعوّل عليه.

وأما ما احتج به المخالف من القياسِ على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه في مقابلة النص، ثم إن بينهما فرقاناً. وهو أن الصوم والصلوة عبـادات مختصـة بالفاعـل، وتعليم القـرآن عبـادة متعدّيـة لغـير المعلّمِ فتجـوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن. وأبو حنيفة يكـره تعليم القرآن بأجرة.

وأما الجواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل، وشرع مَن قبلنا هل هـو شرع لنا؟ فيه خلاف. ولنا جواب ثان وهـو أن تكـون الآيـة في من تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً، فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلـك. وقـد يتعين عليـه وليس عنـده مـا ينفقـه على نفسـه ولا على عيالـه فلا يجب عليـه التعليم. ولـه أن يقبـل علي صنعته وحرفته. وأما الأحاديث فليس شـيء منهـا يقـوم على سـاق، ولا يصح منها شيء عند أهل العلم بالنقل.

واختلف العلماء في حكم المصلّي بأجرة: فروى أشـهب عن مالـك أنـه سُئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم للناس فقال أرجو أن لا يكون به بأس، وهو أشد كراهة له في الفرض.

وقال الشافعي وأصحابه، وأبو ثور: لا بأس بذلك، ولا بالصلاة خلفه

وقال الأوزاعي: لا صلاة له. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه، على ما تقدم.

قلت: وجوّز الشافعية أخذ الأجـرة على قـراءة القـرآن الكـريم، وإهـداء مثل ثوابها إلى من يقرأ له بشرط النية له أول القـراءة وإهـداء الثـواب له أخيراً. وإن شئت فراجـع تحفـة الشـيخ ابن حجـر الهيثمي في كتـاب الإجارة، والله أعلم.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)﴾

عن ابن عباس رضي اللـه عنهمـا أنهـا نـزلت في اَحبـار المدينـة؛ كـانوا يأمرون سِرّاً من نَصَحُوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يَتبعونــه بأنفسهم.

والإستفهام في أتامرون للتقريـر مـع تـوبيخ وتعجيب، يعـني انّ شـأنكم ذلك، ولكنه شين وفيـه تعجّب؛ لأن العاقـل إذا اَمَـرَ بـبرٍّ فـالأولى لـه أن يعمل به بنفسه اَوَّلاً. والـبرّ: التوسّـع في الخـير ويتنـاول كـل خـير. الـبر بـالنفس بعبـادة اللـه تعـالى وحـده، والـبر مـع الأقـارب بصـلتهم، والـبر بالأجانب بقدر الإمكان. ومعنى نسيان النفس جعلها منسية غـير مَرعيّـة فكأنها لا توجد.

وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جملة حالية جيء بها للتقريع لا للتقييد؛ لأن أمر النـاس بـالبر ونسـيان النفس قـبيح مطلقـاً في حـال تلاوة الكتـاب وغيرها. ولكنه في تلك الحال أفظع، لأنه شأن التالين أن يكونوا عالين

عـــالمين عـــاملين. والمـــراد بالكتـــاب التـــوراة وفيهـــا وعيـــد الوعـــاظ اللّامتّعظين.

والعقـــل: صـــفة غريزيـــة للإنســـان يتبعهـــا العلم بالبـــديهيات بلا دليـــل وبالنظريات به. والآية الكريمة تعلن سوءَ صنيع من يعظ غيره ولا يتعـظ بنفسه؛ لأنه يخسر نفسه حيث أهمل حظه وَيخسر الناسَ بتوجيه التّهمة إليه. وفي الواقع إن عدم تأثير النصائح يعـود إلى سـوء القـدوة أي إلى إهمال القادة أنفسهم في تطبيق ما يأمرون بـه وتـرك مـا ينهـون عنـه، ولذلك عُدَّ من مفسدات العوائل إهمال عُمدائها لـواجب التطـبيق؛ فـإن الوالدين الصّادقين قَـلَّ مـا يكـذب أولادهمـا. والقـادة الأوفيـاء بـالوعود والعهود يتربى على أيديهم جيل جليل من الناس الأفاضـل أولي الطبـاع المرضية والأخلاق الزكية.

وليس في الآية الكريمة منع الفساق من الوعظ والإرشاد؛ لأن الإرشـاد واجب وعمل الإنسان بما يرشد إليه واجب آخر، وترك أحـد الواجـبين لا يقتضي ترك الآخر. وقوله واسـتعينوا مربـوط بسـابقه، ومعنـاه أنكم أذا شُـقّ عليكم تطـبيق الواجبـات فاسـتعينوا على ذلـك التطـبيق بالصـبر وحبس النفس على التعب في ما تطيقونه فإن الصبر تدريب والتـدريب تهذيب للنفس بحيث تتحول إلى أن تعُدّ ما رأته مِحنَـة كمِنحـة، والصـلاة معراج النفس إلى القدس وتنوير للقلب وتقويـة للقـالب، وبـذلك يقـدر انسان على السلوك في المسالك وصيانة نفسه عن المهالك، والضمير في قولـه (وإنهـا) راجـع إلى الإسـتعانة المـأخوذة يعـني أن الإسـتعانة بالصبر والصلاة كما مرّ كبيرة شـاقة إلا على المسـلمين الـذين يظنـون أي يتوقعـون أو يـتيقنون أنهم سـوف يلقـون ربهم للحسـاب والمـيزان، وأنهم إليه تعالى

راجعون للأمر بدخول النار أو جنة الأبرار. جعلنا الله تعالى من المرشدين المسترشدين وثبتنا على الاستقامة في الدين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: كرر لهم النداء للتأكيد ولزيادة نعمة التفضيل الذي هو اَجَلّ النِعم لدلالته على اختصاصهم بمزيد قرب من الله بسبب الإيمان والأعمال الصالحة.

وقوله تعالى ﴿فَضَّلْتُكُمْ﴾ المراد بالمفضلين الموجودون في عصر موسى وقبله وبعده ممن لم ينحرفوا. وقوله ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: المراد أهل زمانهم الا مطلقاً حتى لا يتعارض مع قوله تعالى إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين فإنه لو أُريد الإطلاق لزم أن تكون أهل تلك الطبقات فاضلين ومفضولين. وقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: أي ما يجري فيه من الحساب والعذاب وقوله تجزي صفة لليوم والعائد محذوف، أي فيه. ثم إن كان تجزي معتل اللّام كان بمعنى يقضي ومتعديا بنفسه،

فيكون شيئا مفعولاً به. أي لا تقضي شيئاً من حقوقها. أو مفعولاً مطلقاً قائماً مقام المصدر. أي لا تقضي قضاءَ أي شيء كان من الجزاء.

وإن كان مهموزاً كان من باب الإفعال، وبمعنى يُغني. وشيئا مفعولاً مطلقاً. أي لا تغني عن نفس شيئاً من الإغناء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي من النفس الأولى التي ذهبت لتعمل. نافعا للثانية، أو من النفس الثانية التي حاولت بالتشبث لاستفادة شيء. ونفع النفس عن النفس إما بالقوّة وهي النصر، أو بالمروة، فإن كانت بصرف المال فهو العدل أي معادل ما على النفس من الحقوق. وإن كان بالتضرع والإبتهال فهو الشفاعة. يعني بذلك في كل ما يتصور منه نفع لها. ثم المراد بالنفس هي الكافرة لقوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وقوله حكاية عنها: ما لنا من شافعين لا يراد به النفوس المؤمنة لأن الله تعالى أخبر بنفع الشفاعة لهم بإذنه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. وقوله تعالى ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾. وثبت في أخبار كثيرة ثبوت الشفاعة ومعها يوم القيامة.

وقوله ﴿آَلِ فِرْعَوْنَ﴾ اصل آل أهل بدليل تصغيره على أُهَيل.

ويختص بالإضافة إلى أولى الأخطار من أهل الدنيا والدين.

وفرعون لقب به ملوك الأقباط كقيصر للروم وكسرى للفرس. ولما اشتهر بالظلم والعتو أشتق منه تفرعن، يقال: تفرعن الرجل إذا طغى وتكبر على الناس، والفراعنة قيل: إنهم من بقايا قوم عاد ومن نسل عمليق بن سام بن نوح عليه السلام. وفرعون زمان موسى عليه السلام مصعب او

وليد بن مصعب، وفرعون عصر يوسف عليه السلام ريان، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة والله أعلم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يعذّبونكم أشدّ العذاب والجملة حال من مفعول نجّيناكم، ومن آل فرعون إذ فيها ضمير كل منهما ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بيان لما قبله. والسبب أن الكهنة قالوا لفرعون: سيولد من بني إسرائيل من يذهب بملككم فأمر بذبح أبنائهم واستحياء بناتهم قطعاً للنسل الذكور، ولم ينفعه لأنه لا مرد لقضائه تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ محنة لدنياكم ومنحة لآخرتكم فوق العادة في الناس. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ فَصَلنا بعضه عَن بعض حتى يمكن العبور بين القسمين للأسباط الأثني عشر فأنجيناكم من فرعونَ وجيشه والغرقِ في النيل وأغرقنا فيه آل فرعون ونفسه أمامَهم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى غرقهم بإطباق البحر عليهم. بين الباري تعالى ذلك في آياتٍ أخرى فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾. وقال: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ﴾

وقال ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾، وقوله: رَهواً أي ساكناً ثابتاً على حال إنفلاقه حتى يدخل فيه فرعون وأتباعه.

وهذه الآيات تبين الحادثة وحاصلها: أنـه لمـا ظهـر أمـر موسـى وخـاف فرعـون من مسـتقبل الأمـر عـزم على أن يسـطو على بـني إسـرائيل بجنوده فيبيدهُم من بَكرةِ أبيهم، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن أسـرِ بعبـادي لَيلاً واعبُـر من النيـل حـتى تخلَصـوا من شـر فرعـون وجنـوده، فأمرَهُم موسـى بالإسـتعداد للخـروج فخرجُـوا بالليـل حـتى وَصـلوا إلى حافة نيل، فعلم فرعونُ بخروجهم فتبعهم بجنوده لإبادتهم، فلما اقتربوا من النيـل وتـراءى الجمعـان تخـوّف الإسـرائيليون وقـالوا لموسـى: إنـا لمدركون ونهلك، فهدّأ عليه السـلام قلـوبَهم، وقـال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ طريق الخلاص. فأوحى اللـه إلى موسـى أن اضـرب بِعصـاك البَحر فَضَربه بها فصارَ فِرقين كل فرق كجبل عال عظيم، وصار بينهمـا طريقٌ إعتياديّ للعبور فسلكه موسـى ومن معـه وخلصـوا. ولمـا وصـل فرعون وأتباعه النيلَ وكان باقياً على حالـه دخلـوا النيـل كـذلك ليصـلوا بني إسرائيل ويستأصلوهم. لكنـه إنطبـق عليهم النيـل وهلكـوا بـالموت الوبيل، ولله الأمـر من قبـل ومن بعـد وعنـد ذلـك إستبشـر المؤمنـون. وهذه الحادثة كانت معجزة عالمية إندهشـت منهـا قلـوبُ العـالمين في العـالمين. وشـبهة الجـزر والمـد تجـري على السـنة الجـاهلين لأنهمـا إنخفاض وإرتفاع وقتي مع بقاء الماء الكثير في البحـر كمـا كـان. فـأين ذلك مما حدث هنالك؟

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: واذكروا نعمـة مواعـدتنا الموسـى بتفرغه لعبادتي ومناجاتي مدة أربعين ليلـة أولاً ذا القعـدة وثانيـا عشـراً اول مِن ذي الحجة. فالمواعدة على بابـه قـرر اللـه عليـه بقـاءه المـدةَ المذكورة وتقبّل موسى ذلك، فهي من طرف البـاري تعـالى فِعـلٌ وهـو فَرضُ البقاء عليـه، ومن طَـرفَ سـيدنا موسـى إلـتزامٌ. وقَـولٌ بـالقبول على غِرار قول الطبيب: عالجت المريض أي: أعطيته الدواء، والتزم

الإستعمال. وأربعين مفعول بـه على تقـدير المضـاف أي: تفـرّغ أربعين ليلة في الطور، وجعل الباري سبحانه وتعالى ذلك التفرغ شرطاً لإنزال الكتاب عليه، وتلك المواعَدة كانت بعـد خروجـه مـع بـني إسـرائيل من مصر وعبوره من النيل. وقول البيضاوي: لما عادوا إلى مصر بعـد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التـوراة.. غـير منقـول نقلاً صـحيحاً. ويعارضـه أنّـه بقي من الأقبـاط في مصـر عـدد هائـل من أعـداء بـني إسرائيل فما كانوا متمكنين من العودة إليه والبقاء فيـه ولم يـذكر أحـد من المؤرخين أنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها كما أفاده الشهاب[3].
وذلك أنه لما جاوز ببني إسرائيل البحر مرّوا على قوم يعبـدون الأصـنام فقال بنوا إسرائيل لموسى: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة! قال: إنكم قوم تجهلون. وقولهم ذلك كـان عن بعض من الشـباب المنطبعين بأحوال الأقباط وغفلتهم عن الباري تعالى، وكذلك شأن كل جيـل جديـد من الأمة فإنهم لا يعرفـون إلا البيئـة الـتي عاشـوا فيهـا، وليس عنـدهم تمكّن من معرفــة الــدين لاســيما إذا نشــأوا في إضــطهاد واضــطرّوا لمداراة القوة الموجودة. وعند ذلـك سـأل أهـل المعرفـة منهم موسـى عليه السلام: أن يأتيهم بكتـاب من اللـه يحتـوي على العقائـد والأحكـام حتى يتربى الجيل عليه، فطلب موسى ذلك من اللـه تعـالى فقـال لـه: إصعد إلى الطور مع اناس مختارين من قومك وتفرغ هناك ثلاثين يومـا للصيام والعبادة. فالتزمه، واختـار من قومـه سـبعين رجلاً، ولمـا وصـل المقام زاد الله تعالى عشرة ليال اخر فصارت المدة أربعين ليلة.

[3] وقال ابن جرير: أن الله أورثهم ارضهم ولم يردهم اليها، وانما جعل مسكنهم الشام.

وعند ذهابه إلى الطور استخلف أخاهُ هارون على قومه، ولما كان الميقات أوّلاً ثلاثين يوماً وزاد الله تعالى عليه عشرة أيام، ولم يعرف القوم بها إستطالوا بقاء موسى في الطور حتى توهموا وفاته، فاستغل موسى السامري الإسرائيليّ الصائغُ هذه الفرصةَ، وكان منافقاً في الدين فَخَدَع الإسرائيليين والإسرائيليات، وأخذ منهم مقداراً من حلي الأقباط الموجودة عندهم عارية، فاذابَها وسَبكها في قالب على هيئة العجل فحصل عجل صناعي عجيب، وقال الإسرائيليين من النشء الجديد: هذا إلهكم وإله موسى! فقبلوا منه الأمر وعكفوا عليه وعبدوه. حتى يقال: إنه لم يبق من الإسرائيليين على الدين الصحيح إلا هارون وإثنا عشر ألفاً منهم، وصاروا من المشركين كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد موسى.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (51) أي على أنفسكم بهذا الإشراك.

وكان لذلك العجل خوار وحركات. فمن العلماء من يقول: إنه كان عجلاً له حياة حقيقية لأن السامري ذرَّ عليه عند الصياغة مقداراً من التراب الذي أخذه من موطئ حوافر فرس جبريل، فخلق الله فيه الحياة ولا إستحالة في ذلك ويكون بالنسبة إلى السامري فتنة واستدراجاً. وهذا رأي الحسن.

وأما الجمهور فقالوا: لم تكن فيه الحياة وإنما كان على شكل العجل، وكان خواره من دقة صناعة السامري حيث جعل في رأسه منافذ تفتح وتصوت كأصوات الساعات الصناعية.

وأما ما حكاه الباري سبحانه من كلام السامري في معذرته لموسى عليه السلام:

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾..
يعني أنه لما خرج الإسرائيليون من مصر رأى السامريّ على دعواه خيّالاً على فرس كلّما وَضَع الحوافرَ على محلّ ورفعها أخضرّ وظهر فيه نبات، فتفرس السامري أن الخيال جبريل، وأنّ هذا الأثر من قدسيته، فقَبض قبضَةً من التراب الواقع تحت حوافر فرسه، ولما صاغ العجل ذَر من ذلك التراب مقداراً على فم العجل فظهرت فيه الحياة بأمر الله تعالى. فلم يذكره الباري سبحانه وتعالى على سبيل التقدير، وإنما حكاه عن السامري في الإعتذار لموسى عليه السلام، والإعتبار بالتقدير والعناية لا بالنقل والحكاية. فإن الله تعالى حكى عن الشيطان قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي من آدم مع أن الشيطان شقي مطرود وآدم نبيّ مسعود. وفي الواقع إن السامري لم ير الخيّال ولا الفرس، ولا أخذ التراب تحت قدميه وكان كلامه كلُّه كذباً، وأراد به التلبيس على موسى عليه السلام، فلم يذكر أن الصوت كان من أثر أعمالي الصناعية بل ذكر ما حكاه الله تعالى عنه حتى يشتبه موسى ويقبل منه عذره وأنّى له ذلك؟ فإنّ أصحاب الإنتباه بعيدون من الإشتباه.

قلت: ويؤيّد رأي الجمهور ما ذكره الباري تعالى من قوله ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ بدلاً عن العجل والبدل هو المقصود بالنسبة، وذلك شاهد صدق على أن العجل المصنوع لم يكن عجلاً، وإنما كان شيئا على صورته.

فائدة: الإتخاذ يجيء بمعنى إبتداء صنعة فيتعدى إلى مفعول واحد نحو: إتخذت سيفاً أي صَنعتُه، وبمعنى إتخاذ وصف فيجري مجرى الجعل، ويتعدى الاثنين نحو: إتخذت زيداً صديقاً. والظاهر هنا المعنى الثاني؛ لأن السامري خدعهم ليعبدوه ولاسيما لما مَروا على قوم يعبدون الأصنام وكان صنمهم على شكل البقرة ظن أن فيهم محبة عبادتها فأراد

السامري أن يعبدوه، فالمفعول الثاني محذوف لبشاعة ذكر الإله مع العجل. وتقدير الآية ثم اتخذتم العجل إلهاً. ويدل عليه قوله تعالى في سورة طه فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فَنِسيَ.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)﴾

يعني ثم. عفونا عنكم برحمتنا إرتكابَ ذلك الظلم بعد توبتكم عنه رجاء أن تشكروا نعمةَ عفوه بتوحيده. وعفا بمعنى درس، يأتي لازماً نحو عَفَتِ الدارُ، ومتعدياً نحو عفاها الرّيح.

قال ذو النون: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولن دونك بالإحسان.

﴿وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)﴾

أي واذكروا نعمتنا عليكم إذ آتينا موسى كتاب التوراة الجامع للأحكام والفارق بين الحق والباطل، أو المعجزات الفارقة بين أهل الرسالة وأصحاب السحر والضلالة، كالعصا واليد البيضاء لعلكم تهتدون تدبر الكتاب الحاوي للآيات والاتعاظ بالمعجزات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)﴾

يعني واذكروا نعمة إرشاد الباري لكم إلى طريق العفو إذ رجع موسى من الطور غضبان، واطَّلَعَ على ما اقترفتموه، فرجع إلى الحالة المناسبة لجلالة الرسالة، وقال: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم

باتخاذكم العجلَ إلهاً بَعـدما اَدركتمـوه من آثـار عظمـة البـاري الموجبـة لعبادته وتوحيـده، فـاعزموا على التوبـة والرجـوع إليـه بقتـل أنفسـكم، ذلكم القتل خـير لكم عنـد بـاريكم لأنـه يعلم مـراتب التـائبين وعـواقب الخائبين، فتبتم وتـاب اللـه عليكم، لأنـه هـو التـواب للمـذنبين والـرحيم للمسترحمين.

روي أنه لما أخذ موسى الألواح في الطور وأخبره تعالى بأن السـامري اَضَلَّ قومَه رجع إليهم غضـبان وأخـذ يعـاتب أخـاه هـارون ويأخـذ لحيتـه ويَجُرُ رأسَه إليه، فاعتذر إليه أخوه هارون وتبين أنه لا عتب عليه، وإنمـا الفسـاد والإفسـاد من السـامري الضـال، ومن القـوم الجهـال. وحـرّقَ العجل وذرّه في اليمِّ، ودعا على السامري وابتلى بما ابتلي به، عاد إلى حالته الطبيعية فنصح قومه حسب إيحاء الباري تعالى اليه.

وقـال: يـا قـوم إنكم ظلمتم أنفسـكم باتبـاع النفس وهواهـا، واتخـاذكم العجل إلهـاً ووجبت عليكم التوبـة، وهي بقتلكم أنفسـكم حـدّاً لهـا على تلك الجريمة النّكراء، فدخلوا سـاحة فـأنت عليهم ضـبابة سـوداء فقـال بعضهم بعضا، وبذلك برأوا من الذنب، فـإنّ الحـد يـدفع الـذنب، ومـاتوا شهداء.

وقيـل: إن المـراد بالقتـل رياضـة النفس وإتعابهـا بالـدوام على الصـيام وتقليل الطعام إلى أن تتزكى وتنوب إلى ربّهـا، فَأطـاعُوه فيمـا أَمَـرهم به، وخلصوا عن عقوبة ما أقدموا عليه. والله أعلم بحقيقة الحال.

فائدتان: الأولى: في الكشاف في تفسير البارئ: هو الذي خلـق الخلـق بريئاً من التفاوت، ﴿مَـا تَـرَى فِي خَلْـقِ الـرَّحْمَنِ مِنْ تَفَـاوُتٍ﴾ ومتمـيزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصـور المتباينـة. وفي البيضـاوي: وأصـل الـتركيب لخلـوص الشـيء عن غـيره إمـا على سـبيل التقصـي كقولهم:

برئ المريض من مرضه، والمـديون من دينـه، أو الإنشـاء كقـولهم: بـرا الله آدم من الطين.

الثانية: الظاهر أن تعيين الحد للمرتد بقتل النفس من الآصـار والأثقـال التي كانت في دين التوراة، ولو كان المرتد يتوب. وأما شـريعة القـرآن أنه لا حدَّ عليه إذا تاب ويقتله الحاكم إذا أصرَّ. فلله الحمد والمنة

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـا مُوسَـى لَنْ نُـؤْمِنَ لَـكَ حَتَّى نَـرَى اللَّهَ جَهْـرَةً فَأَخَـذَتْكُمُ الصَّـاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُـرُونَ (55) ثُمَّ بَعَثْنَـاكُمْ مِنْ بَعْـدِ مَـوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)﴾

والقائلون هم الجمع الذي إختارهم موسى عليه السلام ليذهب بهم إلى الطور للإعتذار عن سوء أعمال عُبّادِ العجل وبيـان أنهم قَتَلـوا أنفسَـهُم إمتثالاً لأمر الله تعالى والمعنى واذكروا نِعمةَ البَعْث بعد الإماتة إذ ذهبتم مع موسى إلى الطور للاعتذار، وسمعتم كلامه تعالى معه آمـراً وناهيـاً، فظننتم أن موسى رأى ربه في ذلك اللقاء واغتررتم بأنفسـكم، وطلبتم رؤيته تعالى كما رآه موسى، فقلتم: لن نؤمن لك أن المتكلم معـك هـو الله تعالى حتى نرى اللـه جهـرة وعيانـاً، فعـاقبكم ربكم على مـا صـدر منكم، فأخَذتْكم الصاعقة بأمره لقهره عليكم لما فرّطتم وأنتم تنظرون بريقَ الصاعقة عنده نزولها. فَأماتكم اللـه بهـا وَبقيتم مـدّةً، ثم بعثنـاكم بعد موتكم بدعاء موسى لعلكم تشكرون.

روي أن سيدنا موسى، بعد قتل الإسرائيليين المشركين أنفسـهم، ذهب إلى الطور واختار من القوم سبعين رجلاً لتقديم الإعتذار وشكر البـاري تعالى على نزول التوبة والإستيناس بمناجاة موسى وكلامه تعالى معـه، فلّما وَصَلوا إلى الطور غَشِيت موسى ضُبابة وَسمِعوا كلام موسـى مـع ذات الحق سبحانه وكلامَه

معه. فقالوا ما قالوه. وذلك إما لاعتقادهم أن موسى رآه واغترارهم بأنفسهم وأنهم مثله ولابد من رؤية الباري كما رآه موسى، أو جهالة وغباوةً حيث وقعوا في الشك وزعموا أن المتكلم مع موسى غيره تعالى وعلى كلا الأمرين عاقبهم الله بصاعقة نزلت عليهم وأماتتهم، وبعد يومين من الحادثة بعثهم الله كما كانوا على تضرّع موسى وابتهاله إلى الله، وقيل: القائلون هم السبعون الذين ذهبوا مع موسى إلى الطور لأخذ الكتاب، وقيل: غيرهم من بني إسرائيل. وقالوا ذلك لما نزل موسى بالألواح وذكر لهم أن هذه الألواح نزلت من الله شِرعة ومنهاجا لكم. فقالوا: لن نؤمن بأن هذا كتاب الله حتى نراه جهرة، فأخذتهم الصاعقة وماتوا ثم بعثهم الله بفضله ورحمته.

وكلا القولين غير موجه لقوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾

فإن الآية الكريمة تنادي بأن القائلين هُم السّبعون المختارون للذهاب إلى الطور في الميعاد للاعتذار عما جَرى من الفساد، وتقديم الشكر على نعمة عفوه عن العباد. وان موسى تخوّف إستحياءً من قول الناس أنه بعد قتل الناس توبة قتل الناس المختارين نوبةً اخرى، فتقبّل الله تعالى دُعاءهُ، ولبّى نداءه برحمته فإنّه أرحم الراحمين. فالميقات أول الآية هنا ليست ميقات أخذ الألواح بل ميقات الميعاد للاعتذار إلى خالق الاشباح والأرواح.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)﴾

هنا نعمتان الأخريان من نعم الله تعالى على بني إسرائيل في التّيه بين مصر والشام وهما: تظليل الغمام عليهم لتبريد الهواء، وإنزال المن والسلوى عليهم من السّماء للتنعم بهما. وذلك أنه لما خرجت بنو إسرائيل من مصر وعبروا النيل أمرهم موسى عليهم بدخول الأرض المقدسة عندهم، أعني بلاد أردن وفلسطين وما والاهما التي سكن فيها العمالقة الجبارون، وأن يحاربوهم ويخرجوهم ويَسَكنوا أماكنهم ويتنعموا فيها كما يشاؤن، فقالوا: لا علم لنا بتلك الديار، فبعث موسى بأمر الله تعالى إثني عشر نقيباً مِن كل سبطٍ رَجلٌ شريف يتحسسون الأخبار، فذهبوا اليها ورأوا سكانها الجبّارين من العمالقة فرجعوا وقرّروا بينهم: أن لا يُخبروا بني إسرائيل بشوكة العمالقة حتى لا تنفسخ عزائمهم على الجهاد، ويتوكلوا على الله لعلهم يُنصرون. فسار جيش بني إسرائيل حتى اقترب الديار، وعند ذلك أفشى إخبار قوتهم النقباء ما عدا رجلين منهم هما: (يوشع، وكالب) فتندّم الإسرائيليون من الجهاد، ورجعوا إلى محلّهم، ولم ينفع إلحاح موسى على الجهاد، فعاقبهم الله تعالى بأن يبقوا في التيه، وهي صحراء بين مصر والبلاد[4] المقدسة مدة أربعين سنة، ثم مات هارون وموسى (عليهما السلام) في التيه، وبعد ذلك بمدة قليلة فتح يوشع إبن

---

[4] وهي الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيداء فلسطين مما يلي حدود مصر، وفيها كان الاستسقاء.

نون وهو إبن أخت موسى وأحد أنبياء بني إسرائيل بلدة أريحاء، ثم بيت المقدس، وسكن الإسرائيليون هناك.

ولما عاقبهم الله تعالى بالبقاء في التيه من حرارة الشمس وقلة النفقة شكوا ذلك الى موسى عليه السلام، فدعا ربه بإغاثة قومه فاستجاب دعاءه، فكان تظللهم بعد ذلك غمامة في اليوم الحار بحيث لا يتأذون، وأنزل عليهم المن أي الترنجبين (معرب ترانگبين) أي العسل الرطب المائي. وينزل عليهم كل يوم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فيأخذ كل بيت كفاية يوم، إلا يوم الجمعة فيأخذ كفاية يومين لتفرغهم يوم السبت للعبادة، وأنزل عليهم السلوى وهو طير أصغر من الحمامة وأكبر من العصفور لا تقدر على طيران زائد، كانت تأتي به الريح الجنوبي فيأخذون منه ما يكفيهم، ولكنهم خالفوا الحدود المقررة في المقدار فرفعها الله بعد ذلك.

وحاصل معنى الآية: أذكروا أنا ظلّلنا الغمام على رؤوس أسلافكم بالتّيه لدفع الحرارة عنهم في اليوم الحارّ، وأنزلنا عليهم مِنَ السماءِ مَنَّ السماء كالعسل المائي لشربها وَحْدها، أو لتحلية الأطعمة بها، وانزلنا عليهم السلوى لحما طريّا شهيّا. وقررنا لكم حُدودا في مقدار المأخوذ فخالفوا أمرنا وما ظلمونا بتلك المخالفة لأن بساحة الكبرياء ساحة الإستغناء، ولكن كانوا سابقاً هم يظلمون أنفسهم بحرمانها من مزيد الثواب وحسن المآب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)﴾

والمعنى أذكروا لبني إسرائيل على لسان يوشع بعـد وفـاة موسـى في التّيه أدخلوا مدينة القـدس فـاتحين مسـتولين، واسـكنوا بهـا وكلـوا من أرزاقها حيث شِئتم أكلاً واسعاً مترفهاً، وإذا فتحتموها فادخلوا البـاب أي بـاب بيت المقـدس أيّـا كـان، أو أحـد الأبـواب المعهـود عنـدكم، وهـو المسمى الآن (باب حطة) ساجدين لله شاكرين له على نعمة الفتح.

وقولوا: يا ربنـا مقصـودنا حطّـة وسـقوطٌ لـذنوبنا. وإذا قلتم ذلـك تغفـر للمخطئين منكم خطاياهم، وسَنَزيدُ المحسنين منكم بالإبتعاد عن عبادة العجل ثواباً وأجراً.

فبدّل الذين ظلموا أنفسهم من بـني إسـرائيل بـالقول الـذي اُمِـروا بـه غيره عناداً وتمرّدا، وقـالوا: حنطـة، حنطـة، وطلبـوا مـا يغـترّون بـه من عيش الدنيا ولم يكن طلبهم على إضافة الحسنة إلى الحسـنة بـل على سبيل الإقتصار بالدنيا والإستهتار بالدين فأنزلنا على أولئك الذين ظلموا رجــزاً وعــذاباً من الســماء بســبب فســقهم وخــروجهم عن طريــق الصّالحين.

روي أنه أنزل الله عليهم طاعوناً أهلكَ بـه كثـيراً وكثـيراً. فهـذه القصـة قصة وقعت بعد التيه في زمان يوشع النبي عليه السـلام، وكـان سـيدنا موسى قد حوّل إليه قيادةَ بني إسرائيل، ووصّـى لـه بالجهـاد وفتح بيت المقـدس. ففتح بعـد ثلاثـة أشـهر من وفـاة موسـى القـدس والمسـجد الأقصى وكان هذا الفتح بعد فتح بَلدة أريحا. والقائـل ذلـك القـول لبـني إسرائيل هو يوشـع بـوحي من اللـه تعـالى أو بوصـية من موسـى عليـه السّلام. وأما قصة أمر سيدنا موسى وقوله لبـني إسـرائيل بفتح الأرض المقدسة فقد

كـانت قبـل الـدخول في التيـه، فإنـه بعـد الخـروج من مصـر لمـا رأى الإسرائيليين متعبين من عيش الصحارى، وما كانوا متعودين عليه سابقاً أمرهم أن يحـاربوا العمالقـة الجبـارين ويسـتولوا على بلادهم الـتي هي من الأرض المقدسة وهي الشـام كلهـا، أو الطـور ومـا حولـه، أو أريحـا مقرّ الجبارين أو دمشق وفلسـطين وبعض من الأردن كمـا ذكـره بعض المفسرين.

وامتثلوا أولاً وبعد انتشـار أخبـار قـوتهم من جـانب بعض النقبـاء تنـدموا وخالفوه ولم يجاهدوا فعاقبهم اللـه وابتلاهم بالبقـاء في التيـه بمسـافة نحو أثني عشر فرسخاً أربعين سنة.

وليست هذه القصـة قصـة يوشـع عليـه السـلام، والعجب من الشـهاب كيف ادعى إتحاد القصتين مع ظهور تعدّدهما؟ !

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْـرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60)﴾

لما دخل بنو إسرائيل في التيه وكان صحراء قاحلة قليلة المـاء إشـتكوا إلى موسى عليه السلام العطش، فاسـتقى عليـه السـلام ربّـه، فأجابـه وأمره أن يضرب بعصاه الحجر لينفجر منه الماء، أما عصاه فهي العصـا المعهودة أمّ المعجزات، وأما الحجر فللمفسرين فيه أقـوال فمنهم من يقول: إنه كان حجراً معهوداً بينه وبين موسى، وهو الذي فرَّ بثوَبـه حين وضعه عليه ليغتسل، فركض وراءه موسـى عاريـاً، ويقـول: ثـوبي حجـر ثوبي حَجَرُ. وكان الإسرائيليون يرونه، وعلموا أنه بريء من عيب الأدرة التي رموه بها. فأشار إليه جبريل أن إرفعه وخذه معـك، فـإن اللـه فيـه إظهارَ قدرة.

وفي تفسير روح البيان: أنه كان ذراعاً في ذراع. وفي تفسير المنار يبين معهوديته بكونه حجراً صلباً أو عظيماً تتّسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن يكون منه موارد لتلك الأمم.

وفي غيره أنه كان مربعاً له أربعة أوجُهٍ، فضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشْرة عيناً بعدد الأسباط. وعلي كل عين علامة صاحبها.

ومنهم من يقول: إن المراد به جنس الحجر أيّاً كان، وهذا أبلغ في القدرة، وأوفي بالمعجزة، وأبعدُ من الشبهة كخاصية في ذلك الحجر لانفجار الماء. وكان سيدنا موسى يأمر بوضعه في محل عند الحاجة فيتفجر منه الماء بالمقدار الكافي ثم ينقطع. وقال سيدنا موسى لهم: كلوا واشربوا من رزق الله من المن والسلوى والماء الزلال، ولا تعثوا في الأرض مفسدين لقلوب الناس.

ولفظ عثا ناقص، وعاث أجوف وهما في المعنى واحد إلا أن الثاني غالب إستعماله في المحسوسات عاث السوس الخشب أي أفسده.

فهذه النعمة نعمة جليلة وحقها أن تذكر وتؤخذ بعين الإعتبار، فإنّ القوم الذين خالفوا الأوامر وعوقبوا بالإلقاء في التّيه لا تحصل لهم هذه النعمة العظيمة إلا بفضل الله ورحمته من أثر دعاء رسوله وإجابته.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)﴾

كان الإسـرائيليون في التيـه على طعـام لا يختلـف وهـو المن والسِّلوى فتنفر عنـه طبـاعُهم. فطلبـوا من سـيدنا موسـى أن يـدعو اللـه تعـالى ليخـرج لهم في الأرض من أنـواع المخضـرات ليتمتعـوا ويتنوعـوا منهـا. وذلك الطلب لعوامل: الأول ما قلنا من إباء الطبـع عن الإسـتمرار على طعام واحد ولوكان لذيذاً. الثـاني: تعـودهم بإجابـة اللـه تعـالى لكـل مـا طلبـه موسـى ولـو كـان خارقـاً للعـادة، فصـار ذلـك عنـدهم كـالأمور الإعتيادية. الثالث: أنه كان عند عامتهم تعنّت تعجيزي كالأطفـال عنـدما هاجوا، فكانوا يطلبـون الشـيء وإذا حصـل لهم لم يقتنعـوا بـه، وطلبـوا شـيئاً آخـر. وهـذه الطبيعـة توجـد بكـثرة عنـد المـدلَّلين لاسـيما صـنف الروحانيين لأن الأمـراء يخـدمهم من يطمـع فيهم أو يخـاف منهم، وأمـا الروحانيون فيخـدمهم أتبـاعهم على غـرام لنيـل المـرام، أو على تقليـد رائج بين العوام، فقلما تكون في أولادهم طبيعة معتدلة سـالمة ولـذلك صار كالمثل الجاري (إخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم).

فعلى ذلك طلبوا من موسى عليه السلام البقل وهو كل نبات لا سـماق لـه، والقثـاء، والفـوم وهـو الحنطـة، أو البـاقلاء، أو الثـوم. والعـدس، والبصل. فقال عليه السلام مستنكرا: أتستبدلون الـذي هـو أدنى كهـذه المخضرات بالذي هو خير لذة وحلاوة وإفادة للبدن وحصـولاً بلا تعب؟ ! فـإن كنتم تريـدونها فلا توجـد في التَّيـه وإنمـا هي في البلاد الخصـبة الزراعية إذا تحصلونها بالفلح والزرع، أو في المدُن ففيهـا يؤخـذ مـا لـذ وطاب فعليكم بالسعي والجهاد وانزلوا إلى مصـر من الأمصـار الواقعـة في الأرض المقدسة

واستولوا عليها حتى يحصل لكم مـا تريـدون وتشـتهون، أو اهبطـوا إلى مصر موطنكم قبل الخروج، وعودوا إلى عبوديتكم النكـراء واتفقـوا مـع الأقباط فإن لكم عند ذلك ما سألتم، فـإن اللـهِ سـنة جاريـة في العـالم جواباً ولن تجدوا لسنته تبديلاً.

وقوله تعـالى: وضـربت عليهم الذلـة والمسـكنة جملـة مسـتأنفة جوابـاً لسؤال تقريره: فلم لم تأخـذهم الغـيرة من كلام موسـى عليـه السـلام حتى يحاولوا الفتح والجهاد؟ فأجاب بقوله: ضربت عليهم الذلة النفسية وعدم الإعتماد على الشخص وأتتهم المسكنة والخشوع الفارغ بحســب طـبيعتهم ونشـوئهم الفاسـد وإبـائهم عن قبـول تربيـة المـربّين. وبـاؤا بغضب من الله لأن الله تعالى يبغض الرجلَ البطّال، وذلك الغضب حـل فيهم وعليهم بأنهم كـانوا يكفـرون بآيـات اللـه وخوارقـه الظـاهرة على أيدي المرسلين. وإلا لو كانوا مؤمنين بها حق الإيمـان وشـاكرين لنعمـة المنان أطاعوا موسـى في محاربـة الجبـارين وفتحـوا أريحـا مقـرهم أو بلدة أخرى وعاشوا فيها عيشـة الأحـرار، وغـرز في طـبيعتهم الفاسـدة إنهم يقتلون النبيين الأبريـاء لـو أمكنهم لأنهم عزمـوا على قتـل يوسـف المعصــوم ونجى منهم بفضـل اللــه ورحمتــه، وَعَــدمُ الإهتمــامِ بقتــل المعصوم عين عدم الاهتمام بقتل النبيين بغـير الحـق، وقـد ظهـر منهم بعد مـدة قتـلُ يحى وزكريـا والإقـدام على قتـل عيسـى، وتلـك الملكـة الفاسدة والرذيلة الكاسدة حصـلت فيهم بمـا عصـوا تعليمـات الرسـل، وكانوا يعتدون على الحقـوق، ومن باشـر الإعتـداء والعصـيان تنمـو فيـه ملكة الطغيان. والطـاغي يبغي على الحقـوق ولا يبقى عنـده فـرق بين قتل الأشقياء والأبرياء، فالشرّ يأتي بالشرور، ولاسيما الطغيان والغرور كما أن الخير يأتي بالخير بل بالخيور.

فإن قيل: قتل النبيين لا يكون حقاً ابداً فما فائـدة التقييـد بغـير الحـق؟ أجيب بأنّه قيدٌ واقعي وبيان للواقع. أو أنه لتأكيد العدواني المستفاد من قتل النبيين. أو أن الكلام جار على مـذاق القـاتلين فـإنهم إذا رأوا مـا لا يعجبهم من أي شخص يعـاديهم قتلـوه ورأوا أن قتلـه بـالحق لمخالفتـه لهم، والطغاة لم يروا في النبيين أمراً داعياً إلى القتل مع أنهم قتلـوهم حتى لا يبقى لهم أثر، فكان قتلهم بغير حق حتى عندهم.

فـإن قيـل: فمـا معـنى قولـه تعـالى: كتب اللـه لأغلبن أنـا ورسـلي؟ فـالجواب: إن المـراد الغلبـة بالحجـة والبينـات، أو الغلبـة في المناجـذة والمحاربات. أو الغلبة يوم القيامة أو أنّ القضية أغلبية لا كلية، لأن سنة الله لا تقبل التبديل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾

أخــرج ابن جريــر وابن أبي حــاتم عن الســدي قــال: التقى نــاس من المسلمين واليهود والنصارى. فقال اليهود للمسـلمين: نحن خـير منكم، وديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نـبيكم، ونحن على دين ابراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصـارى: مثـل ذلـك فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم، ونبينا صـلى اللـه عليـه وسـلم بعـد نبيكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خـير منكم، نحن على دين إبـراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ولن يـدخل الجنـة إلا من كـان على ديننـا، فـأنزل اللـه تعـالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلَا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾... الآية على منهاج هذه الآية، والمقصود: إن الله سبحانه وتعالى كلما أرسل رسولاً في أي عهد من العهود إلى أي أمة من الأمم فمن كان مؤمناً بالله ورسوله وأخلص دينه لله في ذلك العهد فقد فاز بالسعادة، وكذلك الأمر في هذا العهد الذي أرسل فيه محمد صلى الله عليه وسلم برسالة عامة وبعث رحمة للعالمين فمن كان مؤمنا بهذا الدين بادئ بدء، ومن كان مِنَ اليهود، أو من النصارى، أو من الصابئين الذين كان لهم دين قبل هذا الدين إذا أتى إلى هذا الرسول في عهده وقبل دينَه بإيمانٍ وإخلاصٍ، وآمَن باللهِ واليومِ الآخر وسائر ما اعتبر الإيمان به من اركانه وأثبت إيمانه بالعمل الصالح حسب منهاج دينه العام القويم فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم من مكروه منتظر يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما أصابهم. أي ليس أمامهم إلا الرحمة والرضوان والفوزُ بالجنان، فالأديان السابقة كانت كلها نافعة لأهل الإيمان بذلك العهد، وأما اليوم فلا ينفع فيه إلا الإيمانُ بخاتم الأنبياء.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾: المراد به آمنوا بدين الإسلام في ظاهر الحال فهو وسائر أهل الأديان السابقة كلهم سواء في هذا العهد فمن آمن بالرسول المبعوث فيه، وقارن إيمانه العمل الصالح فهو السعيد بحق، وغيرهم يعتبر من الكافرين ويدل دلالة قطعية على هذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

فلا خلاف في سعادة كل من آمن بالرسول المبعوث إليه في عهده من لدن عهـد سـيدنا آدم إلى عهـد الخـاتم كمـا لا خلاف في أن من عاصـر عهدُه عهد سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم أو جـاء بعـده يجب عليـه أن يؤمن به ويتبع تعاليمه في العقائد والأحكـام، لأن دينـه ناسـخ لسـائر الأديـان ورسـالته شـاملة لجميـع الأمم. وأمـا من لم يصـل إلى عهـد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ولم تصل إليه دعوة رسول سابق عليه فهو من أهل الفترة وأهل النجاة؛ كمن ولد بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تصله الدعوة الإسلامية الشـريفة ممن عاشـوا في جزر البحـار، وقلـل الجبـال، وأعمـاق الوديـان. لقولـه تعـالى: ﴿وَمَـا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. نعم إن الـدعوة اليـوم وفي عهـد الإذاعـات العالمية العامة قد وصلت إلى كافة الناس من العقلاء والمثقفين، فمن لم يهتم بها ولم يؤمن، واتبع هواه فهو ايضـاً يعـد من الكـافرين. بيـد أنَّ من لم يؤمن بسبب إستيلاء رئيس ديني عليـه وتشـويه الحقـائق يـدخل في زمـرة الكـافرين الـذين يقولـون: ربنـا إنـا أطعنـا سـادتنا وكبراءنـا فأضلونا السبيلا، ربنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾، والذين تهـوّدوا أي دخلـوا في دين اليهود. وهو إن كـان عربيـاً في الأصـل فمـأخوذ من هـاد بمعنى تـاب أو سكن. وإن كان معرّبا فهو معرّب يهـوذا بـذال معجمـة وألـف مقصـورة فعُرِّب وغيّر.

والنصارى: إما جمع نَصران بمعنى نصراني، فهو على القيـاس كنـدامي ونَدمان. والياء في نصراني حينئذ للمبالغـة كمـا يقـال للأحمـر: أحمـري إشارة إلى أنه عريق في وصفه. وقيل: إنها للفرق بين الواحـد والجمـع كـزنج وزنجيّ، وروم وروميّ. ونصــران بمعــنى نصــراني وارد في كلام العرب، وإما جمعُ نَصْرِيّ كمهارى ومَهْرِيّ وألفه للتأنيث، ولذا لم يُنَوّن.

ثم إن نصران بمعنى ناصر، كمـا قلنـا، سـمي بـه لأنهم نصـروا المسـيح عليه السلام، أو لنصر بعضهم بعضا. فلا يرد عليه أن فاعلاً لا يجمع على فَعالى لأنه جمع نصران بمعنى ناصر لا جمع ناصِرٍ.

وقيل: إن عيسى عليه السلام ولد في (بيت لحم) بالقـدس، ثم سـارت به أمه إلى مِصرَ، ولمـا بلـغ اثنـتي عشـرة سـنة عـادت بـه إلى الشـام، وأقامت بقرية يقال لها (ناصرة) فسمّي من معه باسمها.

والصابئون: قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: بين النصـارى واليهـود؛ لأن دينهم يشـبه دين الفـريقين. واللفـظ إن كـان عربيـا فهـو من صـبأ مهموز اللام أي خرج، أو من صبا معتل اللام بمعنى مالَ. وفيهم إعتقـاد بتأثير النجوم على معنى التسبب كالنار للإحراق.

(فائدة): معنى مَنْ آمَنَ في اوّل الآية الشريفة مَنْ آمن ظاهراً كائنـاً مـا كـان. ومعـنى مَن آمَنَ في آخرهـا آمن بصـدق وَاَخلَصَ في إيمانـه، فلا تكرار فيها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)﴾

روي أن بني إسرائيل طَلبوا الكِتاب من موسى وعاهدوه على العمل به، فذهب موسى إلى الطور وأخذ الألواح من الله سبحانه وتعالى منهاجاً للدين، ولمّا عَرَضَها على بني إسرائيل واطّلعوا على ما فيها من التكاليف تمردوا وابَوَا عن قبولها، فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فقَلَعَ جبل الطور ورفعه فوقهم، فخافوا من إطباقه عليهم فقبلوها. ولمّا أَخَذ الله تعالى الميثاقَ من بني إسرائيل على لسان موسى بقبول الكتاب إذا أنزله عليهم والعمل به، وقد اعطوا موسى عليه السلام عهداً بذلك، ثم نقضوه.. هدّدهم الله تعالى بإطباق الجبل عند التمرد، فليس ذلك الأمر إكراهاً لهم على قبول الدين، بل عقاباً لهم وتخويفاً على نقض ذلك الميثاق. ومع هذا لما قبلوا التوراة خوفاً من العذاب خالفوه مرة أخرى.

وحاصل تفسير الآيتين: واذكروا إذ أخذنا العهد والميثاق منكم باتباع موسى والعمل بما في التوراة، ثم لما جاءكم موسى بالكتاب وعرضه عليكم تولّيتم، وأبيتم عن قبوله، فخوّفناكم عقاباً على ما جرى منكم، وأمرنا جبريل بقلع الطور ورفعه عليكم كالمظلة فوق المخيّم، وقلنا لكم: خذوا ما أنزلنا إليكم وتَلَونا عليكم مِن التعاليم القدسية المباركة بقوة القلب الاعتقاد، والبدنِ للعمل به، واذكروا ما فيه وادرُسوه وعلّموه الأولاد والأتباع، ولا تَنْسوهُ، وفعلنا ذلك رجاء أن تكونوا أناساً صادقين متقين. ولمّا علمتم أن لا مخلص عن قبوله قبلتم وأقبلتم على الإطاعة، ثم بعد ذلك كله اَعرضتْم عن الوفاءِ بما التزمتموه. فصارت أحوالكم مضطربة متزلزلة من العهد إلى المخالفة، ومن التوبة إلى نقضها. فلولا فضل

اللـه تعـالى عليكم ورحمتـه الشـاملة إكرامـاً الموسـى وإنعامـاً عليكم وتوفيقاً على التوبة لكنتم من الخاسرين الذين خسروا أوّلا وأخيرا.

فعلى ما ذكرنا من التفسير صـار الميثـاق ميثـاقين، والمخالفـة مـرتين. الميثاق الأول: عندما طلبوا من موسى عليه السلام الكتاب بعد الخروج من مصر، والمخالفة الأولى: إباؤهم عن العمل بـه في التيـه. والميثـاق الثـاني: عنـد رفـع الطـور على رؤوسـهم وقبـولهم للكتـاب، والمخالفـة الثانية: ما ارتكبوه بعد ذلك في التيه وبعده.

﴿وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَـدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّـبْتِ فَقُلْنَـا لَهُمْ كُونُـوا قِـرَدَةً خَاسِئِينَ (65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـةً لِلْمُتَّقِينَ (66)﴾

قوله ولقد: اللام هي اللام الواقعة في جواب قسم مقدر، وتسمى اللام الممهدة للقسم، لأنه لولاهـا لم يعلم أن في الكلام قسـماً مقـدراً. فقـد مَهَّدَت له الجوابَ. وأما اللام الموطئة فهي لام تدخل على شرطٍ نازَعَه القسم في جزائها نحو والله لئن أكرمتـني أكرمتـك وقـد تسـمى الأولى باسم الثانية. وقيل إنها لام إبتدائية. وعلمتم: هنا بمعـنى عـرفتم يتعـدى الواحد. أي ولقد عرفتم أصحابَ السبت وما أحللنا بهم من النكال.

وقوله تعالى في السبت: أي في حكم يوم السبت، وهو وجـوب التفـرغ للطاعة؛ لأن الإصطياد كان في الأحد. وقيل: بل في نفس السـبت لأنـه لما صار الإحتيـال فيـه كـان كـأنَّ الإصـطياد فيـه والسـبت: اسـم لليـوم المعلوم. قيل إن موسى عليه السلام أراد أن يجعل يوم الجمعة خالصـاً لطاعة بني إسرائيل فلم يقبلوه وطلبوا منه يوم السبت لأن الله تعـالى لم يخلق فيه شـيئاً فلمـا اختـاروا ذلـك نهـاهم اللـه عن الإصـطياد فيـه، فخالفوه

فعـاقبهم اللـه تعـالى. وقيـل: إن السـبت مـأخوذ من السّـبوت بمعـنى الرّاحة. والـذين اعتـدوا في السـبت هم أهـل قريـة على سـاحل البحـر الأحمر اسمها (ايلة) ولما نُهُوا عن الإصطياد يوم السبت كـانت الحيتـان تجتمع فيه، فحفروا يوم السبت حياضاً وشـرعوا فيهـا الجـداول فكـانت الحيتان تدخلها يوم السبت، فيصطادونها يوم الأحد كما قـال تعـالى في سورة الأعراف:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّـبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163)﴾.

وقولـه تعـالى ﴿كُونُـوا قِـرَدَةً﴾: ليس المـراد بـالأمر معنـاه الحقيقي أي طلب الفعل من الأمور إذ ليس في طاقة المخـاطبين تحويـل صـورهم، وإنما المراد به التسخير وسـرعة التكـوين أي أنهم صـاروا كـذلك. قـال مجاهـد: مـا مسـخت صـورهم إنمـا مسـخت قلـوبهم. وقـال ابن جريـر وغـيره: إن قــول مجاهــد رحمــه اللــه خلاف الصــحيح المشــهور عنــد المفسرين وهو أن المراد بالمسخ المسخ الحقيقي، وأنه غيرت صورهم إلى صور القردة وليس تحويل الصورة بأعظم من إنشائها، وهو النكـال صورة وسيرة وتُجعلُ عبرةً للمعتـبرين وإلا فـاختلاف القلـوب ثـابت في كثير من الناس والعياذ بالله تعالى. والنكـال العقوبـة من النكـل بمعـنى القطع لأن تلك العقوبة تقطع المعذب وتمنعه عن العود إلى مـا ارتكبـه غالباً.

والمراد بما بين يديها: الناس المعاصرون لأهل القرية، وبمـا خلفهـا من بعـدهم إلى يومنـا هـذا. والممسـوخ من أهـل القريـة هم المباشـرون للإحتيال.

قال ابن عطية: وروي عن النبي صلى الله عليـه وسـلم أن المنسـوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

وحاصل المعنى: والله لقد علمتم أيها الإسرائيليون أحوال الذين اعتـدوا في السبت واحتالوا في هدم حكم الله فعاقبناهم وقلنا لهم كونوا قردة خاسئين محقّرين، وجعلنـا مسـخهم عـبرة للمعاصـرين النـاظرين، ومن بعــدَهم من المتفكــرين، وموعظــةً للمتقين الراغــبين في خــير الــدنيا والدين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَـذْبَحُوا بَقَـرَةً قَـالُوا أَتَتَّخِـذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَـالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّهَـا بَقَـرَةٌ لَا فَـارِضٌ وَلَا بِكْـرٌ عَـوَانٌ بَيْنَ ذَلِـكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68) قَـالُوا ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَـا مَـا لَوْنُهَـا قَـالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَـفْرَاءُ فَـاقِعٌ لَوْنُهَـا تَسُـرُّ النَّاظِرِينَ (69) قَـالُوا ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَـابَهَ عَلَيْنَـا وَإِنَّا إِنْ شَـاءَ اللَّهُ لَمُهْتَـدُونَ (70) قَالَ إِنَّهُ يَقُـولُ إِنَّهَـا بَقَـرَةٌ لَا ذَلُـولٌ تُثِـيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْـقِي الْحَـرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُـونَ (71)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِـهِ﴾: قـال بعض المفسّـرين: إن أوّل هذه القصة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ الآية ولكن قُدم هذه الفقـرة لأن مسـاوئ كثـيرة لهم من الإسـتهزاء بـأمر اللـه ومزيـد الإلحـاح في السؤال واستبطائهم في الإمتثال كاد أن تزيد سوءً على جريمـة القتـل، فاهتم بها وقدمها.

والقصة: إنه كان في بـني إسـرائيل رجـل شـاب لـه ثـروة طائلـة وابن واحــد، وعــدد من أبنــاء أخيــه، فقــالوا: إن عمنــا شــائب مشــرف على الموت،

والمانع لنا من نيل ماله هو إبنه الوحيد، فلنقتله، فقتلوه غيلة، وطرحـوه على باب البلد مع أنهم ثاروا وجاءوا يطالبون بدمه! فوقعت في النـاس فتنة كاد أن يقتل بعضهم بعضا بسـببها. فطلب سـيدنا موسـى من اللـه سبحانه كشف السِّتار عن الحادثـة. فقـال لـه: مُـرهُم أن يـذبَحوا بقـرةً ويضربوا المقتول ببعض لحمه فيحيا، ويخبر النـاس عن قاتلـه. فـأَمَرَهم موسـى بـذلك، ولكنَّهم تَبَـاطَئوا بشـبهة انبهـام البقـرة، وجـاءوا بأسـئلة عديدة حول الموضوع، ولو كانوا يسارعون في الإمتثال لكفـاهم ذبح أيّ بقرة كانت.

وقولـه: أتتخـذنا هـزوا: الهـزء السـخرية، وحملـه على المفعـول الأول مبالغة، لأنهم تعجبوا مِن أمر سيدنا موسى بذلك. فقـالوا هكـذا. ويجـوز تقدير مضاف أي: محل هزء. وقوله: ما هي ظـاهره سـؤال عن حقيقـة البقر، وليس بمراد وإنما المراد السؤال عن عمرها. أي ما سِنُّها بقرينة قوله تعالى ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾. والفـارض: المسـنة. والبكـر: الفتية. والعوان: المتوسط بينهما. وقوله بين ذلك أي بين ذلك المــذكور بالفـارض والبكـر. لأن بين لا يضـاف إلا إلى متعـدد. والفـاقعُ: الخـالصُ الصفرةِ. وقوله أخـيراً: ﴿مَـا هِيَ﴾ كررهـا لزيـادة الإستكشـاف. وقولـه: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾: إعتذار عن تكرار السؤال مع إضطرارهم إليـه؛ لأن البقر الموصوف بالعوان كثير. وقوله لمهتدون: أي إلى الإمتثال.

وقوله لا ذلول: الذلول المرتاض المدرب بكرب الأرض، وسقي الحرث. أي لم تدرب لكرب الأرض ولا لسقي الحـرث. ولا في قولـه ولا تسـقي صــلة للتأكيــد، أي لا ذلــول تثــير الأرض وتســقي الحــرث. وقولــه: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: أي من العيب. وقوله لا شية فيها أي ليس فيها لون يخـالف لون جلدها.

وقوله: ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾: أي بحقيقة وصفها. وقوله: فذبحوها: أي باشروا بالذبح المأمور به لقطع تعللاتهم، فصاروا كالمضطرين إليه. وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾: أي أنه ما قاربوا أن يذبحوها فضلاً عن مباشرة الذبح، لتطويلهم في الكلام، وكثرة مراجعاتهم، ولظهور الفضيحة في ظهور القاتل ولإنطباعهم على مخالفة الأوامر والنواهي.

وحاصل المعنى: واذكر إذ قُتِل شخص من بني إسرائيل فوقع التنازع في قاتله، وراجع موسى ربه في تعيينه. فقال تعالى له: مرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوا ذلك القتيل ببعض لحمها حتى يحيا ويخبرهم بالقاتل. فأمرهم موسى بذلك، فتعجبوا من كلامه، وعدوه إستهزاء بهم. فقالوا: اتستهزئ بنا في الأمر بهذا الشيء الغير المناسب. فأجاب بالإستعاذة عن الجهل والسخرية، وأنه أتى بما أمر الله تعالى، فسألوه عن سن البقرة، فراجع ربه فقال تعالى: إنها ليست مُسِنَّة ولا فتيّة، بل متوسطة فاذبحوا ما أمرتم به، فلما أخبرهم بسنها، قالوا البقرة المتوسطة كثيرة تشتبه علينا، فما لونها؟ فراجع موسى ربَّه وسأله عنه فقال: إنها بقرة متوسطة العمر، صفراء اللون، خالصة الصفرة، تسر الناظرين بحسنها. ثم قالوا أيضا: إن بقرة كذلك كثيرة، واشتبهت علينا، فزدنا مِن بيانِ المشخصات، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى البقرة المقصودة للذبح. فراجع موسى ربه أيضاً للوصف الزائد فقال: إنها بقرة متوسطة العمر، صفراء اللون، الخالصة الصفرة، ولم تدرب في كرب الأرض ولا في سقي الحرث، وسالمة من العيوب في أعضائها، وليس في جلدها لون يخالف الصفرة. فقالوا: يا موسى الآن جئت بحقيقة وصفها، فطلبوا بقرة كذلك واشتروها وذبحوها وضربوا ببعض من لحمها على القتيل فاحياه

الله تعالى وأخبرهم قائلاً: إن قـاتلي فلان من أبنـاء عمي، وبـذلك ظهـر الحق وبطلت أقاويل الفاسدين.

وفي ما ذكرناه يظهر تفسير قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَـا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُـرِيكُمْ آَيَاتِـهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (73)﴾

وهو: واذكر إذ قتلتم نفساً، ونسب ذلك إلى الجميع باعتبـار أن الحـادث وقع فيكم فاختصمتم في تعيين قاتلها والله لاشـك يُظهـر مـا اخفيتمـوه بعـد مراجعـة الرسـول، فقلنـا: إذبحـوا بقـرة، واضـربوا القتيـل ببعضـها ففعلتم بَعدَ اللّتيا والتي ما أمرتم به، فأحيـا اللـهُ القتيـل، وأخـبر بقاتِلِـه، وانتهت القضية. وكما علمتم بأنفسكم إحياءَ هذا القتيل بلا شـبهة كـذلك يحي الله الموتى يوم البعث، ويُريكم دَلائل كمالِ قدرته لعلكم تعقلون.

إن ما أخبر به الصادق من الأمور الممكنة حـق بلا ريب ويصـدر مِن رب العالمين وههنا أمور:

الأول: إن أول هــذه القصــة قولــه ســبحانه وتعــالى: وإذ قتلتم نفســاً فاداراتم فيها الآية فلماذا فكت عنه؟ والجـواب: أن المقصـود هنـا بيـان نعم اللــه تعـالى على بـني إسـرائيل وكفـرانهم لنعمـة العظيمـة وذكـر مساوئهم الجسيمة. وفي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَـالَ مُوسَـى لِقَوْمِـهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾.. الآيات وجـوه عديـدة منهـا، فقـدم ذلـك وأخـر هـذا الاهتمـام بفضح بني إسرائيل وسوء أحـوالهم أمـامَ رسـولهم المؤيـد بـالمعجزات وإفهام خلفهم وجوه مخالفات سلفهم وانتقـام اللـه منهم حـتى يعتـبروا بها فإنها عبرة للمعتبرين.

وقال الشهاب: والحق أن قصة البقرة لما كانت متضمنة الأمـور عجيبـة وآيات باهرة، ولذا سُميت السورةُ بها.. ذكرهَا مرتين على وَجه يتضـمن كـل من الـذكرين فوائـدَ ومقاصـدَ تخرجهـا عن التكـرار. وزاد ذلـك بـأن حُذِفَ من كل ذكرٍ وطوي ما يدل عليه الآخر على طريقة الإحتباك حتى يتأسّس الكلام ويرتبط النظـام، ويأخـذَ بعضُـه بحجـز بعض. فطَـوَى من الأولى بعضَها إذ التقدير: قال موسى، وقد قتل قتيل وقـع فيـه التنـازع: إن الله يأمركم أن تـذبحوا بقـرة تضـربوه ببعضـها فيحيـا ويخـبر بقاتلـه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ الآية... إذ مجرد الأمر بذبح بقرة وتقـريب قربـان لا إستهزاء فيه. فذكر الإستهزاء ناشر لما طوى. وأضمر في قوله فقلنـا اضـربوه ببعضـها حين ثـنيت القضـية فقلنـا أذبحـوا بقـرة موصـوفة بمـا عرفتم فاضربوه ببعضها يحيا القتيل انتهى.

أقول: والحق إن من تـدبر القـرآن الكـريم، وحكايـة الحـوادث الماضـية فيها، أو ذكر الأحكام الجديدة المقررة في دين الرسول الذي انزل إليـه عَلِمَ أن الغايـة القصـوى هي الإرشـاد والعظـة والإعتبـار، ولم يهتم فيـه بالتنسيق والترتيب والتقديم والتأخير، كما اهتم بالغايـة الأولى وإلا فقـد حكى الله تعالى حوادث بني إسرائيل في كثير من السور، وكـان يمكن جمعها في سـورة واحـدة، مـع أنـا إذا نظرنـا إلى حقيقـة بلاغـة القـرآن المفسـرة بمطابقـة الكلام لمقتضـى الحـال وجـدنا أن في كـل إجمـال وتفصيل، وإبهام وتفسير، وتقديم وتأخير، واختصـار وتطويـل.. مـبرّرات واقعيـة ودواعي حقيقيـة لا يعلمهـا إلا من الهمـه اللـه الحقـائق. فـإن مجالس الإرشاد بالقرآن ومواقع السـؤال والجـواب كـانت تختلـف جـدا بحسب طبقات الناس في العلم والحكمـة وتـنزل الطبـع وعلـو الهمّـة، والتعمق في العداوة، أو التوسط أو خلو الذهن عنها، أو إستكبار النـاس واستنكارهم. وكذلك في

حضور الناس الآخرين مع السائلين. فلا يمكن أن ترى آيات من القـرآن إلا وفيها رعاية المطابقة لمقتضى الحال وإذا كان الأمر كـذلك فلا نظـر إلى تكرار بعض الموضوعات ولا في الترتيب بين الحكايات، إذ مـا تـراه مهمـا يوجـد معـه أهم من ذلـك، وفي هـذا بلاغ، ومـع ذلـك فقـد أتى المفسـرون بتوجيهـات قيمـة بحسـب المقـام تشـفي الأذهـان وغليـل الأوهام.

والأمر الثاني: إن هناك أسئلة مترابطـة هي مـا سـر إختيـار عمليـة ذبح البقرة لكشف القاتل مع أن الله عالم بكـل شـيء ويـوحي الى رسـوله بكل ما يشاء؟ وما مناسبة إختيار ذبح البقـرة في الموضـوع؟ ومـا وجـه زيادة تلك الصـفات على الـتراخي ولم تـذكر اوّلاً؟ ثم القتـل لا يثبت إلا ببينة شرعية فكيف يثبت بخبر القتيـل وحـده؟ والجـواب عن الأول هـو: أن فساد أخلاق بني إسرائيل إذ ذاك وصل إلى درجة ما كانوا يصـدقون موسى فيما يخبر به عن تعيين القاتل، كما أنهم ما صـدقوه في إخبـاره بأنهم لا يرون الله تعالى. والمؤمنون المخلصون منهم كانوا قليلين جدّاً. وعن الثاني أن البقـرة الموجـودة عنـدهم كـان أقـرب حيـوان من حيث الجثة إلى الإبل التي إعتادوا صرف الدية منها. فصـار ذبح البقـرة كأنّهـا ديةٌ للقتيـل، لأنـه ظهـر بـه القاتـل فَاخَـذُوا الديـة منـه. وعن الثـالث أن الزيادة في الصـفات حصـلت من زيـادتهم في السـؤال، وإلا فلـو كـانوا يكتفون بقـول موسـى عليـه السـلام وذبحوهـا اوّلاً لكفـاهم ذلـك. وعن الرابـع أنّ إخبـار القتيـل لم يكن من بـاب الشـهادة على جنايـة القاتـل وإثبات الدعوى في المحكمـة الشـرعية، بـل من الخـوارق الإلهيـة فـإذا احيا الله تعالى القتيلَ وأخبر بالقاتل لم يبق شك في جنايته إلا عنـد من أعمى الله بصيرته، علي أن القتيل عندما اخبَر بالقاتل من بني أعمامـه إنهاروا وتغيرت وجوههم خجلا بحيث لم تبق شبهة عند الناس بجنـايتهم، وكان الوضع كإعترافهم

بها.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ مشتق من القسوة، وهي الصلابة والشدة.

وقوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ الخطاب لعصبة القتيل أو لبني إسرائيل قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارة الى إحياء القتيل، أو وإليه وإلى ما قبله م ن الخوارق التي ظهرت على أيدي موسى عليه السلام. وقوله ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ جملة حالية مشعرة بالتعليل لكون تلك القلوب أقسى من الحجارة. وذكر الأقسام على الشكل المذكور لاستيعاب جميع الإنفعالات التي تجري على خلاف طبيعته. يعني أن قلوب أولئك الناس أشدُّ وأقسى من الحجارة؛ فإن منها ما يصير ينبوعاً لنهرٍ جارٍ بالإستمرار، ومنها ما يشقق فيخرج منها الماء القليل، ومنها ما لا يحصل منها ذلك، ولكن يهبط من مستقره. وينحدر إلى حيث شاء الله. وقوله ﴿مِنْ خَشْيَةِ﴾ أي من إنقياده لأمر الله، فهو مجاز. ومنهم من قال إنها حقيقة، وللحجارة كسائر الممكنات قوة ذاتية تربطها بربّها. وعلى ذلك قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (اسراء) وقال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ) وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)﴾ (تغابن).

وفي الصحيح ((إني لأعرف حجراً كان يسلّم عَلَيَّ قبلَ أن أُبْعثَ)) وأنه صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه ما مرّ بحجر ومدر إلا سلّم عليه. وورد في الحجر الأسود أنه يَشهد لمن إستلمه. وقوله:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيـدٌ وتهديـد للعصـاة القسـاة وأن اللـه تعالى لهم بالمرصاد.

وحاصل التفسير: ثم صارت قلوبكم أيّتهـا العصـبة، أو يـا بـني إسـرائيل من بعد ذلك الخارق العظيم، وهو إحياء القتيـل أو بعـد تلـك المعجـزات التي ظهرت من موسى عليه السلام قاسيةً صلبة الحال لا تقبل الوعظ والإرشاد، ولا تفكر في آثار قـدرة رب العبـاد، فهي كالحجـارة بـل أشـد منها؛ لأن منها ما يصدر منه المنفعة العظيمة كالنهر الجاري، أو ما دون ذلك من المياه القليلة أو لا ينبع منـه المـاء، ولكن ينقـاد للأمـر ويتحـول من المقر الى حيث شاء. وكل ذلك إطاعـة للـه وخشـية منـه، فعيشـوا أيها الإسرائيليون كما تشاؤون، وما الله بغافل عما تعملون.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْـمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)﴾

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ للرسول صلى الله عليه وسـلم والجمـع للتشـريف أو لـه وللمؤمـنين وقولـه ﴿أَنْ يُؤْمِنُـوا لَكُمْ﴾ أي بنـوا إسرائيل الموجودون في عهده صلى الله عليه وسلم وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ جملـة حاليـة، وقولـه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بـني إسـرائيل السـابقين. وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي الكتاب الجامع لأسفار الأنبياء من بـني إسرائيل المشهور بالتوراة. وفيه الأحكام الدينية أصولاً وفروعاً. وقولـه: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي يبدّلونه بعبارات أخرى أو يؤوّلونها على معاني أخـرى توافق هواهم. وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُـوهُ﴾ أي بعـدما افتهمـوه. وقولـه تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فيه توبيخ آخـر من أنـه يخالفونـه مـع العلم به، ولو كانوا يخالفونه للجهل به كان لهم معذرة ما، ولكن لا عذر مع

العلم قطعاً. ويظهر هنا أن التحريف قد يكون مع العلم وقـد يكـون مـع الجهل، وأن هـذه الفظيعـة ليسـت منحصـرة في علمـاء بـني إسـرائيل فحسب بـل تجـري على مـرّ الأيـام. وفي عـالم الإسـلام الجليـل أنـاس ينحرفون عن الحق بتأويلات زائفة، ويلقون الشبه إلى الناس شبهاً أشد وأفظع من شبهات الوسواس الخناس. وذلـك إمـا لطمـع في المـال أو الجاه أو لإعتبارات كاسدة.

ومنهم من يدعي معرفة الفقه في الأحكام، ولم يدرسه ولم يتبصر فيه، ولا يطالعه، ولا يستفسر من العلماء الذين فوق درجته وذلك للإستكبار. ومنهم من يدعي أنه يعمـل بالكتـاب والسـنة وهـو بعيـد من معرفتهمـا، وبالخاصة من معرفة الأحاديث الشـريفة؛ لأن كتـاب اللـه متـواتر المتن فلا يحتاج إلى جهد في الاسناد، وأما الأحـاديث الشـريفة فعلمهـا يحتـاج إلى معرفة اللغة والعرف لمعرفة معانيهـا اللغويـة والعرفيـة، وإلى علم النحو للاعراب وتصحيح التركيب، وإلى الصرف لمعرفة الإشتقاق، وإلى البلاغة لمعرفة النكات البلاغيـة واسـتفادة المعـاني الحصـرية، كمـا في قوله صلى الله عليه وسلم ((إنما الأعمال بالنيات)) الحديث هل الحصر فيــه حقيقي أو إضــافي؟ وهــل من قصــر الموصــوف على الصــفة أو بالعكس؟ وهل هو قصر الإفـراد أو القلب أو التعـيين؟ ويحتـاج إلى علم الرواية ومعرفة رجال الإسناد من الصحة والحسن والضـعف، وإلى علم الدراية بمدلولها هل هو خاص وعام مخصوص أو لا؟ أو مطلق أو مقيد، أو مجمـل أو مـبين، ومحكم أو منسـوخ ولـه معـارض آخـر أو لا؟ ومـع الجهل بكل ذلك يتجاسر على الأئمة الفقهاء، ويدعي أنه مثلهم أو أمثـل منهم!! وكل البيانات في هذه الأحوال يدخل في التحريفات للـدين لأنـه إذا لم يمش على

الحق فماذا بعده إلا الضلال؟ أعاذنا الله من الأحوال الفاسدة التي تبعث الإنسان على الأعمال الفاسدة بمنه ورحمته.

والمقصود من الآية الكريمة: قطع أمل الرسول صلى الله عليه وسلم في إيمان بني إسرائيل به وبدين الإسلام، وخلاصته: أن قوماً في وقاحة الطبع كبني إسرائيل يسمعون كلام الله تعالى النازل على موسى وغيره، ثم يحّرفونه ويبدلّونه أو يؤوّلونه على ما تَهْوى أنفُسُهم ويسمعون في اَصْحاح ذلك الكتاب نُعوتَ محمد صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ رسالِته، ونعوتَ أصحابه ثم يؤوّلونها بما لا يوافق الواقع ولا يستحيون من الله تعالى في هذه التصرفات الفاسدة وهم يَعْلمون أنَّ ذلك خلاف الحق! كيف تطمع في إيمانهم والإنقياد لك ولدينك؟ فاعلم أنهم براء منك وأنت براء منهم الى يوم الدين.

وفي الحقيقة إن في القرآن الكريم آيات صريحة في أن بني إسرائيل كانوا يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله في آخر الزمان إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وأنهم كانوا يستفتحون بمبعثه على مشركي العرب، وأنه إذا جاء يدمغهم فيندحرون، وفي الأصحاح بشارات الأنبياء بقدوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك كُلِّه لما جاء عهده، وبعثه الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً عانَدُوا وخالَفوا وتَحالَفُوا بينهم في أن يُطفؤا نورَ الله بأفواههم، وعَمِلوا ما كان في طاقاتهم في المعارضة والمقابلة، ومع ذلك ردّهم الله على أعقابهم خائبين، ونصر عبده محمداً صلى الله عليه وسلم ونشر كتابه ودينه في ربوع العالم كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)﴾ وكما قال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)﴾.

ومن جملة ما نزل في كتاب العهد السابق وترجم إلى العربية ما نقل من مزمور داود عليه السلام في زبوره: (وليفرح بالخالق مَن اصطفى الله له أمّته وأعطاه النصرَ، وسدّد الصالحين منهم بالكرامة يسبّحونه علي مضاجعهم، ويكبّرون الله بأصوات مرتفعة.. بأيديهم سيوف ذاتُ شفرتين لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه) انتهى.

ولاشك أن هذه الصفات إنما تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته؛ فهم الذين يكبّرون الله بأصوات مرتفعة في آذانهم للصلوات الخمس، وَعَلى الأماكن العالية كما قال جابر بن عبدالله: ((كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عَلَونا كبَّرنا، وإذا هَبَطْنا سَبَّحْنا فوضعت الصلاة على ذلك)) رواه البخاري.

وما نقل منه عليه السلام أيضاً: (من أجل هذا بارك الله عليكَ إلى الأبد فتقلَّدْ أيها الجبارُ بالسيف؛ لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك) انتهى.

وما نقل منه عليه السلام ايضاً: (إلهنا قدوسٌ، ومحمد قد عَمَّ الأرض كلها فَرَحاً.)

ونقل منه في مزمور آخر: (لترتاح البوادي وقواها، ولتَصِر أرضُ قيدارٍ مُروجاً، وليسبح سكان الكهوف، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرّب، ويُذيعُوا تسابيحه في الجزائر). وفي مزمور آخر: (ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض،

وبَحْرُ اهل الجزائر بين يديه، ويلحس اعْداؤه الترابَ، ويسـجد لـه ملـوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعـة والإنقيـاد، ويخلص البـائس المضـطهد ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمســاكين والضعفاء، ويصلي عليه ويبارك في كل حين.

وفي سـفر شـمعون: (جــاء اللــه بالبينــات من جبــال (فــاران) وامتلأ السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته). إنتهى. وجبال فاران جبال مكة المكرمة.

وقال شعيا: (يا محمد يا قدوسَ الرب، اسمك موجـود إلى الأبـد، وقـال أيضـاً في مقـام الشـهادة لأمـة سـيدنا محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم بالصلاح والديانة:

سَأرفَعُ علماً لأهل الأرض فيصغر لهم من أقصى الأرض فَيأتون سِــراعاً. وقال شعيا في وصف أمـة محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم: (سـتمتلىء البادية والمدن من أولاد قيدار يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون هم الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في الـبر والبحـر). إنتهى. وقيـدار هو ابن اسماعيل بالإتفاق.

ومن طالع كتب الأسفار القديمة وجد من هذه البشارات مالا يدع مجالا للشك في أن الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام أخـذ منهم العهـد من الله تعالى لتوصية قومهم بالرسول محمـد وأنـه إذا جـاء في زمـان أي طبقـة منهم يؤمنـون بـه وينصـرونه، وكلهم قـد وفَّى بـذلك الميثـاق ووصّى لأمته بما عاهده اللـه تعـالى عليـه، ولكن اللـه تعـالى أعلن أنهم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة. ومن كـان بتلـك الصـفة لا يرجى منه الصفاء والوفاء بالعهود، فقد جفّت الصحف ورفعت الأقلام.

﴿وَإِذَا لَقُــوا الَّذِينَ آَمَنُــوا قَــالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُــهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَــالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أي المنافقون من بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ آَمَنُـوا﴾ ولهم مقـام ومنزلة في الدين ﴿قَالُوا آَمَنَّا﴾: بأن دينكم حق، ومحمد صلى الله عليــه وسلم هو الموصوف في التـوراة، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَـالُوا﴾: أي المتصلبون على دينهم ممن لا ينافقون مسـتنكرين على المنـافقين: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ أي المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وبين لكم في التــوراة من نعوت محمد وأمته ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ أي بمـا حَـدّثتم بـه مَعَهُم ﴿عِنْـدَ رَبِّكُمْ﴾ أي عنـد ذكـر دين ربكم وبيـان رسـالة الرسـول فيقولـون: أنتم أقررتم عندنا أن دين الإسلام حق ومحمّد هو المنعوت في الكتاب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ غلبة المؤمنين عليكم بما حدثتم به معهم؟

﴿أَوَلَا يَعْلَمُـونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ مـا يُسِـرّونَ بينهم من المعـاداة والمعانـدة للمؤمنين واستنكار بعضهم لبعض على ما حدّثوا بـه ﴿وَمَـا يُعْلِنُـونَ﴾ من كلامهم مع المؤمنين نفاقاً فيعاقبهم على نفاقهم وشقاقهم؟

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُــونَ الْكِتَــابَ إِلَّا أَمَــانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)﴾

والأمّيّ: منسوب إلى الأمّ لأنه كما خرج من بطنها، وفي العرف: من لم يتعلم الكتابة، وَالأمانيّ جمع اُمْنيّة وأصلها أُمنُويَـة بضـم الهمـزة والنـون على وزن اُضْـحُوكَة، قلبت الـواو يـاء وأدغمت فيهـا وكُسِـرَ مـا قبلهـا للمناسبة. وهي في الأصل ما يقدره الإنسـان في نفسـه. ولهـا تفاسـير منهـا: الأكـاذيب، ومنهـا الشـهوات، ومنهـا القـراءة. وقولـه تعـالى: ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي إلا أنهم يظنون ظنّا، وَلَيْسَ لهم علم بالحقائق.

يعني: ومِن بني إسرائيلَ جمع هم أميِّون لم يتعلّموا الكتابة وليسـوا من أهل الدراسة ولا يعلمون الكتاب المعهـود بينهم وهـو التـوراة إلا قـراءة عاريـة عن العلم والفهم، ومـا هم إلا يظنـون أنهم على النجـاح من أمرهم، ولا علم لهم به، ولا يعلمون أنهم على الرّسوب.

ثم ذكر سـيئة أخـرى من سـيآتهم، وأظهـر أن من دأب بعض منهم أنهم يحرفـون التـوراة فيؤوّلونهـا حَسَـبَ أهـوائِهم، وينشـرونها بينَ النـاس للإضلال وإبعادهم عن الإيمان بدين الإسلام، ويأخـذون في مقابـل ذلـك مالاً من الذين يوجهونهم إلى ذلك، أو من عامتهم الجَهَلة الـذين يُحبّـون ان يَبْقـوا على مـا كـانوا عليـه، فويـل للـذين يكتبـون الكتـاب بأيـديهم وباختراعهم وإبتداعهم ما يشتهون ويقولون للعامـة: هـذا المكتـوب من عند اللـه وبَيـان لمعـنى التـوراة فـاعملوا بـه وذلـك لا لمصـلحة النـاس وإرشادهم لأنه لا إرشاد بالباطل، بل ليشـتروا بـه ثمنـاً قليلاً، فويـل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسـبون من هـذا الحطـام الزائل.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْـدَ اللَّهِ عَهْـدًا فَلَنْ يُخْلِـفَ اللَّهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ مَـا لَا تَعْلَمُـونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (81) وَالَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ (82)﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل. وقوله: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ أي نـار جهنم. وقوله ﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ روي أنهم قالوا: لا نعذب إلا بعـدد أيـام عبادة العجل وهي أربعون يوماً باعتبار غياب موسى عليه السـلام عنهم إلى رجوعه إليهم. وإن لم يعبـدوها في جميعهـا بـل في أقـل من ذلـك. ورُوي غـير ذلـك من اَهْـوائهم. وقولـه: ﴿فَلَنْ يُخْلِـفَ اللَّهُ عَهْـدَهُ﴾ جـزاء شـرط مقـدر، أي: إن كنتم إتخـذتم عهـداً من عنـده فلكم ذلـك إذ لن يخلف الله وعده. ومن الناس مَنْ لا يُقدِّر محذوفاً ويجعـل الفـاء سـببية ليكون إتخاذ العهد مترتبـا عليـه عـدم إخلاف اللـه تعـالى عهـده ويكـون المُنكَر حينئذ المجموع من ما قبل الفاء وما بعده، والإسـتفهامَ إنكاريـةً. وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ كلمة أم إما متصلة للمعادلة بين شيئين بمعني اي واحدٍ من هذين الشيئين واقع: إتخاذكم العهد من الله تعالى؟ أم قولكم عليه مالا تعلمون؟ وخـرّج ذلـك مخـرج المـتردد في تعيينـه على سـبيل التقرير لأولئك المخاطبين لِعلم المستفهِم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بوقوع أحدهما.

وهـو قـولهم بمـا لا يعلمـون على التعـيين. فلا يكـون الإسـتفهام على حقيقته.

وهذا بناء على أنه تقع الجملة بعـد أم المتصـلة لأن التسـوية قـد تكـون بين جملتين فيكون طرفاها حكمين، كمـا صـرّح بـه ابن الحـاجب. وإمـا منقطعـة بمعـني بـل، والتقـدير: بـل أتقولـون على اللـه مـالا تعلمـون؟ ومعنى بل فيها

الإضـراب والإنتقـال من التـوبيخ بالإنكـار على الإتخـاذ إلى التـوبيخ علي القول على الله مالا يعلمون.

وقوله: ﴿بَلَى﴾ إثبات لما نَفَوه من مساس النار يعـني: ليس الأمـر كمـا تزعمون، بل تمسكم وغيركم من أمثالكم بلا حدود لأن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته من كل جانب كلباسٍ مستوعب للبـدن من الـرأس إلى القـدم. وهـذا لا يكـون إلا لمن لم يبـقَ عنـده الإيمـان فاسـتحب العصيان فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. وأنتم أيها الإسـرائيليون الموجودون في المدينة، علاوة على معاصـيكم، فقـد كفـرتم بالرسـول محمد صلى الله عليه وسلم فلا تخرجكم الشُّـبهُ الواهيـة عن إسـتحقاق الدّخول في الهاوية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية جـار على سـنة البـاري في إرشـاده الجاري من شفع آيات الوعيد بآيات الوعد المجيد. وأصحاب جنـة النعيم مع أصحاب عذاب الجحيم، وذكرُ العمل الصالح بعـد الإيمـان دليـل على أن العمــل ليس داخلاً في حقيقتــه. وذكــرهم بعنــوان أصــحاب الجنــة وتأكيده بتأكيد الخلود دليل على نفـاذ حكم القـادر العليم على خلـودهم في جنة النعيم. رزقنا الله ذلك بفضلِهِ العظيم.

وحاصل التفسير: أنه قال الإسرائيليون في مقام الغرور وعدم الإعتنـاء بآيات العذاب: لن تمسـنا النـارُ إلا اياما قلائـل معـدودات لا تتجـاوز عن أربعين يوماً! فرد الله تعالى عليهم بأمره بحبيبه محمد صلى اللـه عليـه وسلم قل يا حبيبي لأولئك المغرورين: أكان بينكم وبين اللـه عهـد على ذلك حتى تزعموا بأن الله لن يخلف وعده وعهده؟ أم تقولون على الله مالا علم لكم به؟ كلا ثم كلا! ليس الأمـر كـذلك، بـل أنتم أهـل العـذاب الخالد. مـا دمتم على هـذه الحالـة: أن من كسـب سـيئة واسـتمر على اكتسابها

حتى أحاطت به خطيئاته من كل جانب فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، وأنتم فضلا عن الخطايا كفرتم بسيد البرايا فلم يبق لكم مجال إلا جهنم والخلود فيها، وكل من كان على هذا الحال فله هذا المآل. والذين آمنوا بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم منكم أو من غيركم وعملوا الصالحات بأداء الواجبات وترك المحرّمات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ شروع في ذكر بعض من سيئات أعمال اليهود، وهذا الميثاق هو الذي أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم، عليهم السلام.

وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ أخبار في معنى الإنشاء أي نفي في معنى النهي ويؤيده قراءة لا تعبدوا بحذف النون، وذلك أقوى في الإفادة البلاغية من صريح الإنشاء؛ لأن معنى الإخبار أن المخبر به وقع، وما دام المتكلم أخبر بذلك فالمخاطب لا يحب أن يكذب المخبر ويأتي بما أخبر به.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ متعلق بعامل مقدر فإذا إنتهجت صورة الخبر السابق فقدر وتحسنون أو معنى الإنشاء فقدر وَاحْسِنوا. وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم كندامي ونديم، وقوله: ﴿مسكين﴾ صيغة مبالغة كالمعطير بمعني كثير السكون؛ فالمسكين ساكن من قلة المال وضعف الحال.

وقوله: ﴿حُسْنًا﴾ مصدر بمعنى الصفة. أو يبقى على المصدرية للمبالغة.
وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المراد بهما ما كانا في شريعتهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لتوجيه العتاب.

أي أعرضتم عن الميثاق. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو السابق المستقيم أو اللاحق الآتي بقلب سليم. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي وأنتم من عادتكم الإعراض.

وحاصل التفسير: واذكر اخْذَنا الميثاقَ من بني إسرائيل وقولنا لهم: لا تعبدوا إلا الله واحسنوا بالوالدين إحسانا يليق بكرامة الإنسان. وأحسنوا بأصحاب القرابة معكم صلة للأرحام. وأحسنوا باليتامى والمساكين وقولوا للناس في الأمر والنهي والقبول والردّ كلاماً حكيماً حَسَناً وأقيموا صَلاتَكم كما اُمر بها وأعطوا زكاة أموالكم للمستحقين فإنهم كعيالكم، ثم بعد هذه النصائح المفيدة أعرضتم عن قبولها والعمل بها، ولا بدع لأنكم قوم شأنكم الإعراض عمّا لا يوافِقُ الأغراض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)﴾.

قوله تعـالى: ﴿لَا تَسْـفِكُونَ﴾ مربـوط بالميثـاق أي أخـذنا منكم الميثـاق على أن لا يتعـــرض بعضـــهم لبعض بالقتـــل والإخـــراج عن الـــوطن والمسـتقر. وعـبر عن ذلـك بـالأنفس مـع أن المقتـول غـير القاتـل، والمخرَجَ (بالفتح) غير المخرِجِ لأن أهل دين واحد في الأحكام كـالنفس الواحدة، أو لأنه لما كان قتل الإنسان لغـيره ينجـر إلى القصـاص وقتـل هذا القاتل فهو إذا قتل غيره فكأنه قتل نفسه وكـذلك الإخـراج. وقولـه ثم أقْـرَرتُمْ أي بالميثـاق خلفـاً عن سَـلَف من جهـة الرسـل المرسـلين إليكم، وقولـه: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ خطـاب للسـلف على الحكايـة. أو للخلـف على الواقـع وشـهادتهم على إقـرار والـدهم، وشـهادته على والـده وهكـذا. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ الناقضون للميثاق. وقوله: ﴿تَقْتُلُـونَ أَنْفُسَـكُمْ﴾ خبر لقوله أنتم. وهؤلاء بدل عنه. والمعنى: وتنقضـون الميثـاق فتقتلـون أنسابكم وأقرانكم الذين هم مثل أنفسـكم، وتخرجـون فريقـاً منهم من ديـارهم، وقولـه: ﴿تَظَـاهَرُونَ﴾ محـذوف التـاء، أي تتظـاهرون عليهم، وتتعـاونون بينكم على قتلهم وإخـراجهم بـدونِ حـقٍّ على الأعيـان. بـل بمحض الإثم والعـدوان. وقولـه: ﴿وَإِنْ يَـأْتُوكُمْ أُسَـارَى﴾ أي أسـارى من أهل دينكم تعطون الفدية لأجل إستخلاصهم من الأسر.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مربوط بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًـا مِنْكُمْ مِنْ دِيَـارِهِمْ﴾ ومـا بينهمـا جملـة معترضـة، وهـو ضـمير الشـأن، والجملة التي بعده خبر له. ولا تحتاج إلى رابـط لأنهـا تفسـيره. وقولـه: ﴿أَفَتُؤْمِنُـونَ بِبَعْضِ﴾ أي ببعض من المقـررات في الميثـاق. وهـو العـون بإعطاء الفدية. وقوله: ﴿وَتَكْفُـرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهـو عـدم إخـراج بعضٍ من الوطن.

روي أن بني قريظة كانوا حلفاء للأوس، وبـني النضـير حُلفـاء للخـزرج، فإذا اقتتل الأوس والخـزرج عـاون كـل فريـق من اليهـود حلفـاءهم في القتـل وتخـريب الـديار، وإخـراجِ أهلهـا منهـا وإذا أُسِـرَ شـخص من أيّ الفريقين جمعوا لـه حـتى يُفـدوه، وقولـه: ﴿خِـزْيٌ﴾ كقتـل بـني قريظـة وسبيهم وإجلاء بني النضير، أو ضرب الجزية عليهم.

وحاصـل التفسـير: واذكـروا إذ أخـذنا الميثـاق منكم على أن لا يقتـل بعضكم بعضا ولا يخرج بعضـكم بعضـا من ديـاره، وأقـررتم عليـه، وأنتم حاضرون على الميثاق وإقراره بحضورهم مع الرسل عليهم السلام. ثم أنتم أنفُسكم تنقضون الميثاق بقتل بعضكم بعضا، ويخرج بعضكم بعضـا من الـديار، وتتعـاونون وتتظـاهرون على قتلهم وإخـراجهم بـدون حـقٍ مشروع، بل بمحض الإثم والعدوان، وكان ذلك القتـلُ والإخـراجُ حرامـاً عليكم، مع أنه إذا أُسِر بعضٌ مِن اهل دينكم ايّاً كان تُعطونَ الفديةَ عنه، وتستخلصونه، فتفرقون بين بنود الميثاق وتؤمنون ببعض منهـا كإعطـاء الفدية واستخلاص الأسرى، وتكفرون ببعض منها ويقتل بعضـكم بعضـا، فما جزاء من يفعل ذلـك إلا الخـزي في الحيـاة الـدنيا، ثم يـوم القيامـة يُرَدونَ إلى اَشَدِّ العذاب وليس ربكم بغافل عن أعمالكم وأولئك النـاس النّاقِضُـونَ للعُهـود والمواثيـق اشـتروا واستحصـلوا عيشَ الحيـاة الـدنيا واتبـاع الهـوى فيهـا بثـواب دار الآخـرة، فلا يخفّـف عنهم العـذاب يـوم القيامة، ولا يقبل شفاعة من أحد لهؤلاء الكافرين ولا فدية ولا بَدَلَ عمـا استحقوه من العذاب، فلا يأتيهم نصرٌ من أي جانب إلى يوم الدين.

﴿وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَـا مِنْ بَعْـدِهِ بِالرُّسُـلِ وَآَتَيْنَـا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَـا جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ بِمَـا لَا تَهْـوَى أَنْفُسُكُمُ اسْـتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًـا كَـذَّبْتُمْ وَفَرِيقًـا تَقْتُلُـونَ (87) وَقَـالُوا قُلُوبُنَـا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُـلِ﴾ يقـال: قفّى بتشـديد الموحـدة من باب التفعيل، ومعنى قفاه به: أتبعه به. ومعنى الجملة جئنا من بعـد موسى بالرسل مقتفين أثره ومتبعين شريعته وُحْدانا وجَماعات.

قالوا: كان بين موسى وعيسى عليهما السلام أربعة آلاف نبيّ.

وقوله: ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات الواضـحات أو المعجـزات الـتي تشـهد كل منها على صدقه في دعوى رسالته من الله تعـالى كإحيـاء المـوتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالمغيبات بإعلام الله تعالى له بها، إلى غير ذلك. وقوله: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ الروح: جبريل عليه السلام، والقدس: بمعنى المقدسة، وإضافة الروح إليه من إضافة الموصـوف الى الصـفة لمزيد الإختصاص. لأن مِن شأن الصفة النسـبة إلى الموصـوف كقولـك جودُ حاتم، فإذا عكس، وأضيف الموصوف إلى الصّفة أفاد قـوة الصـفة فيه. فكأنها أصل والموصوف فرع، وقولـه: ﴿فَفَرِيقًـا كَـذَّبْتُمْ﴾ كموسـى وعيسي. وقوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى. وقوله: ﴿غُلْفٌ﴾ بضم الغين وسكون اللام جمع أغلف بمعنى المسـتور بـالغلاف. أي لا يـدخلها مـا يلقى إليهـا. والمقصـود إنـا لا نفقـه ولا نفتهم مـا تقرأونـه علينـا، ولا نستمع لكتابك وخطابك. وقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ رد لمقالهم ومـــرادهم أي ليس الأمر كـذلك بـل شَـيْطَنَةٌ هنالـك. فـإنَ قلـوبكم مكشـوفة وهي باقية على الفطـرة. ومتمكّنـة من سـماع الكتـاب والخطـاب وفهمهمـا. ولكن لما أَصْرَرْتم على مُعاندة الرسل، وقطعتم عليهم السـبلَ خَـذَلَكم اللـه وانتقم منكم وطَـرَدَكم من بـاب رحمتـه. فلم تَبـق لكم إلا ألسـنة حِدادٌ،

وكلمات شِداد، فدخلتم في القوم الخاسرين والله بصير بالعباد والمتجاسرين.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)﴾

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي القرآن الكريم. قوله ﴿لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة وسائر الكتب السماوية. وقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يعني وكانوا على ما أخذوه من كتبهم يستنصرون بقدوم محمد صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا من المشركين. ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة، أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث إليهم وهو منهم وزمانه قريب. فلما جاءهم ما عرفوه كفروا به فلعنة الله على الكافرين.

وقوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ﴾ بئس فعل من أفعال الذم، فاعله مستتر فيه، وكلمة ما نكرة بمعني شيء مميز له، واشتروا به صفة لها، والمخصوص بالذم أن يكفروا، وهو في تأويل المصدر. أي بئس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم كفرُهم بما أنزل الله تعالى. فإذا كان إشترى على معناه المتعارف فمعنى الآية أنهم على زعمهم إشتروا أنفُسَهم وَخلَّصوها مِن عذاب الآخرةِ بكفرهم بما أنزل الله، فكفرهم هو النقد الذي اشتروا

به أنفسهم. وإن كان بمعني باعوا فمعناهـا: أنهم بـاعوا أنفسـهم بمتـاع نفيس عندهم، وهو بقاؤهم على دينهم التقليدي وكفرهم بما أنـزل اللـه على محمد وهو القرآن الكريم.

وقولـه: ﴿بَغْيًا﴾ مفعـول لـه حصـولي يعـني أن علـة إشـترائهم أنفسـهم حصول البغي والحسد بالرسول على أن نزل الله عليه من فضله كتابـه الكريم. وذلك من جهلهم بالحقائق، فإن الله أعلم حيث يجعل رســالته. وقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَـبٍ﴾ الغضـب الأول بكفـرهم بمـا أنزل الله، والثاني بحسدهم على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وحاصل التفسير: ولما جاءهم، أي بني إسـرائيل، كتـاب مـنزل من عنـد الله مصدق ما معهم من الكتاب والأسفار السابقة كـالتوراة ومـا معهـا، والحال أنهم كانوا على علم بنزوله وقـدوم الرسـول الـذي أُنـزل عليـه، وكانوا من قبل قدوم الرسول يستفتحون بقدومه على المشركين فبدلاً عن ان يصدقوه وينشروه كفروا بـه فلعنـة اللـه على الكـافرين. فـبئس شيئاً إشتروا به أنفسهم كفرهم بما أنزل الله تعـالى على حبيبـه محمـد صلى الله عليه وسلم عدواناً وحسداً مِنهم أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده، وهو هنا محمد صلى الله عليه وسلم فحصلوا على عاقبة سيئة وخيمة، وهي غضب نزل من الله تعالى عليهم بكفرهم بمــا أنزل الله على محمد وذلك الغضب مـترتب على غضـب أساسـي نـازل بسبب شيء فاسد وهو حَسَدهم على الرسول من جهـة نـزول القـرآن الكريم عليه، فدخلوا في سجل الكافرين، وللكافرين في الآخرة عـذاب شديد مهين لهم ومحقِّر وذلك أفظع العذابِ. أعاذنا الله تعالى منه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَـا وَيَكْفُـرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَـدِّقًا لِمَـا مَعَهُمْ قُـلْ فَلِمَ تَقْتُلُـونَ أَنْبِيَـاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (91) وَلَقَـدْ جَـاءَكُمْ مُوسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ ثُمَّ اتَّخَـذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَـا فَـوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْـرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (93)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿آَمِنُوا بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ﴾ على الرسـل لإرشاد الأنـام إلى أقـوم السـبل سـواء الكتب السـابقة واللّاحقـة حـتى تأخذوا ثواب الإيمان بالكل ﴿قَـالُوا نُـؤْمِنُ بِمَـا أُنْـزِلَ عَلَيْنَا﴾ سـابقاً وهـو التوراة فهو كتابنا إلى الأبد ولا نعرف كتاب عيسى ولا محمد. ويكفُـرون بما وراءه أي ما عدا ذلـك الكتـاب ايّـاً كـان، وهـو الحـقُّ، والضـميرُ لمـا وراءَهُ والمراد به القرآن، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة لجملـة وهـو الحق لأن كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً، فالتصديق لازم لا ينتقـل. ﴿قُـلْ فَلِمَ تَقْتُلُـونَ أَنْبِيَـاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ الفـاء جـواب شرط مقدر أي إن كنتم آمنتم بالتوراة فلم كنتم تقتلون أنبيـاء اللـه من قبل هذا العصر مع أن التوراة لا تسوّغه، وما في قوله فلم إسـتفهامية، حذف اَلِفها على ما تقرر في محلّـه. والقتـل، وإن كـان صـفة أسـلافهم لكن الجناية الواقعة في القـوم تنسـب إلى الكـل بـالتغليب، لاسـيما إذا رضي الخلف بما فعله السلف. وكانوا في صدد الإقتداء بهم في ذلك لو تيسّـر لهم. وذلـك إعـتراض عليهم في دعـوى الإيمـان بـالتوراة بصـورة المعارضة، وتقريرها ظاهر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ﴾ يعـني الآيـات التسـع وهي: الطوفـان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، وتفجير الماء من الحجر. أو المراد بها الدلائل الدالة على الوحدانية للـه تعالى. ثم اتخذتم العجل اِلهاً لكم مِن بعده أي بعـد ذهابـه إلى الميقـات وأنتم ظـالمون في اتخـاذه إلهـاً، أو أنتم قــوم شـيمتكم الظلم لــو لم يمنعكم مانع قوي. وهذه الآية إعتراض ثان على دعوى إيمانهم بـالتوراة فإنها جاءت لتقرير التوحيد فلو كنتم مؤمنين بها ما اتخذتموه إلهاً.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ لإظهـار القـدرة، وقلنـا لكم: خذوا ما آتيناكم بقـوة واسـمعوا، أي خـذوا مـا آتينـاكم من التـوراة بجـدٍّ واسمعوا سماع طاعة على العمل بها وجـدٍّ ونشـاط. قـالوا في جوابنـا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي أخذناه أخذ سماع في الصورة، ولكن عصيناك في العمل بها وليس فينا رغبـة ونشـاط فيـه. وأُشِـربُوا في قلـوبهم العجـلَ بكفرهم وذلك لأنـه اُشِـربَ قلـوبَهم حبُّ عبـادة العجـل بسـبب كفـرهم الراسخ بالإلهيات ورغبتهم الثابتـة في الماديـات. قـل يـا محمـد: بئسـما يأمركم به إيمانكم بـالتوراة من سـماعكم لهـا صـورة وانزجـاركم عنهـا طبعاً وسيرة إن كنتم مؤمنين. تقرير للقـدح والمعـنى إن كنتم مؤمـنين بالتوراة ما كانت تأمركم بهذه القبائح.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآَخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَـةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِـدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَـاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَـذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)﴾

والآية نزلت فيما حكاه ابن الجوزي عندما قالت اليهود إن الله تعالى لم يخلق الجنة إلّا لإسرائيل وبنيه، فردّ الله سبحانه وتعالى دعـواهم بقولـه قل يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة أي الجنة عند اللـه خالصـة كمـا تقولون لن يدخل الجنة إلّا من كـان هُـوداً من دونِ النـاس الآخـرين مِن النصـارى والمسـلمين فتمنـوا المـوت ان كنتم صـادقين في أن الجنـة خالصة لكم لأنّ مَنْ اَيقَنَ أنه من أهل الجنة عَرف ما فيهـا ممّـا تشـتهيه الأنفس وتَلَذ الأعْيَن فاختار سِـرعةَ الإنتقـال إليهـا، وَلَن يتمنَّوه أبـداً بمـا قَـدّمَتْ ايـديهم من المعاصـي الموجبـة لاسـتحقاق النـار وقـد سَـمِعُوا وعَلموا أنّ العاصي يسـتحقها فكـانت دعـواهم خلـوصَ الجنـة لهم كـذباً وغروراً، واللهُ عليم بالظالمين بارتكاب المعاصي المدعين مـا ليس لهم بحقٍّ.

ولتجدنّهم يا حبيبي أحْرَصَ الناسِ أي جنسه أو المراد جمع معهود بمزيد الحرص على حياةٍ وأحْـرَصَ مِنَ الـذين أشْـركوا من العـرب المتهـالكين على البقاء أو من المجوس القائلين بالهين: النّور، والظّلمة. يَوَدّ اَحَدُهم أي الإسرائيليين لَـو يُعَمَّر ألْـفَ سَـنةٍ وجـوابُ لـو محـذوف على قواعـد البصريين. وأما الكوفيون فيقولون: إن لو مصدرية بمعنى أنه فلا يحتـاج إلى الجواب وتقديره: لسرّ قلبه بذلك. وما هو أي كونه معمراً الفَ سنة بمزحزِحه أي بمُبَعّدِه من العذاب. أن يعمّر بدل من إسم ما. والله بصيرٌ بما يَعملون فهو مجازيهم لا محالة.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِـإِذْنِ اللَّهِ مُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ وَهُـدًى وَبُشْـرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ (97) مَنْ كَـانَ عَـدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِـهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98)﴾

العدو للشـخص ضـد الصـديق، يسـتوي فيـه المـذكر والمـؤنث والتثنيـة والجمع، وقد يؤنث ويثنى ويجمع. وهو الذي يريد إنزال المضارِّ به. وهذا المعـنى لا يصـح إلّا فينـا دونـه تعـالى؛ فعـداوة اللـه هنـا مجـاز إمّـا عن مخالفته تعالى وعدم القيام بطاعتـه، وإمـا عن عـداوة أوليائـه. وقولـه: جبريـل على وزن قنـديل. وفيـه ثلاث عشـرة لغـة. وميكـال على وزن ميعاد، وفيه لغات أخرى أشهرها ميكائيل بالهمزة والياء بعدها. وجبريـل علمُ مَلك كان ينزل على رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم بـالقرآن، وهو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعجمة والعلميـة، وميكائيـل علم ملك مأمور بالخصب والأرزاق، كما أن عزرائيل علم ملك مـأمور بقبض الأرواح، وإسرافيل علم ملـك مـأمور بـالنفخ في الصـور مـرتين: الأولى لموت ذوي الأرواح ونسـف الجبـال. والثانيـة للبعث وإعـادة الأرواح إلى أصـحابها. وهم من الملائكـة المقـرّبين. وتلـك الأسـامي ممنوعـة من الصرف لما قلنا.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِـكَ﴾ في مقـام جـواب الشـرط. ومعنـاه من كان عـدوّاً لجبريـل فقـد خـرج عن الإنصـاف ولا وجـه لعداوتـه لـه، بـل الواجب عليه محبته لأنّه، قد نزّلَ القرآن على قلبك بإذن الله. والقـرآن منبع البركة والرحمة للعالمين. وقوله: مصدقاً، وهدى، وبشـرى. أحـوال من مفعول نزلـه العائـد إلى القـرآن. وقولـه وجبريـل وميكـال ذكرهمـا للتخصيص بعد التعميم إظهاراً لكرامتهمـا وفضـلهما، وكأنهمـا من جنس آخر.

ذكرنـا ان عـداوة اللـه بمخالفتـه أو مخالفـة أوليائـه، ونـذكر أن عـداوة الرسل على معناها، وعداوة الملائكة بمخالفة ماجاؤا به.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ جواب الشرط نيابةً والتقدير من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو لـه. لأنـه كـافر والله عدوّ للكافرين. وسبب نزول الآيتين: أنه دخل عمر رضي الله عنه مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يُطْلِعُ محمداً على أسـرارنا، وإنـه صـاحبُ كـل خسـفٍ وعـذاب. وميكائيـلُ صـاحبُ الخصب والسلام. فقال: ما منزلتهما من الله تعالى؟ قالوا: جبريـلُ عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وبينهما عداوة. فقال: لئن كانا كما تقولـون فليسا بعدوّين، وَمَنْ كـان عـدوّاً لأحـدهما فهـو عـدوّ اللـه ثم رَجَـع عُمَـر فوجد جبريلَ قد سبقه بالوحي. فقال صلى الله عليه وسلم: لقد وافقكَ ربُّك يا عمر. قال عمر: لقد رَأيتُني بَعْدَ ذلك اَصْلَبَ من الحجر.

وحاصل التفسير: قل يا محمد: من كان عـدواً لجبريـل فلا إنصـاف لـه؛ لأن جبريل نَزَّلَ على قلبك القرآن بإذن اللـه تعـالى حـال كـون القـرآن مُصَـدّقاً لمـا بين يديـه من الكتب السـماوية، وهُـدىً للمهتـدين وبُشـرى للمؤمنين.

وليست العاقبة السيئة والخروج عن الحق لعداوة جبريل فقط، بل كـل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فالله تعالى عدوّ له؛ لأنه كافر واللهُ تعالى عدو للكافرين.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية.. نزلت بسبب إبن صوريا كما روي عن إن عباس رضي الله عنهما حين قال لرسول الله: ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آيات فنتبعك! وهو معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة.

وقوله تعالى: ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ معناه هنا المتمردون في الكفر، الخارجون عن الحدود. وقوله تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ نزلت في مالك بن الصيف قال: والله ما أُخِذَ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد، ولا ميثاقٌ.

والهمزة للإستفهام الإنكاري. وكلما ظرف منصوب بجوابه وهو نبذ، والواو للعطف على محذوف، أي أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا؟ الآية. وقوله: نبذه أي نقضه وترك العملَ به. وقوله: فريق هم اليهود الذين كانوا في عهده صلى الله عليه وسلم، وقوله: الكتاب أي التوراة. وقوله: كأنهم لا يعلمون أي نبذوه مشبّهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله تعالى، أو لا يعلمه أصلاً، أو لا يعلمونه على وجه الإتقان، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

وحاصل التفسير: لا شبهة في أنا أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات أو شاهدات باعجازها على نبوتك ورسالتك، ولا يكفر بها إلا الفاسقون الخارجون عن الحدود. أو كفروا بها وكلما عاهدوا مع الله على تصديق رسالتك عهداً أكيداً نقضه فريق منهم؟ ولا تتصور أن الفريق قليل منهم

بل كثير بل اكثر، فإن أكـثرهم لا يؤمنـون بوجـوب الوفـاء بـالعهود، أو لا يؤمنون بالله حتى يفـوا بهـا. وهـذا النبـذ والنقض عـادتهم شـابوا عليهـا فَشَبّوا عليها. فلذلك لمّا جـاءهم رسـول من عنـد اللـه مصـدّق للكتـاب الذي هو معهم وفيه نعوتك وصدق رسالتك نَبَـذَ فريـق منهم كتـاب اللـه الذي معهم وهو التوراة وراء ظهورهم أي أهملوه ولم يعملوا بـه كـأنهم لا يعلمون شيئا منه وهم من الجاهلين.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَـا كَفَـرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّـحْرَ وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِـلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُـرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَـدٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُـونَ مَـا يَضُـرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَـدْ عَلِمُـوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْـرٌ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ (103)﴾

قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عطف على مجموع ما قبله عطف القصة على القصة.

والضمير لليهود الموجودين في عصر الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم، أو لمن تقـدمهم، أو للمجمـوع الموجـودين في عهـد سـليمان وبعـده. وقولـه: الشـياطين أي شـياطين الجن أو الإنس أو القبيلـتين، لأن علم السحر وفن إضرار الناس بـدقائق الحيـل كـانت من لـدن فجـر التـاريخ واستمر ويستمر

مادام البشر على الصاهرة. وكـل ذلـك لأجـل نيـل حُطـام الـدنيا الدنيـة والشهوات النفسـية. ولكن لمـا طغى المـال والجـاه في عهـد سـليمان عليه السلام، ولم يتيسر ذلـك لكـل إنسـان بـالطريق المشـروع جـدّدوا فنون السـحر ونشـروها بين النـاس، وكـان للإنس والجن منهـا نصـيب. واليهود المنافقون في عهد سـليمان عليـه السـلام كـانوا ينسـبون إليـه معرفـة فن السـحر وينسـبون مـا يظهـر على يديـه إلى السـحر لا إلى الخوارق الكونية التي خصّه اللـه تعـالى بهـا. كمـا أن المشركين نسـبوا الآيات القرآنية التي عجـزتهم عن المعارضـة إلى كونهـا سـحراً مـأخوذا من السابقين. وهذا دأب العاجز عن نيل ما ناله معاصـره من الخـوارق والبوارق التي بهرت العالمين.

وكل ما ينسب إلى سيدنا سـليمان في هـذا البـاب ممـا لا يليـق بمقـام الرسل الكرام، فهـو من اختلافـات اليهـود اللئـام، حـتى إذا روي شـيء يوهم شيئاً من ذلك وجب تحقيقه؛ فـإن من كـان من زمـرة المرسـلين الأخيـار بـرئ من كـل وجـه عمـا ينسـبه إليـه الفسـاق الأشـرار، وليكن المسلم العاقل على بصيرة والله يهدي إلى سواء السبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ جملة معترضـة لتنزيـه سـاحة سـيدنا سليمان عليه السلام عن أوساخ أوهام اليهود، فإنه كما روى ابن جريـر عن شهر بن حوشب قال: قال اليهود: انظروا إلى محمـد يخلـط الحـق بالباطل؛ يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الـريح. فقـال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي ما كان مزاولاً لعمـل السـحر الـذي كـان كفراً بالوجه المعمول إذ ذاك. ولكن الشياطين من الجن والإنس كفروا بعمله والعَمَل به.

وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ حال من فاعل كفروا. وقيل: بـدل من الجملة. وقيل: استيناف لبيان شئونهم. أي كانوا يعلّمون النَّاس

السحر المعهود بينهم، وخاصّةً ما اُنزل منه على الملكين ببابـل هـاروت وماروت فإنه كان من أرْقى فنونه وأدَقّ طُرقِهِ.

وقوله: السحر في الأصل مصـدر سـحر يسـحر بفتح العين إذ أبـدى مـا يدق ويخفى ويستعمل بما لطف وخفي سـببه. والمـراد بـه أمـر غـريب يشـبه الخـارق وليس بـه إذ يجـري فيـه التعلم ويسـتعان في تحصـيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح: قولاً كالرقى الـتي فيهـا ألفـاظ الشرك ومـدح الشـيطان وتسـخيره، أو عملاً كعبـادة الكـواكب والـتزام الجناية وسائر الفسوق، أو اعتقاداً كاستحسان مـا يـوجب التقـرب إليـه ومحبته إياه وذلك لا يستتبّ إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس؛ فإن التناسب شـرط التعـاون والتضـامّ. فكمـا أن الملائكـة لا تعـاون إلا أخيـار النـاس المشـبهين بهم في المواظبـة على العبـادة والتقـرب إلى اللـه تعـالى بـالقول والفعـل كـذلك الشـياطين لا تعـاون إلا الأشـرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قـولاً وفعلاً واعتقـاداً. وبهـذا يتمـيز الساحر من النبي والولي. فلا يرد مـا قـال المعتزلـة: من أنـه لـو أمكن للإنسـان من جهـة الشـيطان ظهـور الخـوارق والإخبـار عن المغيبـات لاشتبه طريق النبوة بطريق السّحر انتهى. وذلك لأن السـحر لا يتحقـق إلا بطريق الإكتساب الخاص المبـني على التقـرب إلى الشـيطان قـولاً وفعلاً واعتقاداً. وأما المعجزة فليست كسبية وإنما هي موهوبة من الله تعالى. وكرامة الأولياء إن كـانت موهوبـة بـأن ظهـرت على يـد إنسـان مسلم ملتزم للآداب فلا كلام فيها. وإن كانت مكسـوبة أي مترتبـة على الخلـوة والرياضـات النفسـية والسـهر والجـوع ودوام الأذكـار والنوافـل فهي مترتبة على أمور يتقرب بها إلى الله تعـالى بـالتزام الشـرع قـولاً وفعلاً واعتقـاداً. وأصـحابُها أصـحاب الأدب والسـكينة والوقـار والأنـوار. وأقوالهم كالدرر المنثورة وأعمالهم كلهـا مشـروعة معروفـة مشـهورة. وإليه يشير الحديث

الذي رواه البخاري: ((مازال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحِبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصـره الـذي يبصـر بـه، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجلـه الـتي يمشـي عليهـا، ولئن سـألني لأعطينـه، ولئن إستعاذ بي لأعيذنه)).

والجمهور على أن للسحر حقيقة، وأنه قد يبلغ السـاحر إلى حيث يطـير في الهواء، ويمشـي على المـاء، ويقتـل النفس، والفاعـل والخـالق في كل ذلك هو الله تعالى. والسحر من الأسباب، ولكن لم تجـر سـنة اللـه في الكون على تمكين الساحر من فلق البحر، وإحياء الموتى، وإنطـاق العجماء، وغير ذلك من آيـات الرسـل عليهم السـلام. ويظهـر من ذلـك فرق آخر بين المعجزة والسحر حيث أن المعجزة لهـا درجـات عاليـة لا تنالها قوة السـاحرين، ولكن الفـارق الصـحيح المفيـد هـو الأول، أي أن السحر نتيجة التقرب إلى الشيطان والعجـزة والكرامـة نتيجـة التقـرب إلى اللـه المنّـان. ومن هنـا تظهـر لطافـة مـا قـالوا: (لا يعـرف الولايـة بالكرامة، وانما تعرف الكرامة بالولايـة) يعـني أن الخـوارق إنمـا تكـون كرامـة وصـاحبها وليـاً إذا أطـاعَ اللـه، وإلا فخـوارق العصـاة سـحر أو استدراج.

ثم السّحر بالمعنى المذكور المشهور، وإلا فبعض العلماء جعله أقساماً.

وعدَّ منها ما يبنى على أعمال صناعية دقيقـة كصـندوق السـاعات وعلم جرّ الأثقال وما شاكلها... ولا يشـتبه منهـا بالكرامـة والمعجـزة إلا بعضُ أقسامها كما سيظهر لك فإنه قال والسحر على اقسام:

الأول: سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الـدهر، وهم قـوم يعبـدون الكواكب يزعمون أنها هي المديرة لهذا العـالم، ومنهـا تصـدر الخـيرات والشرور والسعادة والنحوسة. وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام لإبطال مقالتهم.

القسم الثاني: سحر أصحاب الأوهـام والنفـوس القويـة، فـإن النفـوس الإنسانية قد يختص بعض منها ببعض صفات تـوجب لهـا قـوة في تغيـير أوضاع الناس وأفكارهم، وهذا ممـا يشـبه البـديهيات، وكـذلك يجـوز أن يكـون لبعض النفـوس خاصـية غريبـة تكـون سـبباً لحـدوث الخـير في المقابل كبعض الأصفياء الـذين يسـتفيد الإنسـان من مجالسـته، ويتنـور بصحبته، وينشرح صدره بمحبته، او لحدوث الشـرِّ فيـهِ كصـاحب العين، فإنه قد جرّب بما لا مجال فيه للاشتباه أن العيـون قـد ينظـر إلى بعض المستحسـنات فتسـبب حـدوث مشـاكل فيهـا من: العـور، والعـرج، والمرض، والعرض، والضرر المالي والحالي.

القسـم الثـالث: الإسـتعانة بـالأرواح الخبيثـة الأرضـية، أي أرواح الجن والشـياطين. فـإن وجـود الجن وأنـه جسـم لطيـف نـاري معلـوم عنـد المسلم. وكذلك إيمان بعضهم وكفر بعض. فقد يحصل للإنسان بطريـق خاص المناسبة مع أرواح الجن الكافرين فيستعملها الشـخص في بعض الأمور التي يهواها من إضرار الناس، والتفريق بين المرء وزوجـه. ومن هذا النوع: كتابة الطلسمات التي يقال إنه يحصل منها آثار كإثارة الملك على الرعايا، أو بالعكس، وبإيقاع العداء بين القبائل والعوائل والأحبـاب والأصحاب وما شاكلها.

القسم الرابع: التخيلات والأخذ بالعيون، كأن يُرَى الواحـدُ اثـنين أو على لـونين في آنين.. وهـذا النـوع يحصـل من خفـة اليـد وإشـغال حـواس الحاضرين.

القسم الخامس: الأعمال العجيبـة الـتي تظهـر من تـركيب الآلات على النسـب الهندسـية، أو على ضـروب الخيلاء؛ كصـنع مـادة حديديـة ذات منافذ عديدة على كيفيات مرتبة علمية. فإذا ضربتها الرياح، أو نفخ فيها حصلت

تارة الحان مريحة وسالمة، وتارة أصوات مزعجة، وتارة ألحـان محزنـة مبكية، وأخرى ألحان مضحكة، وتارة تحدث هياجـاً نفسـياً وإقـداماً على الحروب وما شاكل ذلك. والآلة الموسيقية من هذا القسم.

القسم السادس: الإستعانة بخواص الأدوية مثـل أن يجعـل في الطعـام بعض المواد التي أكلها يخفف العقل ويفسد الدماغ، وهذا باب واسع.

القسم السابع: ربط القلب وتعليقه بشخص، كأن يـدعي شـخص فاسـد أن عنده حذاقـة في فن كـذلك يمـرض الإنسـان أو يخلصـه من مرضـه فيرتبط به، فتنقاد نفس هذا الإنسان الضـعيف لـه فيتصـرف فيـه كيـف يشاء وهذا القسم أفسَدُ أقسام السحر بالنسبة إلى البسـطاء وضـعاف العقول.

القسم الثامن: السعي في الإفساد وتغيير المجتمع بالقول والفعل.

فمن الأول السعاية والوشـاية والنميمـة والغيبـة والبهتـان. ومن الثـاني السعي في إضرار أحد الناس بعمل ما، كان يرى شخص عـدوه المبتلى بمرض لا يناسب أكل الماكولات فيأتي به إليـه في صـورة محب يخـدم حبيبـه فيأكلـه ويمـوت بـه. وتسـمية هـذا القسـم والخـامس والسـادس سحراً لاشتماله على الدقة والحذاقة كتسمية إنشاء الشـعر البليـغ جـداً سحراً. وكذلك الأعمال المادية الدقيقة من أي نوع كان وتتفاوت الدقــة بحسب تطور الزمـان. وامـا الدقـة والحذاقـة القوليـة أو العمليـة الـتي تستعمل في تربية إنسان وإصلاحه أو إصلاح ذات البين فيما عجــز عنـه الناس. فـذلك يعتـبر جهـاداً في سـبيل اللـه. وكلمـة من تلـك الكلمـات تساوي عند اللـه آلاف الكلمـات، وفعـل واحـد من ذلـك القبيـل يـوجب للإنسان الدرجات العالية عند الـرب الجليـل. وهي وإن أمكن أن يسمى سحراً لدقتها لكن التسمية به مجاز بحسب المعنى العرفي، وإن كـانت حقيقة بحسب أصل اللغة.

ومن هنا ظهر أن أيّ عمل متقن لم يكن فيه مخالفة للشرع أي لم يكن منهيــاً عنــه وظفــر بــه بعض من خصــهم اللــه بفضــله كعلم الجفــر لاستكشاف المجهولات، وعلم الحروف والاوفاق لقضاء الحاجـات، فهـو حسن ممدوح يثاب فاعله عليه على درجات متفاوتة ولا ننظر إلى قـول الجاهلين بالحقيقة فإنهم خارجون عن الطريقة.

(فائدة) السحر المذموم مما علمته يحـرم تعلُّمـه وتعليمـه والعمـل بـه. فإذا كان مُصادماً للحق ومخالفاً لما علم من الدين بالضرورة فمعتقــده كافر والعامل به مرتكب الكبيرة. نعم قـالوا: إن تعلّمـه إذا أمكن بـدون مزاولة المكفرات جائز، لاسيما إذا كان للصيانة. قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر بل لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشر

وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على السحر، والعطف للتغــاير الإعتباريّ، أو لاختصاصه بمزيـد دقـة. وقولـه: ﴿بِبَابِـلَ﴾ ظـروف وقولـه: ﴿هَـارُوتَ وَمَـارُوتَ﴾ عطــف بيــان للملكين. ومنــع صــرفهما للعجمــة والعلمية.

وهذان المَلَكان أنزلا لتعليم السـحر إبتلاء من اللـه تعـالى للنـاس، فمن تعلمه وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمـان، وقيـل: إنه كان للتمييز بين السحر وبين المعجـزة، حيث كـثر السـحر في ذلـك الزمان، وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشـك بهـا في النبـوة، فبعث اللـه الملكين لتعليم أبـواب السـحر حـتى يـزيلا الشـبه. أي حـتى يعلم الناس أن السحر علم إكتسـابي، وكـل إنسـان قـادر عليـه خيِّراً كـان أو شريراً، وإن المعجزة نعمة وهبيـة يهبهـا اللـه لمن يشـاء من عبـاده، ولا تظهر إلا على المختار من العباد

المخلصين. قيل: كان ذلك في زمن إدريس عليه السلام في البيضاوي. وقيل رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة الملِكين بالكسر. وما يروى من الحكايات فمن الأباطيل؛ لأنَ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أو إخبار الباري تعالى ليس قابلاً للنسخ.

وقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي ما يعلمان أحداً السحر حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن فتنة. أي محنة وابتلاءٌ منه للناس. فمن تعلّم وتوقى عن عمله بقي على الإيمان، ومن تعلّم وعمل به خرج عن الإيمان وكفر بربه الديان فلا تكفر أيها المتعلم.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته؛ لأنه هو الفاعل المختار الخالق لكل شيء، والأسباب غير مؤثرة، وحدوث الآثار عندها لا بها. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي أخذ ما تتلوه الشياطين بدل العمل بكتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي نصيب مبارك ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي إستخلصوا به أنفسهم عن الهلاك بزعمهم أو باعوها به، وهو وجود الهدايا والرشايا والجاه بين البرايا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي قبحه. أو لو كان يعلمون ما يصيبهم في المآل ما عملوا شيئا غير مشروع في الحال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)﴾

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن

عباس رضي الله عنهما أنه كان المسلمون يقولون للرسول صلى اللــه عليه وسلم: راعِنا أي راقِبْنا وَتَأَنَّ بِنا فيمـا تُلقِّنُنـا حـتى نَفْهَمَـه. وسـمعه اليهـود فافتَرصُـوهَ وخـاطَبُوه بـه مريـدين نسـبتَه إلى الـرَّعن، أو سَـبَّه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابَّون بها، وهي راعينـا، فَنُهِيَ المؤمنُـونَ عنها وأُمروا بما يُفيد تلك الفائدة بلا تلبيس نحو اَنْظرنا أي اُنظر إلينـا أو إنتَظِرنا.

قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ صيغة امر المفرد المذكر المخـاطب من بـاب المفاعلـة مشتق من الرعي بمعنى الرعاية معتل اللام واصله راعِيْنا حذفت اليــاء لبناء صيغة الأمـر وفاعلـه مسـتتر فيـه اي انت وضـمير: (نـا) في محـل النصب مفعول به صريح.

وقوله: ﴿انْظُرْنَا﴾ صيغة أمر المفرد المـذكر المخـاطب أيضـا من البـاب الأول، أي أنظر إلينا على معنى اللطف والمراعاة، أو بمعنى انتظرنا.

وقولـه: ﴿وَاسْـمَعُوا﴾ أي اسـتمعوا لتلقين الرسـول إيـاكم حـتى تأخـذوا كلامه ولا تحتاجوا إلى سؤال المراعاة.

وقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ﴾ الآية. نزلت تكذيباً لجمع من اليهود كانوا يدعون محبتهم للمسلمين.

وحاصـل التفسـير: يـا أيهـا الـذين آمنـوا إذا تلقنتم العبـارات من الآيـات البينات فاستمعوا إستماعاً عن حضور القلب حـتى تفتهمـوا مـا يلقنكم، وتأخذوه ولا تغفلوا فتحتاجوا إلى أن تقولوا له راعنا حتى لا تغتنم اليهود فرصة أخذ هذه العبارة واستعمالها بمعنى فاسـدٍ، وهـو كن راعِنـاً أي ذا سَفَهٍ أو أنت راعينا أي راعي أغنامنا.

وقولوا: انظرنا بدل راعنا. وللكافرين الذين يتهاونون بالرسول ويسبونه عذاب أليم واعلمـوا أن بينكم وبينهم معانـدة ومنـاوأة ويحبـون هَلاككم، ولا يود الذين كفروا من أهل الكتـاب ولا المشركين أن يـنزل عليكم اي خيرٍ من جانب ربكم، ولا يعلمون أن الله يختص برحمته من يشاء واللـه ذو الفضل العظيم.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَـةٍ أَوْ نُنْسِـهَا نَـأْتِ بِخَيْـرٍ مِنْهَـا أَوْ مِثْلِهَـا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَـهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيـدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْـلُ وَمَنْ يَتَبَـدَّلِ الْكُفْـرَ بِالْإِيمَـانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَـرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَـقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ (109) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِـدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)﴾

قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ الآية نزلت عندما قال المشركون أو اليهـود ألا تـرون إلى محمد صلى اللـه عليـه وسـلم يـأمر أَصحابه بـأمر ثم ينهـاهم عنـه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليومَ قولاً ويرجع عنه غداً؟ مـا هـذا القـرآن إلا كلام محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم يقولـه من تلقـاء نفسـه وهـو كلام يناقض بعضه بعضا.

والنسخ: في اللغة إزالة الصورة أو ما في حكمها عن الشيء وإثبات مثل ذلك في غيره سواء كان في الأعيان أو في الأعراض. فمن الأول: نسخت الريحُ الأثر أي اَزالَتْه. ومن الثاني نسختُ الكتابَ إذا أَثْبتَّ ما فيه في موضع آخر. وهو مشترك بينهما. وَحَدده عرفاً: الخطابُ الدالّ على إرتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه. ونسخ الآية بيان إنتهاء التعبد بقراءتها كآية:

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما تكالا من الله والله عزيز حكيم) أو الحكم المستفاد منها كآية: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أو بهما جميعاً كآية (عشر رضعات معلومات يحرمن) وفيه رفع التأبيد المستفاد من إطلاقها. ولذا عرفه بعضهم برفع الحكم الشرعي. فهو بيان بالنسبة إلى الشارع، ورفعٌ بالنسبة إلينا. واختص التعريف بالأحكام إذ لا تعبد في الأخبار انفسها.

وانساؤها إذهابها عن القلوب بأن لا تبقى في الحفظ. وقد وقع هذا فإن بعض الصحابة أراد قراءة بعض ما حفظه فلم يجده في صدره فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((نُسِخَ البارحةَ عن الّصدور)). وعن أبي موسى: إنا كنا نقرأ سورة نُشبّهها في الطول والشدة ببراءة، فَأنْسيتُها غيرَ أني حَفظتُ مِنها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدَمَ إلا التراب).

وقوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب ولو كان برفع الحكم هناك.

وقوله: ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وأصل معنى الولاية الإتصال بين شيئين من غير تخلل شيء آخَرَ اجنبيّ بينهما. ثم يستعار للقرب في المكان، أو في النسب، أو في الصداقة والنصرة.

والنصير والناصر المعين. وبينهما عموم وخصوص من وجه؛ لأن الولي قد يضعف عن النصرة فلا ينصر. والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيجتمعان فيما إذا كان الولي قادراً على النصرة والنصير قريباً في النسب من المنصور. ويفترق الولي عن النصير فيما إذا لم يقدر علي النصرة. والنصير عن الولي فيما إذا كان أجنبياً عنه. قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ قالوا يجوز أن تكون كلمة أم هذه متصلة للمعادلة بين شيئين ومنقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإستفهام.

وإذا كانت متصلة فالمعادلان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ ووجه المعادلة: أن قوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ محمول على الثقة وقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ دال على الإقتراح والإزعاج بالسؤال كما اقترحت أسلاف اليهود من موسى عليه السلام فيئول الكلام إلى معنى الكم وثوق بالرسول بعد العلم بما يوجب الوثوق من أن الله له ملك السموات والأرض وهو الذي أرسله إليكم؟ أم ليس لكم وثوق وتقترحون كما اقترحت أسلاف اليهود؟

وإذا كانت منقطعة فالمعنى على الإضراب عما سبق، والإستفهام عن السؤال.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ معناه ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها فقد ضل سواء السبيل.

وقولـه: ﴿حَسَـدًا﴾ مفعـول لـه حصـولي لقولـه ودَّ. وقولـه: ﴿مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي حسداً ناشئاً ومنبعثاً من أعماق أنفسهم. وقوله: ﴿فَـاعْفُوا وَاصْـفَحُوا﴾ الصـفح: تـرك تـثريب العـدو. والعفـو: تـرك عقوبتـه. فـذكر الصفح بعد العفو للدلالة على استحسان إهمال ذكر الذنوب بعـد العفـو حتى لا يبقى كدر ظاهر في الجوّ. والأمـر مُغَيّـاً بإتيـان أمـر اللـه تعـالى بالإنتقام والقتال فليس منسوخاً بآية السيف. وقوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي من أداء واجب أو مندوب أو كف النفس عن حرام أو مكـروه، فـإن النكـرة في سياق الشرط للعموم. وقوله: ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي ثوابه.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَـانَ هُـودًا أَوْ نَصَـارَى تِلْـكَ أَمَـانِيُّهُمْ قُـلْ هَاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ لِلَّهِ وَهُـوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على قوله تعـالى ﴿وَدَّ كَثِـيرٌ﴾ وقولـه: ﴿لَنْ يَـدْخُلَ﴾ أي قـالت اليهـود لن يـدخل الجنـة إلا من كـان هـودا، وقـالت النصـارى لن يـدخل الجنـة إلا من كـان نصـارى. ودليلـه قولـه تعـالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتِ النَّصَـارَى لَيْسَـتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾. وقوله: ﴿هُودًا﴾ جمع هائد كعوذ جمع عائـذ. وقولـه: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إسم الإشـارة تشـير إلى مـا سـبق من أن لا يـنزل على المؤمنين خير من ربهم. وأن يردّوهم كفارا، وأنه لا يدخل الجنة غــيرهم على مـا ذكرنـاه، والأمـاني الأكـاذيب. وقولـه: ﴿هَـاتُوا﴾ في القـاموس: وهات

بكسر التاء أعْطني انتهى. أي فكلمة هاتوا جمـع المـذكر المخـاطب أي اَعْطوني.

وقولـه: ﴿بُرْهَـانَكُمْ﴾ البرهـان دليـل مـركب من مقـدمات يقينيـة لإنتـاج اليقين، يعني أن هذه المطالب من العقائـد ولابـد أن تبـنى على الـدليل القطعي فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فإن كان عندكم برهان فأتوا به، وإلا فاسكتوا فرحم الله امرءً قال قال خيراً أو سكت.

وقوله: ﴿بَلَى﴾ رد لما تشوهوا به. وقولـه ﴿مَنْ أَسْـلَمَ﴾ أي سـلم نفسـه إلى قدسه وخضع له واتّقـاهُ، وهُـو محسـن في خضـوعه بـان خضـع لـه على وجه الإعتناء بوجه الطاعة حتى وصل إلى درجة الإحسان المفسـر بأن تعبد الله كأنـك تـراه فـإن لم تكن تـراه فإنّـه يـراك. أو أحسـن في إسلامه بأن كان عاملاً للصالحات حتى يتقارن الإيمان والعمـل الصـالح. أو وهو محسن في خضوعه وإسلامه بأن كان على وجه إرشـاد رسـوله بدون تعنت وعناد منـه، وبـدون تناسـي وصـاياه لا كأهـل الكتـاب الـذين يـدّعون الإسـلام ويخرجـون عن وصـية الأنبيـاء ببيـان نعـوت الرسـول العربي وكتابه وأمته والإيمان بـه فيكتمـون الجميـع وهم يعلمـون. فمن أسلم وجهه لله على هذه الحال فلا خـوف عليهم يـوم القيامـة من كـل منتظر مكـروه، ولا هم يحزنـون على مـا فـاتهم في حيـاة دنيـاهم لأنهم يدخلون عالماً أوسَعَ وامْتَعَ من كل ما يتصور لنفسه في العالَمين.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتِ النَّصَـارَى لَيْسَـتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَـذَلِكَ قَـالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ مِثْـلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)﴾

نزلت لما قـدِمَ وَفـدُ نَجـران على رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم وَاَتاهُمْ اَحبارُ اليَهُودِ فوقع بينهما المناظرة فقـال كـلٌّ مـا قـال. والوفـد: القوم الوافدون أي القادمون. ونجران: كسـكران اسـم بلـدة في اليمن فتحت سنة عشـر من الهجـرة فيهـا قـوم من نصـارى العـرب. وقولـه: ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أي على أمر يصح ويعتد به. أي ما كـانوا عليـه أقـل رتبـة من المعدوم الممكن والمحال، إذ يقال لهما (شيء) بمعنى ما يصـح أن يعلم ويخبر عنه. فلما لم يكونا على شيء فقـد بولـغ في تـرك الإعتـداد إلى ما ليس بعده كمـا يقـال: فلان أقـل من (اللاشـيء). والتـوبيخ على قصد كل منهما إبطال دين الآخر وإنكار نبيه.

وقولـه تعـالى: ﴿وَهُمْ يَعْلِمُـون﴾ الـواو حاليـة، والجملـة حـال. وقولـه: ﴿كَذَلِكَ﴾ مفعول به لقال، وقدم عليه الإهتمـام، وقولـه: ﴿مِثْـلَ قَـوْلِهِمْ﴾ صفة قول مقدر ومفعول مطلق أي قـال الـذين لا يعلمـون كلامـاً مثـل ذلك الكلام الذي قالته اليهود والنصارى، ويجوز أن يكون مثل ذلك صفة للمفعول به المقدر، وكذلك حالاً له قدم عليه، أي قال الذين لا يعلمـون الحق مثل عبـاد الأصـنام والمعطلـة قـولاً مثـل قـول اليهـود والنصـارى بالنسبة إليهما والى المسلمين حال كونه كلاماً جاريـاً على ذلـك المنهج ناشئاً عن الشهوة والغرور.

وحاصل التفسير: إن اليهود والنصـارى تنافسـوا بينهم وقـال كـل فريـق للآخر: إنه ليس على شيء، لا دينٍ يعتدّ به، ولا رسولٍ يُصَدَّق بـه. وقـال الكفار المعطلة وعبدة الأصـنام قـولاً مثـل قـولهم بالنسـبة إليهمـا وإلى المسـلمين أيضـاً. فاللـه تعـالى يحكم بين كـل من المتنـاظرين والمتنافسين يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية نزلت في طيطوس بن آسيا قوس الرومي وأصحابه.

وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتليهم، وسلبوا ذراريهم، وحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه!

وروي عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في مشركي العرب منعوا المسلمين عام الحديبية من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام.

وظاهر الآية العموم في كل مانع وفي كل مسجد، وخصوص السبب لا يمنعه. وقوله: ﴿أَظْلَمُ﴾ اسم التفضيل خبرٌ عن مَن، ولا يراد بالإستفهام حقيقته لأنه تعالى عالم بالأمر فهو مستعمل في معنى النفي. قوله ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أي في هدمها وتعطيلها.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي ما كانوا أهلاً ولائقاً بدخول ذلك المقام المقدس إلا خائفين من المؤمنين أن يطردوهم. أو ما كان ينبغي المهم أن يدخلوها إلّا بخشية وخشوع، فضلاً عن أن يجترؤا على تخريبها؛ لأنهم لو كانوا عقلاء كان حقهم ذلك.

واختلف الأئمة في دخـول الكفـار المسـاجد، فجـوزه الإمـام أبـو حنيفـة مطلقاً سـواء الحـرم المكي وغـيره للآيـة. فإنهـا تفيـد دخـولَهم بخشـية وخشوع، ولأنّ وفد ثقيف قدموا عليه صـلى اللـه عليـه وسـلم فـأنزلهم المسجد، ولقوله صلى الله عليه وسلم: من دَخَـلَ دار أبي سـفيان فهـو آمن، وَمَنَ دخَلَ الكعبةَ فهو آمِنٌ. ومنعه مالك مطلقـاً إلا لحاجـة. وفـرّق الشافعيُّ بين حَرم مَكّـةَ ومَسـجدها فمنـع دخـولهم فيهمـا، وجـوزه في غيرهما.

قوله: ﴿خِزْيٌ﴾ بالقتل والأسر كما في بدر وغيره من مواقف الجهاد في إعلاء كلمة الحق والدين.

والحاصـلُ: يقـول البـاري سـبحانه: يـا حبيـبي توجّـه اليّ وتَوكّـل عَلَيّ، وجامِلِ الناسَ إلى اَنْ يأتي اللهُ بأمره، ولا تهتمّ بأولئك الناس الظالمينَ، بل أظلم الظـالمين. فمن اَظلمَ ممّن مَنـعَ مسـاجد اللـه أن يُـذكر فيهـا اسمُه، سواء كانوا من الروم وَمَنَعُوا الإسرائيليين من ذكر اللـه في بيت المقدس، أو من مشركي العرب وَمَنَعُوكم مِن دخول مكة واَداء مناسِكِ العمـرة، أو من اَحبْـارِ اليهـود في عصـرك المـانعين للنـاس من أمتهم وغيرها أنْ يؤمنوا برسالتك، ويدخلوا مسجدك في المدينة، أو من سـائر الناس النّاسين لحقوق نعمةِ اللـه وعظمتـه، وكـلِ من شـاكَلَهم وَسَـعى في خرابها وهدمها وتعطيلها عن نشر الدين، وتثقيف اَجْيال المسـلمين، أولئك ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا تلـك المسـاجد إلا خـائفين خاشـعين لله. فاعلم يا حبيبي إنّ لهم خزياً في الدّنيا اليوم أو غداً، ولا يَفْلتُون من اللـه اَبَـداً فـإن اللـه لـه الإمهـال ولكن لا إهمـال لـه في رعايـة حقـوق العالمين، وَلَهُم مَع خزي الدنيا عذابٌ عظيم يحكم به ربُّ العالمين.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(115)

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته تطوعا أينما توجهت به وهو ذاهب من مكة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية. وقال في هذا انزلت. أخرجه مسلم والترمذي والنسائي. وقال ابن عمر أيضاً أنزلت ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوع أخرجه الحاكم. وقال صحيح على شرط مسلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم على النجاشي ملك الحبشة حينَ أخبره جبريل عليه السلام بوفاته وجمع الصحابة للصلاة عليه فاستبعد بعضٌ الصلاةَ عليه ولا يعلم كيف حاله وأنه يصلي إلى بيت المقدس ونحن نصلي إلى الكعبة فنزلت. وكانت الواقعة بعد تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي على راحلته قِبَلَ المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى)) أخرجه البخاري.

والمستفاد من الروايتين أن الآية نزلت في صلاة التطوع في السفر إلى غير جهة القبلة. وهنا رواية أنها نزلت في صلاة الفرض إلى غير جهة القبلة فيخطئ المصلّي فإن صلاته صحيحة كما عليه الأئمة الثلاثة، لكنها ليست قوية عند المحدثين. نعم إذا كان الخطأ غير معين كما لو صلّى لأربع جهات بأربع اجتهادات فإن صلاته صحيحة ولا قضاء هناك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ المراد بهما الجهتان المعينتان على وجه أن تكونا كناية عن الأرض كلها. والمقصود أنّه إذا منِعتم مِن

الصلاة في المسجد الحرام كما في عام الحديبية أو في المسجد الأقصى فصلوا في غيرهما من الأمكنة، فإن الأرض كلها مسجد للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته، وطهور لمن تيمم بترابها النظيف. وليس دين الإسلام على حصر الصلاة في المساجد كما في العهود السابقة، فلم تجز الصلاة في غير البيع والكنائس إلا عند الضرورة. أو أن المشرق والمغرب ملك لله فله أن يرتضي التوجه في الصلاة مطلقا أو في النافلة إلى أية جهة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾. إن حَمَلنا الآية على صلاة التطوع في السفر فأينما ظرف مكان لازم للظرفية و﴿تُوَلُّوا﴾ منزل منزلة اللازم، والمعنى ففي أيّ مكان فَعلتُمْ أيَّ تَوِلِية صحّت صلاتكم. وإن حملناها على مطلق الصلاة فالمعنى ففي أيّ مكان فعلتم التولية إلى أي جهة فقد صحت صلاتكم إذا عميت عليكم جهةُ القبلة كما عليه الأئمة الثلاثة. وكذا الإمام الشافعي في أحد قوليه. وأما حمل الآية الشريفة على مطلق الصلاة وتقييد الجهة بالقبلة كما قال البيضاوي رحمه الله تعالى فبعيد عن سياق التعميم المستفاد من قوله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثم وجه الله. وقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي جهته التي ارتضاها للتوجه إليها وأمر بها أو بمعنى ذاته أي فهو حاضر مطلع على عبادتكم، وإنما أول بذلك لتنزهه عن المكان والجهة. وإذا قلنا إن الآية الشريفة توطئة لنسخ القبلة وإفادة أن الله تعالى محيط بكل جهة إحاطة علم وتصرف فله أن يرتضي ما شاء منها لاستقبالها فهي واضحة عند الناظرين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي محيط بالكائنات عليم بالكليات والجزئيات يتصرف في تخصيص أي جزء منها بكونه قبلة للمسلمين.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)﴾

نزلت في رد اليهود والنصارى، حيث قالت الأولى: إن عُزّيراً ابن الله، والثانية إن المسيح ابن الله. وفي رد المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وذلك لفرط جهلهم وغباوتهم، وعدم معرفتهم بالباري سبحانه معرفة سليمة بالإعتقاد بأنه متصف بالكمال ومنزه عن النقص، وسر البقاء في ذلك الجهل إفراطهم في المادية وزعمهم أن الأصل في الكائنات المادة، وأن الإله لابد أن يتمازج مع المادة، وقد رد الله عليهم مزاعمهم الباطلة بعبارات.

الأولى قوله تعالى: سبحانه، وهو علم جنس للتسبيح، وسرّ التنزيه أن الولادة تقتضي المجانسة والحاجة إلى البقاء وسرعة فناء المحتاج. والباري تعالى واجب الوجود المنحصر في الفرد، وليس مجانسا للممكنات وقديم باق بالذات لا يعتريه الفناء؛ فلا يحتاج في حفظ النوع إلى التناسل فهو بريء من أن يكون له ولد.

والثانية قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن كل ما في الكون الأعلى والأسفل ملك له تعالى، وهو خالق له، ومن أجزائه عزير، والمسيحُ والملائكة، والمخلوق لا يكون مجانساً للخالق فلا يحتاج إليه.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي كل ما في السماوات والأرض قانتون منقادون مطيعون له تحت تصرفه وقدرته بالإيجاد

والإعدام، وما على هـذه الصـفات لا يجـانِسُ خـالق الأرض والسـماوات لأنّها من الممكنات والخالق واجب بالذات.

والرابعــة: قولــه تعــالى: ﴿بَــدِيعُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبــدعهما ومخرجهما من العـدم إلى الوجـود والوالـد ينفعـل بانفعـال مـادّة الولـد وعنصره الموافق له. والواجب الوجـود بـريء من الإنفعـالات، فاعتقـاد وجود الأولاد له يناقض الإعتقاد بوجوب وجوده.

والخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ﴾ أي إذا أراد حدوث حادث فلا مانع من إخراجه له إلى الوجود، وإنما يأمر أمراً تسخيرياً يمثل له في سرعة النفاذ بقـول ﴿كُنْ فَيَكُـونُ﴾ فلا معـنى للإعتقـاد بـأن حفنـات من الـتراب أو أجسـاما مخلوقـة بـدون علاقـة الإنتساب اولاداً له تعالى.

فوائد: الأولى: فرق في شرح الإشارات بين الصنع، والإبـداع، والإيجـاد، والتكوين، والإحداث: بأن الصنع الإيجاد بعد العدم، فهو والإيجاد عامّـان. والإبداع إيجاد من غـير مـادة ولا زمـانٍ، فهـو أعلى مرتبـة من التكـوين والإحداث؛ لأن التكوين إيجادٌ من مادّة، والإحداثُ أن يكون مـع الشـيء وجودٌ زمانيّ وكل واحـد منهمـا يقابـل الإبـداع من وجـه، والإبـداع أقـدم منهمـا؛ لأن المـادة لا يمكن أن تحصـل بـالتكوين، والزمـانُ لا يمكن أن يحصل بالإحداث لامتنـاع كونهمـا مسـبوقين بمـادة أخـرى وزمـان آخـر. انتهى.

قلت: لم يستند شارح الإشارات في تلك الفروق على شيء يعتدّ بـه، لا لغة ولا عرفاً. وبعض مما قاله مبني على أصل فلسفي ليس بمسلّم

عندنا. فإن الزمان عندنا موهوم، وسبق المادة على إحداث المركبات لحمل الإمكان الإستعدادي ووجود الزمان ليكون ظرفاً لتعاقب الإستعدادات عندنا من أحاديث خرافة.

وكلام البيضاوي أقربُ إلى القبول، وهو: أن الإبداع الإيجادُ الدفعي من غير مادة؛ لأنه معنى الاختراع. والصنع الإيجاد عن مادة وهي العنصر الذي فيه صورته كالخشب للسرير. والتكوين إيجاد من مادة خلعت عنها صورتها الأولى التي هي صورة أخرى في زمان كتكوين الطفل من المضغة، وهي من العلقة، وهي من النطفة.

وما قيل من أن الإبداع بهذا المعنى لا يناسب السماوات لإيجادها عن مادة الدخان مدفوعٌ بأن الإبداع متوجه إلى الأصل والفرع معاً ولم يكن شيئ آخر قبلهما.

الثانية: أن القضاء فصل الحكم في الشيء قولاً وهو ظاهر، أو فعلاً وهو إيجاده. ولما كان ذلك يستلزم الإرادة أطلق عليها. فعلم انه يستعمل بمعنى الإيجاد، ويقابله القدر بمعنى التقدير، وقد يعكس ذلك. ومنهم من يفرق بين قدر الله وقضائه؛ فيجعل القدر تقديره الأمور قبل أن تقع، والقضاء إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حدِّ الفعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه قد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بكهف مائل للسقوط فأسرع المشي حتى جاوزه، فقيل له: أَتَفِرُّ مِنْ قضاء الله؟ فقال: اَفِرُّ من قضائه تعالى الى قدره. ففرَّق صلى الله عليه وسلم بين القضاء والقدر، وبيَّن أن الإنسان يَجبُ أن يَتَوقّى.

الثالثة: أن ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة الدالة على وجود الشيئ في نفسه، وهي تدل على معنى الناقصة؛ لأن الوجود المطلق أعم من وجوده في نفسه أو في غيره؛ لأن الله تعالى كما يُفيض الوجود في نفسه يُفيض الوجود لغيره وهو - أيضاً - إنما يكون بأن يقول للشئ كن كذا.

ثم في هذا الأمر للعلماء آراء: منها أن هذا الأمر تمثيل لسرعة نفاذ أمره تعالى في المأمور بلا مهلة، وليس هناك قول دال على الطلب ولا مأمور، بل المقصود ظهور المراد على الوجه الذي أريد. كما أنه ليس المقصود أن سنته في الخلق جرت هكذا؛ لأنه تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، بل المقصود أنه قادر على تنفيذ ما أراد في أقل من لمحة العين بلا مهلة وبين.

ومنها أنه على تقدير تحقق الأمر والمأمور إن الأمر هو الطلب النفسي القائم بذاته تعالى والمأمور هو الشيء الموجود بالصورة العلمية الإجمالية أزلاً وفهمه للطلب من أسرار القدر، والمأمور به المطلوب هو الوجود الخارجي للشيء سواء كان من الأعيان أو الأعراض. أي أطلب منك أن تتحول من الصورة العلمية والوجود الذهني إلى الوجود الخارجي على ما ذكرناه من الطلب التسخيري.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ﴾ عطف على قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾.

ووجه الإرتباط أن الأول كان قدحاً في التوحيـد، وهـذا قـدح في النبـوة. والمـراد من الـذين لا يعلمـون جهلـة المشـركين، كمـا روي عن قتـادة والسدي والحسن. أو اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهمـا أن رافـع بن خذيمة من اليهود قـال لرسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: إن كنت رسولاً من عند الله فقل لله يكلمنا حـتى نسـمع كلامـه! وقـال مجاهـد: المراد به النصارى. ورجحه الطبري بـأنهم المـذكورون. ونفي العلم عن المشركين على حقيقته، إذ لم يكن لهم كتاب، وعن أهل الكتاب مجـاز؛ لتجاهلهم، أو لعدم جـريهم على مقتضـى علمهم. وقولـه: ﴿لَـوْلَا يُكَلِّمُنَـا اللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا بأنك رسول له. وقوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ﴾ أي حجـة على صدقك في دعوى الرسالة، وهذا تعنت وجحود منهم لأنه قد أتتهم آيـات بينات في الكتب القديمة التي كانت عندهم، وفي هذا العهد أيضاً.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ﴾ أي مثل ذلك الكلام قال الذين من قبلهم، فقـالوا: أرنا الله جهرة، ونحو ذلك فهو مفعول به. وقوله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مفعول مطلـق لقـال. أي قـولاً كقـولهم ونطقـاً كنطقهم على طريـق العنـاد والإسـتكبار. وقولـه: ﴿تَشَـابَهَتْ قُلُـوبُهُمْ﴾ إسـتئناف لبيـان أن قلـوبهم كقلوبهم فهي عيون ماء الممات لا ينابيع مياه الحيـاة. وقولـه: ﴿قَـدْ بَيَّنَّا الْآَيَـاتِ﴾ أي نحن فرغنـا عن أداء مـا هـو من سـنتنا من تأييـد الرسـل بالآيات البينات والبراهين الساطعة، لكنها لقوم يوقنون. ولمـا ورد على الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم مـا ورد من أسـئلة التعنت والإستكبار ثبّت الله تعالى قلبه

بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالكتاب الحق والدين الحق.

بشـيراً للمستبشـرين، ونـذيراً مهـدداً للمسـتكبرين، ولا تسـئل أنت عن أصحاب الجحيم لم دخلوا النار الملتهبة؟ لأنهم هم الذين قـابلوا الرسـل بالإستكبار فاستحقوا الخلود في عذاب النار، أعاذنا الله الستار.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُـدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـوَاءَهُمْ بَعْـدَ الَّذِي جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَـا لَـكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾ إقناط منه تعالى لحبيبه في رجاء إيمان أهل الكتاب المردة المستكبرين العصاة القساة بأنهم لن يَرْضوا عنـك حـتى تتبع أنت، وأنت رسولنا بالحق، ملتهم المنسوخة من اللـه المحرفـة من أنفسهم، فكيف تأمـل في إتبـاعهم لـك وإيمـانهم بـك؟ فقـل في إعلان كونهم على الضلال: إن هدى الله الـذي يهتـدي بـه النـاجون هـو الهُـدى المتبع لا غيره، وهو الهوى المبتدع، ولئن اتبعت أهواءهم الباطلة المبنية على الظنون والأوهام بعد الذي جاءك من العلم واليقين الواصـل إليـك من الله العلام مالك من الله تعالى من ولي يتولاك، ولا نصير ينصرك.

﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)﴾

نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا من الحبشة مـع جعفـر ابن أبي طـالب. قولـه: ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَـاهُمُ﴾ الموصـول مـع صـلته مبتـدأ، وجملـة ﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال من المفعولين، وجملة ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبره.

يعني أن أهل الكتاب الذين آتيناهم الكتاب على لسان رسولهم، وحالهم أنهم يتلونه حق تلاوته أي مـع الإيمـان بـه والعمـل على مقتضـاه أولئـك الذين يؤمنون بذلك الكتاب أو بكتـابكم المـنزل من اللـه الوهـاب، ومن يكفر به أي يتلونه لاحق التلاوة بل على وجـه الغش والخـداع ولا يجـاوز تـراقيهم فأولئـك هم الخاسـرون في الأول والآخـر وهم من أصـحاب الجحيم.

ولما افتتح الباري قصة بني إسرائيل بتذكيرهم بالنعم التي أفاضـها على السلف منهم لكونهم أهل الشرف ختمها بمثل ذلك لتذكير ما هناك.

وقال:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُـرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّـلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)﴾ في عصر المطيعين المسالمين.

ولما كان وجه التفضيل على ذلك الدليل فمن انحرف عن طريق الهدى وسلك مسلك أهـل الهـوى والـردى فأولئـك هم الـذين يـتيهون في تيـه الهوان والخسران جزاء لما هم اختاروه من العناد والكفران.

وهذه السـنة السـنية هي سـنة اللـه في الكـون مـع البريـة فمن سـلك مسـلك الحـق وآمن باللـه ورسـوله فقـد فـاز، ومن انحـرف عن ذلـك فأولئك هم الخائبون.

﴿وَاتَّقُـوا يَوْمًـا لَا تَجْـزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَـيْئًا وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَـا عَـدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)﴾

يعني: واخشوا يا بني إسرائيل أو يـا أيهـا النـاس عـذاب يـوم مهم مبهم الهوية من حيث شدّته وهولُه وكفى في وصفه الرهيب أنه لا تجزي فيه

أيّةُ نفسٍ صالحة مؤمنةٍ عن نفس فاسدةٍ كافرةٍ شيئاً من النفع، ولا يقبل منها عدل وفداء لها، ولا تنفعها شفاعة ورَجاء، ولا هم يُنصرون من أي كبير أو أمير بمقدار كثير ولا يسير، والأمر يومئذ لله. فآمنوا بالله ورسوله حتى تدخلوا بابَ أمانِهِ وقبولهِ ويفتح لكم أبواب الوصول بشفاعة الرسول. وهذا هو النيل من الحياة الإنسانية وذلك خير محصول.

ولما قصّ على حبيبه قصة بني إسرائيل وثبّت فؤاده بآيات الوحي والتنزيل وهو أيضا من نسل إبراهيم الخليل ذكّر الكل بقصة إصطفائه إماماً للأنام، وتشريفه بفتح باب التوحيد والإسلام، فقال:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124)﴾

في دائرة المعارف للعالم المصري (فريد وجدي) ما نصه: هو رسول الله الجليل جدّ خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ولد في بلدة (أور) من بلاد بابل قبل ميلاد عيسى عليه السلام بألفي عام، وهو من الجيل الثامن من ذرية (سام بن نوح) عليه السلام تزوج بسارة ثم بهاجر جارية سارة وَهَبَتْها له، فَولَدت له إسماعيل عليه السلام، وهو الذي هاجر إلى بلاد العرب، وبَنَى مع أبيه إبراهيم الكعبةَ ثم رحل أبوه إلى الشام، وبقي هو في بلاد العَرب، فصاهَرَ بني جُرْهُم، وَوُلِد له من إمرأته دَعْلة بنت مَضاض إثني عشر ذكراً وبنتاً واحدة.

وكان إبراهيم عليه السلام يُعاوِدُ ابنَه بالزيارة في مكة فأُمر في آخر زياراته ببناء البيت الحرام فبناه هُو وابنُه. ولما ارتفع جداره قام

إبراهيم على حجر ليلحق الحائط فذلك المحل يسمى مقامَ إبراهيم. ثم رَحَل إبراهيم إلى الشام وتوفي بها بعد أن عاش مائة وسبعاً وخمسين سنة كما في بعض الروايات.

هذا الرسول الكريمُ يعد في تأريخ الأديان عامة من كبار أولي العزم فيعتبره اليهود كرأس شعبهم المختار، وَيَعُده النصارى على قدر العلاقة الموجودة بين دينهم وتأريخ العبرانيين، ويعتبره المسلمون جدّا للعرب الذين منهم خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وقد نص الكتاب على أنّه أوّلُ من سَمّاهم المسلمين – إنتهى.

وقد كتب في بعض كتب تأريخ الشرق القديم أن سيدنا إبراهيم الخليل ولد في (كُوثى) قرب بلدة (حلّة) الحالية، وفي رواية ولد في (شرقات) وأخرى ولد في (شوش) قرية قربَ قضاء (عقرة) من أعمال المَوْصِل، وذلك لأن أهل ذلك العصر كانوا غالباً يصطافون في بعضي بقاع الشمال. ومن المشهور ان محل النار التي ألقوه عليه السلام فيها بين قضاء (رانية) وقضاء (قلعة دزه) وقيل: إن محلّها بلدة (أورفه) من كردستان تركيا والله أعلم.

والمراد بابتلائه تعالى لإبراهيم أنه نظر إليه نظر الرحمة حين تفكّر في آزر وقومه وملكهم عاكفين على أصنام منحوتة لا حول ولا قوة لها، يقدسونها ويرقصون حولها. وعلم أن تلك الشعارات شعارٌ بلا شعور، ومنار بلا نور، فتطور فكره إلى جهة العدو، وتدرّج في مراتب إشعاعِ الكواكب الفلكية من الكوكب إلى القمر، إلى الشمس البازغة، فَعَدَلَ عَن كلّها لأُفُولِها، وَتَوَجَّه إلى فاطر السماوات والأرض الذي سخّر الكائنات بقدرته وجعلها مظاهر نور رحمته وإفاضة نعمته. وأكد على ربوبيته وإستحقاقه للعبادة وقال: إني وجّهتُ وجهي للذي فَطَرَ

السـماواتِ والأرض حنيفـاً مسـلماً ومـا أنـا من المشـركين إن صـلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شـريك لـه وبـذلك اُمِـرْتُ وأنا أول المسلمين.

ولما تنوّرت روحه وقلبه إنشرح صدره وظهر عنده مبدؤه وأمره.. واجَهَ أباهُ وقومَه والملِك القائم بأمرهم بكلمات هي أشدّ وقعاً من السيوف الصوارم، بل كان كل حرف منها سيفاً. فقال لأبيه آزر: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فوقع آزر في تنوّر من النارِ من لهيبِ رفضِ معتقداتِه التي هي حياته ومماتُه، نارُه ونورُه، حُزنه وسرورُه، دينُه ودنياه رشاياه وهواياه، وفي حواجز من الغرائز اِذِ المـُعارِض له إبنه وفلذة كبده، وفي مقام الرأس من جسده، وله أم وأفراد عائلة في قلب كل منها عنه خطر وغائلة، وأخذ جانباً من الأمر منتظراً لعارضة تأتي بندم إبراهيم ويُسْرٍ في فكره إذاً واجَهَ قومه مَعَهُ بأَشَدّ من ذلك فقال لهم: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ(53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ(55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ(58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ(59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ(60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ(61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ(62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.. الآية.

هـذه هي المنـاظرات والمشـاجرات القوليـة، والأحـداث العمليـة الـتي وقَعَت بينه وبين أبيه وقومه، ثم اشتهر الأمر واستفحل الخطر، وراجَعَوا الملك حولَ الموضوع، واستقر الرأي على إحراقـه بالنـار، وجَعْـل ذرّاتِ جَسده كالغبار ليعتبر به أهل الديار! فقالوا: حرقوه وانصــروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فَاوْقَدُوا ناراً من حطب الشـمال، وكـان لهيبهـا يَعْلـوا عَلَى التِّلال، ولم يقدروا اَن يقتربوا منها، فَجَعَلوهُ في (منجنيق) منصوب على مرتفع مشرف على وادي النـار، فرَمَـوه بـه إليهـا وَاَلقَـوهُ فيهـا حـتى لا

يبقى الا قليل من الآثار، فحفظه الحفيظ العليم، حيث يقول: ﴿ قُلْنَا يَـا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

وأرادوا به كيداً (أي إحراقاً بمكيدة إستعمال المنجنيق) فنجينا إبراهيم وجَعَلْناهم الأخسرين، ولما نجا بحفظ مَنْ إليه يُلجا أمَر ملكُ الديار الآمرِ بإشعال النار بإحضار إبراهيم، فَأحْضروه، فخاطَبَه خطابَ العتو والعناد: من ربكَ الذي تدعو إليه العباد؟ قال إبراهيم الرشيد الأمين معرضاً عن بيان شخص رب العالمين إلى ذكر أوصافه العظيمة عند أهل التثبيت: وقال: ربي الذي يحي ويميت أي يحي من أرادَ خلقه وبقاءه ويميت من أراد زواله وفناءه، ومن جملتهم إبراهيم الماثل بين يديك الذي توكل عليه لا عَليك. قال نمرود الكافر مشيراً الى الحال الظاهر: انا أُحي من أردتُ بقاءه بإطلاق سراحه من السجون، وأُميت

من أريدُ زواله بسجنه أو الأمر بقتله وبالقائه في غياهب المنون. فانتقَلَ إبراهيم من غير عجزٍ عَن تحوير قوله وبيان المراد من أصله فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، وعلم الكل أن نمرود هو الذي خَسَر، فَرأىۦ اَنْ يُبْعِدَهُ من الديار. فَأمرَ بتهجيره بدون أيّ إستقرارۦ كما قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي الأردن والقدس وفلسطين.

وهذه هي الكلمات التي نبعت من رشـد القلب، وخـالص الـروح واللّب، وجرأة النفس والتوكل على ذات القدس، واستمساك الأعصاب لتحويل الأمة إلى الصّواب. وبعد الخلاص من مهلكة الكلمات وما اختبره به رب الأرض والسـماوات. وقـال لـه تعـالى ﴿إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ نبيـا ورسولاً ومنزلٌ عليك كلاماً فاْسترشدْ بِهِ وأرِشدِ الأنـامَ، وعلمهم العقائـد والأحكام، وَبّعـدْهم عن اَوسـاخ الأوثـان وأوهـام الأصـنام. قـال إبـراهيم متعالياً عن اختصاص نفسه مترجياً بقاء الدين في رديتـه لـدوام قدسـه. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فأجابـه رب العـالمين بقولـه: أمـا الصـالحون السـالمون فنعم، وأما الظالمون فلا وحاشـا وكلّا فـإن عهـدي بـالنبوة والرسـالة لا ينال أهل الضلالة، فإني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وحرّمتُ عهدي علي الظالمين.

فالكلمات هي تلك الكلمات التي نَبَعَت من عين الحياة وبَعَّدَ النَـاس عن الظلمات، وأما الخصال الثلاثون التي عَشْرٌ منهـا في سـورة بـراءة من قولـه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِـدُونَ﴾ إلى آخــر الآيــة. وعشــر منهــا في ســورة الأحـزاب ﴿إِنَّ الْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ﴾ الآيـة وعشـر منهـا في سـورة المؤمنون: ﴿قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ﴾ إلى قوله تعالى

أولئك هم الوارثون، وعشـر منهـا في سـورة المعـارج الـتي إذا جمعتهـا وتركت المكرر منها تبقى منها ثلاثون، والخصال الـتي كـانت فرضـاً في شــرعه وهي سُــنّة في شــرعنا، وهي خمس في الــرأس: الســواك، والمضمضـمة، والاستنشـاق، وقص الشـارب، وفَـرْقُ الـرأس، أي فـرق شعره - وخمس في البدن: الإسـتنجاء بالمـاء، والختـان، وحَلْـق العانـة، ونَتْـف الإبـط، وتقليم الأظـافر. ومناسـك الحج من الاحـرام، والطّـواف بالكعبــة، والسّــعي بين الصــفا والمــروة، ووقــوف عرفــات، ورمي الجمرات. فكل ذلك كان بعـد النبـوة والرسـالة وأخـذ الإمامـة وهي من الأحكام والآداب التي يقوم بها آحاد الأمة من الصالحين، وليسـت نقـاط الابتلاء للأنبياء والرسل من رب العـالمين. نعم إن الإلقـاء في النـار، ثم تهجيره من الديار، وتغريب ولده الممتاز الى بلاد الحجاز، والقيام بذبحه بلا تردد وانحياز، حقاً من المهمات المهمات، ولكنهـا كـانت بعـد إعطـاء عهد الرسالة وبعد نيل شرف المقام والجلالـة، وتلـك الأتعـاب، والإبتلاء بتلك الكلمات كـانت من الأسـباب لنيـل مـا نـال، والسـبب مقـدم على المسبب في كلّ حال. على أن التعب الذي له قيمة قائمة ما كان قبــل شرب لذات الوحي والمناجاة وإلا فالأتعاب بعده ليس له قـدر في جنب ما استفاد من أنوار الوحي والبركات.

(فائدة) غفل من نقد عصـمة الأنبيـاء والرسـل الكـرام وبمـا طـرأ على سـيدنا إبـراهيم عليـه السـلام من مقالاتـه عنـد رؤيـة الكـوكب والقمـر والشمس؛ فإن تلك المقالات كانت سوانح فكرية وعوارض نفسية قبـل إستقرار النفس على كرسي القـدس، فلم تكن عن إيمـان وإذعـان بـل كانت من بنات الأفكار الواردة على قلب الإنسان، ألا ترى أنه لما تــرك الخيـالات على الطـول والعـرض كيـف إسـتقر رأيـه وقـال: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات

والأرض؟ فكن في نحو هذه الخيالات على البصيرة، والله شهيد علي كل سريرة.

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ من الجعل بمعنى التصيير. وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام فيه للجنس أو للاستغراق العرفيّ. وقوله: ﴿إِمَامًا﴾ بكسر الهمزة اسم مفرد بمعنى القدوة الذي يأتم به الناس ويقتدون به، ويمشون على طريقه، ومنه قيل لخيط البناء إمام. ويحتمل أنه كان في الأصل مصدراً كصراف بمعنى القصد فجعل اسماً لمن يقتدي به، لأنه لما قصده الناس وراجعوه كثيراً صار كأنه القصد مبالغة، فاستعمل بمعنى المقصود. والذرّية: نسل الرجل، وأصلها الأولاد الصغار، ثم عمّت الصّغار والكبار الواحد والمتعدد، واشتقاقها إن كان من الذرّ المضاعف، كما ورد في الخبر، (ان الخلق كان كالذر) والياء للنسبة فوزنُها فُعْلِيَّة بضم الفاء وسكون العين وكسر اللام وياء النسبة وتاء التأنيث كالحُرِّيَّة. وإن لم تكن الياء لها فوزنها إما فُعُّولَة بضم الفاء وتشديد العين، وأصلها ذُرُّورَةٌ بذال معجمة وراء مهملة مشدّدة وواو ساكنة زائدة ثم راء ثالثة كذلك فقلبت الياء الأخيرة ياء على قانون القلب في المضاعف كما في تَقَضيّت. وأصله تَقَضّضْت كتعلّمت فاجتمعت الواو والياء فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسر ما قبلها للمناسبة. وأما فُعّيلَة بضم الفاء وكسر العين المشددة وأصله ذُرّيرَة بذال مضمومة وراء مشددة مكسورة وياء ساكنة زائدة وراء كذلك مفتوحة، قلبت الياء الأخيرة ياء وأدغمت الياء في الياء فصار ذرّيّة بضم الذال وكسر الراء المشدّدة وفتح الياء كذلك.

وإن كانت من ذرأ بمعنى خلق بالهمز فوزنه إما فُعّولة بضم الفاء وتشديد العين المضمُومة واصلها ذرّوءة بذال وراء مشددة مضمومة، وواو ساكنة زائدة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسرت الراء قبلها

للمناسبة فصارت ذُرّيّة. وأما فُعيلة بضـم الفـاء وكسـر العين المشـددة وأصلها ذرّيئَة فقلبت الهمزة ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت ذرّية.

وإن كانت معتل اللام الواوي مِن ذَرَتِ الريحُ الشئَ إذا اطارَتْـهُ وَاذْهَبَتْـهُ فَأَصْلُها ذُرّووَةٌ بـذال مضـمومة وراء مشـددة كـذلك وواو سـاكنة زائـدة وأخرى أصلية على وزن فعّولة، فـاجتمعت واوان زائـدة وأصـلية فقلبت الأصلية ياء فاجتمعت واو وياء والسابقة منهما سـاكنة فقلبت الـواو يـاء وأدغمت الياء في الياء فصار ذُرّيّـة. وقيـل: فُعّيِلـة وأصـلها ذُرّيـوَةٌ بضـم الذال وكسر الراء المشددة وياء ساكنة وواو مفتوحة فَأعِلّتْ كما مرّ.

وإن كانت من ذريت فوزنها إما فُعولَة وأصلها ذُرُّويـة فَـأعِلّت. أو فُعّيلـةَ فأصلها ذُرِّيية فأدغمت الياء في الياء. هذا.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ دليـل على عصـمة الأنبيـاء عليهم السلام من الكبائر قبـل البعثـة؛ لأن معـنى الآيـة الشـريفة أنـه لا ينال عهد الإمامة بمعنى النبوة والرسالة مَن كان حال وصول العهد إليه ظالماً، والظلم إذا أطلق ينصرف إلى الكبائر من الكفـر ومـا دونهـا من سائر الذنوب الكبيرة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِـذُوا مِنْ مَقَـامِ إِبْـرَاهِيمَ مُصَـلًّى وَعَهِــدْنَا إِلَى إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَــاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125)﴾

قولـه: وإذ جعلنـا أي واذكـر يـا حبيـبي. والجعـل للتصـيير فيتعـدى إلى مفعولين؛ أولهما البيت، والثاني مثابة. وعطف عليها أمنا. والبيت صار

علماً بالغلبة للكعبة الشريفة، كالمدينة لبلد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمثابة بمعنى المرجع أو محل الثواب وجزاء الأعمال، أو دخلت الهاء على المثابة للمبالغة لكثرة الناس الذين يرجعون إليه أي يحجون مرة بعد أخرى. أو المرجع والمثابة بمعنى المقصد للدخول فيه.

وقوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ أي وموضع أمن لا يتعرض لأهله مثل ما يتعرض لأهل سائر الأماكن، أو موضع أمن من عذاب الآخرة وعقاب الذنوب لورود الأخبار الكثيرة في حق الحجاج المخلصين لله تعالى بمغفرة الذنوب والأمان من العذاب.

واستدل به أبو حنيفة على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه وغيره على خلاف ذلك. وإن ذلك من المنسوخ لأن الإتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ويقتل خارجه. وإنما الخلاف في أنه هل يقتل في الحرم أم لا. والحرم لا يقع عليه اسم البيت.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ قرأه جمهور القراء بصيغة الأمر من باب الإفتعال، والجملة معطوفة على قوله وإذ جعلنا بتقدير القول أي وقلنا لهم: إتخذوا آه، والمقام في اللغة موضع القدمين. والأصح أنه الحجر الذي كان الناس الحجاج يصلون عنده ركعتي طواف القدوم. وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى البيت إستلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فصلى ركعتين قرأ فيهما بقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون.

وفي البخاري أنه الحجر الذي إرتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت، وغرقت قدماه

فيه قال أنس: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه. غـير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

وفي فتح البـاري: أنـه كـان المقـام أي الحجـر من عهـد إبـراهيم عليـه السلام لزيق البيت إلى أن أخّره عمر رضي الله تعالى عنه إلي المكان الذي هو فيه الآن. أخرجه عبـدالرزاق بسـند قـوي، وأخـرج إبن مردويـه بسند ضعيف عن مجاهد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي حَوَّلَـهُ أي إلى الموضـع الـذي بقي فيـه، وهـو بعيـد من الحجـر الأسـود بسبعة وعشرين ذراعاً. وعلمنا أن أمير دولة السعود حوله من موضــعه القـديم إلى أبعـد منـه، وذلـك لتسـهيل طـواف الحجـاج بـالبيت عنـد الإزدحام.

وروي أن سيدنا إبراهيم لما أذن في الناس بالحج قام على ذلك الحجـر ودعـاهم إليـه، والمشـهور أن دعـوة النـاس إليـه كـانت فـوق جبـل أبي قبيس فإنه صعده بعد الفراغ من عمارة البيت، ونادى أيها الناس حجـوا بيت ربكم، فإذا صحت الرواية مع ذلك المشهور فـالجمع هـو أنـه عليـه السلام أذَّنَ في الناس بالحج مرتين: مرة قام على الحجر ودعاهم إليه، ومرة أخرى صَعِد الجبل وأذَّن فيهم بالحج.

والذي أعتقده أن دعاء الناس إليـه كـان على ذلـك الحجـر عنـد الـبيت، وبمـا أن الـدعوة كـانت حسـب أمـره تعـالى بهـا تلقاهـا كـل روح قـدر لصـاحبها حج الـبيت الشـريف. وإذا ثبت الصـعود على جبـل أبي قـبيس وكان الدعوة عليه فلا كلام لأحد؛ إذ لا اجتهادَ مع النصّ. والله اعلم.

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث عمر أن النـبي صـلى اللـه عليه وسلم أخـذ بيـد عمـر رضـي اللـه عنـه فقـال: يـا عمـر هـذا مقـام إبراهيم، فقال عمر: أفلا تتخذه مصلي؟ فقال: لم أومر بذلك.

فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه الآية. والأمر فيها للإستحباب إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقاً. وقيل: المراد به الأمر بركعتي الطواف لحديث مسلم السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرناهما بأن طهِّرا. وأمره إبراهيم كان بالوحي وكذلك إسماعيل، إذا كان عند بناء البيت رسولاً، وإلا فعلى لسان أبيه إبراهيم عليهما السلام. والمراد بالنسبة إليهما تطهيره وما حوله من الأنجاس والأوساخ وكل مستقذر لا يناسب المعابد. ودخل في هذا الحكم جميع بيوته، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة وتخصيصه بالذكر لإنحصاره في الفرد إذ ذاك بالنسبة إلى الحجاز. ويدخل في متعلق التطهير الأصنام والأوثان وصورها وآثارها؛ لأنها من الأنجاس المعنوية التي يجب تطهير المعابد منها.

وقوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ قالوا: المراد بالطائفين الغرباء الواردون على البيت، وبالعاكفين المتوطنون. والظاهر أن المراد المعتكفون، وأن الطائف قد يكون غريبا وقد يكون متوطناً، وكذا المعتكف. فبينهما عموم من وجه. فقد يكون المسلم طائفاً وعاكفاً أي معتكفاً، وقد يكون طائفاً لا معتكفاً، وقد يكون معتكفاً لا طائفاً. وكل منهما مطلق يحتمل أن يكون مسافراً أو مقيماً وغريبا أو متوطناً. وإن المراد بالركع السجود هُمُ المصلّون الذين يؤدون صلواتهم بكمال الأركان والشروط. وخصّ الركوع والسجود بالذكر، لأن آثار الصلاة وهيأتها الخشوعية وهيبتها التعبدية تظهر فيهما أو للاحتراز عن صلاة اليهود الخالية عن الركوع والسجود.

واستدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت. قال الشافعي رضي الله عنه:

إن صلى في جوفها مستقبلاً حائطا من حيطانها فصلاته جائزة، وان صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة إلا إذا إرتفعت عتبته نحو ثلثي ذراع.

واختلفوا أيّهما أفضل: الصّلاة عند البيت؟ أو الطواف حوله؟ والجمهور على أن الصلاة أفضل. وقال مالك: الطّواف لأهل الأمصار أفضل والصلاة لأهل مكة أفضل. عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لولا فيكم رِجالٌ خُشَّع، وبهائم رُتَّعٌ، وصُبيان رُضع، لصب العذاب على المذنبين صبّاً.)) وفي حديث آخر (وشيوخ ركّع) وفي حديث أبي ذر: الصلاة خيرٌ موضوعٌ فَاسْتَكثِر أو اسْتَقِلّ. خرَّجه الآجري.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)﴾

قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ في صحيح مسلم عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة. وإني دعوت في صاعها ومدّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد

قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حـرام بحرمـة اللـه إلى يـوم القيامة، لايُعْضَد شوكُه، ولا يُنفَّرُ صيدُه، ولا تُلْتَقَط لقطته إلا من عَرَّفهـا، ولا يختلي خَلاها، (أي لا يقطع نباتها الرطب الرقيق ما دام رطباً) فقـال العبـاس: إلاّ الإزخـر فإنـه لِقَينهم ولـبيوتهم. فقـال: إلا الازخـر. أخرجـه مسلم الإزخر بكسر الهمـزة وفتح الخـاء، والقين: الحـداد يعـني يحرقـه الحداد لتحمية الحديد. وقوله لبيوتهم أي لتسقيف بيوتهم عند البناء.

دعا سيدنا إبراهيم ربه فقال: رب اجعل هذا المحل الـذي أمرتـني ببنـاء البيت فيه ودعوة النـاس إلى زيارتـه بلـداً معمـوراً بأهـل العلم والعمـل الصـالح مغمـوراً بكرمــك ذا أمن وأمــان، ومحفوظــاً من أهــل العنــاد والعدوان، ومغفـور الـذنب والعصـيان وارزق أهلـه مَن آمَنَ منهم باللـه واليـوم الآخـر من كـل مـا يسـتثمر من المـزارع والبسـاتين ومكاسـب المكتسبين، من: الأقوات، والفواكه، والأقمشة، والنقود، ممـا يحتاجونـه في المعاش، ويتقوَّون به على صلاح المعاد. فخصّ الخليل عليه السلام دعاءه ونداءه للمؤمنين تأدباً مع قوله تعـالى لا ينـال عهـدي الظـالمين، ولكن الله تعالى لوفور نعمتـه المبسـوطة لعبـاده إسـتدرك عليـه قـال: ومن كفر منهم فأمتِّعه متاعاً قليلاً بالنسبة إلى ما أُمَتـع بـه مؤمـنينَ في الآخرة، ثم اَضطَرّهُ وألْجِؤه إلى عذاب النار بحيث لا يبقى له مَفَـر منهـا لأنه في خدمة هواه بـاعَ آخرتـه بـدنياه، وبئس المصـير عـذابها! والعيـاذ بالله تعالى.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَـا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْـلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُـزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَـعُ﴾ عطـف على جملـة ﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ﴾ وإذ ظـرف غـير متصـرف مدلولـه الزمـان الماضـي، فـذكر المضـارع معـه إستحضار لهذا الشأن ليقتدي به المسلمون والقواعد: جمع قاعدة وهي الأساس. والمراد برفعها رفع الجدار، عليها، ففي ربط الرفع بها مجاز.

ذكر الباري هنا رفع القواعـد من إبـراهيم وإسـماعيل وذكـر في سـورة الحج أنه أراه موضعه فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَـا لِإِبْـرَاهِيمَ مَكَـانَ الْبَيْتِ﴾ أي عيّنـا له محله وعرفناه به، قيـل: دَلَّهُ عليـه بمزنـة كـان ظلهـا قـدر مسـاحته. وقيل: دلَّه عليه بريح تسمى الخجوج كنست عنه حتى ظهر أسه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل.

وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي متعبّداتنا في الحج أو مذابحنا. والنسـك في الأصـل غايـة العبـادة. وشـاع في الحج لمـا فيـه من الكلفـة والبعـد عن العادة. وعن زهير بن محمد قال لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بنــاء البيت الحرام قال: اَي ربّ قد فرغتُ فأرِنـا مناسـكنا فبعث اللـه تعـالى اليه جبريل فحجّ به حتى إذا رجع من عرفة وجاء يـوم النحـر عـرض لـه إبليس فقال له إحْصِبْه فحصبه بسبع حصيات، ثم الغد، ثم اليوم الثالث، ثم علا ثبيراً فقال: يا عباد الله اَجيبُوا. فسمع دعوته من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقال لبّيك اللهم لبَّيك.

وعن مجاهد: لما قال إبـراهيم عليـه السـلام: وأرِنـا مناسـكنا أي الصّـفا والمروة وهما من شعائر الله بنص القرآن، ثم خرج به جبريل فلمـا مـرَّ بجمـرة العقبـة إذا إبليس عليهـا فقـال لـه جبريـل: كبِّرْ وارْمِـهِ، ثم في الجمرة القُصْوى كذلك، ثم إنطلق بـه إلى المشـعر الحـرام، ثم أتى بـه عرفة.

فقال له: هل عرفت ما اَرَيُتك؟ قال: نعم فسميت عَرَفاتٍ لـذلك. قـال: فأذن في الناس بالحج. قال: كيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس أجيبوا ربَّكم ثلاث مـرات ففعـل، فقـالوا: لبيـك اللهم لبيـك. قـال: فمن أجـاب يومئذ فهو حاجٌ.

وقال محمد بن إسحاق: لما فرغ إبـراهيم خليـل الـرحمن صـلوات اللـه وسلامه عليه من بناء البيت الحرام جاء جبريل عليه السـلام فقـال لـه: طُفْ به سَبعاً. فطاف به سبعاً هو وإسماعيل عليهمـا السـلام يسـتلمان الأركان كلها في كل طواف فلما أكملا سبعاً صليا خلف المقام ركعتين. قال: فقام جبريل فأراه المناسك كلها الصفا والمروة ومنى والمزدلفة. قال: فلما دخل مِنى وهبط من العقبة تمثـل لـه إبليس، فـأمره جبريـل برميه بسبع حصيات إلى آخر ما تقدم. والله أعلم.

وقولـه تعـالى: ﴿رَبَّنَـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُـولًا مِنْهُمْ﴾ لم يـبين هنـا مَنْ هـذه الأمةُ التي أجاب الله دعـاء نبيـه إبـراهيم وإسـماعيل، ولا هـذا الرسـول الذي يبعث فيهم، ولكن بَين في سـورة الجمعـة أن تلـك الأمـة العـرب، والرسول هو سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله: ﴿هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولًا مِنْهُمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آَيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لأن الأمِّيّين العـرب بالإجمـاع. ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده. وقد

روى خالد بنُ مَعْدان اَنّ نفراً من أصحاب النبي صلى اللـه عليـه وسـلم قالوا له: يا رسـول اللـه أخبِرنْـا عن نفسـك. فقـال: نعم أنـا دَعْـوة أبي إبـراهيم، وبُشـرى عيسـى. وقـد أرسـل صـلى اللـه عليـه وسـلم إلى العالمين بنصوص الكتاب والسنة والمبعوث رحمة للعالمين مبعوث إلى العرب والعجم رحمة وإحسانا.

وقولـه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ﴾ الكتـاب هـو القـرآن. والحكمـة المعرفة بالدين. وقـال قتـادة: الحكمـة السـنة وبيـان الشـرائع. وقولـه: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهـرهم من وسـخ الشـرك والضـلال وسـوء الخصـال. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي الـذي يقهـر ويغلب على مـا يريـد، وقولـه ﴿الْحَكِيمُ﴾ وهو الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو عزيز حكيم بذاتـه وكـل من سـواه ذليـل جاهـل في نفسـه، فلا عـزة إلا منـه تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْعِـزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ جَمِيعًا﴾ ولا علم إلا من تعليمـه سـبحانك لا علم لنـا إلا علمتنـا إنـك أنت العليم الحكيم. قـال الإمـام الغزالي رحمه الله تعـالى: (والحكمـة عبـارة عن معرفـة أجـلّ الأشـياء بأجل العلوم. واَجَلّ الأشياء هو الله تعالى. ولا يعرف كنه معرفتـه غـيره فهـو الحكيم المطلـق؛ لأنـه يعلم أجـلّ الأشـياء بأجـل العلـوم. إذ أجـلّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله. والمطابق للمعلـوم مطابقـة لا يتطـرق إليهـا خفـاء وشـبهة، ولا يتصـف بـذلك إلا علم اللـه تعالى. وقد يقال: الحكيم لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمهـا ويتقن صنعتها.

وكمال ذلك أيضاً ليس إلا لله تعـالى فهـو الحكيم المطلـق. ومن عـرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسم حكيماً؛ لأنــه لم يعرف أجلّ الأشياء وأفضلها. والحكمةُ أجَـلُّ العلـوم وجلالـة العلم بقـدر جلالة المعلوم، ولا أجلّ من الله. ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان

ضعيف المنة في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيـان فيهـا إلا أن نسـبة حكمـة العبـد إلى حكمـة اللـه تعـالى كنسـبة معرفتـه إلى معرفته بذاته وشتان بين المعرفتين فشتان ما بين الحكمتين. ولكنه مع بعده عنه فهو اَنْفَسُ المعارِفِ وأكثرها خيراً. ﴿وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَـابِ﴾. نعم من عـرف اللـه كـان كلامه مخالفاً لكلام غيره. فإنه قلّما يتعرض للجزئيات بـل يكـون كلامـه جملياً، ولا يتعرض لمصالح العاجلة بل يتعرض لما ينفع في العاقبة.

ولما كـانت الكلمـات الكليـة أظهـر عنـد النـاس من أحـوال الحكيم من معرفته بالله تعـالى ربمـا أطلـق النـاس اسـم الحكمـة على مثـل تلـك الكلمات الكلية. ويقال للناطق بها حكيم، وذلك مثل قـول سـيد الأنبيـاء عليـه الصـلاة والسـلام: ((رأس الحكمـة مخافـة اللـه، الكَيّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَنْ اتْبَعَ نفسَه هواهـا وتمنّى على الله الأماني ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، السعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغْـيره، القناعةُ مالٌ لا يَنْفَدُ الصبر نصف الإيمان، اليقين الإيمان كله...)) فهـذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً انتهى كلامه.

ثم إن في الآية إشارة إلى أن إرسال الرسل حكمة أي مصلحة وعاقبـة حميدة، لأن عمارة الظاهر وإثارة الباطن بهم لا بغـيرهم. ولـوَرَثتهم من العلماء العـاملين والأوليـاء الكـاملين حـظ أوفى وأعلى في بـاب تزكيـة النفوس عن الرذائل وتحليها بالفضائل. وهم الذين تزين ظاهرهم باتباع الكتـاب والسـنة السـنية وتنـور بـاطنهم بـأنوار أخلاق صـاحب الشـريعة المصطفوية. وهم المؤمنون المتّقـون. وهم الاصـحاب الصـادقون، وهم المعـنيون بقولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾ وهم الذين يتنور اللاحقون بصحبتهم، فينالون درجـة السابقين.

والحكمة في عرف العلماء: علم بأحوال الحقائق الموجودة بقدر الطاقة البشرية فإن كانت تلك الحقائق أعمالاً في وجودها مدخل لاختيارنا فالعلم بها تسمى الحكمة العملية، وإلا فالحكمة نظرية. وتنقسم الأولى إلى علم. تهذيب الأخلاق، وتدبير المنزل، وسياسة المدن. والثانية إلى الحكمة الإلهية والرياضية والطبيعية ولكل منها أصناف.

وتطلق الحكمة في عرف أهل الدين بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً وعملاً وهذه هي المقصودة بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)﴾ اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم بمنك وفضلك يا أرحم الراحمين.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ آه جملة معطوفة على ما قبلها عطف، القصة على القصة والإستفهام إنكاري واستبعاد لأن يكون أحد من العقلاء يرغب. عن ملة إبراهيم ودينه والتوحيد الذي نشره في العالَم.

وقوله إلا من سفه نفسه أي إلّا من أذَلَّ نفسه وحقَرها واستخف بها لأن العاقل العزيز النفس يغتنم فرصة الدنيا في الحصول على أسباب السعادة، فإذا أوجدها إهتمّ بها.

لما وقوله: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ بيان وحجة تقدم. ومعناه إنا إخترناه للرسالة ودعوة الناس إلى الهدى ومنعهم عن الضّلالة وأمرناه ببناء بيت عزيز الجانب عالي المراتب والأذان بالناس ليحجّوه من الأطراف والأكناف، وجعلناه إماماً لذريته ولسائر البرية في ملة التوحيد السنية في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين لنيل المراتب العالية، أو من المشهود لهم بالفوز والصّلاح. فكيف يعرض العاقل عن إتباع ملّة التوحيدية؟

وقوله ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ ظرف لقوله إصطفيناه أي اصطفيناه للرسالة والإمامة عندما قلنا له اَسْلِم وَجهَك لله وحدَه فبادَرَ إلى الاذعان بقلب أمين وقال: أسلمتُ لرب العالمين.

وقوله تعالى:

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾

أي وصّى إبراهيم عليه السلام بملته التوحيد أو بجملة ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وصية بليغة أكيدة وكررها مرات كثيرة وبمناسبات عديدة. بنية الأربعة: إسماعيل، وإسحاق ومدين، ومدان، وإبن إبنه يعقوب إبن إسحاق ودخل في البنين لأن إبن الإبن ابنٌ عرفاً. وأكبر أولاده إسماعيل وأمه هاجر القبطية، وولد قبل أخيه إسحاق بمدة قيل أربع عشرة سنة، وقيل دون ذلك. ونقله أبوه مع أمه هاجر إلى مكة وهو رضيع، وهو الذبيح المُفَدّى من الله تعالى، ومات في مكة وله مائة وتسع وثلاثون سنة.

ثم إسحاق وأمه سارة وعاش مائة وثمانين سنة، ومات بالأرض المقدسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام.

ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السـلام (قنطـورا) بنت (يقطن) الكنعانية فولدت له مدين ومدان وأولاداً آخرين.

وقرئ يعقوب بالنصب على أنه كان موجـوداً بين الأولاد عنـدما وصـاهم الخليل عليه السلام وقرئ بالرفع عطفاً على إبراهيم أي وصى يعقــوب أيضاً بنيه بالملـة الحنيفيـة الإبراهيميـة. روي أنـه لمـا دخـل مصـر ورأى النــاس يعبــدون الأصــنام خــاف على أولاده من الإنحــراف فوصــاهم بالتوحيد على التوكيد.

وقوله ﴿يَـا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَى لَكُمُ الـدِّينَ﴾ أي دين التوحيـد هـو دين الحق واختـاره تعـالى لكم فلا تمـوتن إلا وأنتم مسـلمون عـاكفون على التوحيد فَتَحيَون موحّدين وتموتون مسلمين.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَـوْتُ إِذْ قَـالَ لِبَنِيـهِ مَـا تَعْبُـدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِـدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ (133) تِلْـكَ أُمَّةٌ قَـدْ خَلَتْ لَهَـا مَـا كَسَـبَتْ وَلَكُمْ مَـا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)﴾

قوله تعـالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُـهَدَاءَ﴾ كلمـة أم إمـا متصـلة وعـديل المـذكور محذوف. والتقدير: أكنتم غائبين أم كنتم حاضرين عنـد إحتضـار يعقـوب عليه السلام إذ قـال لبنيـه مـا تعبـدون من بعـدي فيحثهم على التوحيـد والتزام ملـة إبـراهيم؟ وليس الإسـتفهام على حقيقتـه بـل هـو للالـتزام والتبكيت. والمعــنى أنتم ســواء كنتم غــائبين أو حاضــرين فقــد رغب يعقوب في التوحيد الذي هو ملـة إبـراهيم وقَـدْ بعث محمـد صـلى اللـه عليه وسلم لتقريره فلم لا تقتدون بجدِّكم ولم لا تهتدون بخاتم النبيين؟ وإما منقطعة بمعنى بل للإضراب وهمزة الإنكار ومعناهـا الإضـراب عن الكلام الأول وهو بيان

توصية أجدادكم على التوحيد إلى تـوبيخ اليهـود على إدعـائهم اليهوديـة على يعقوب مع أنه كان ساعياً في نشر التوحيد الذي هـو ملـة إبـراهيم حتى حين احتضاره.

وقولـه: ﴿إِذْ قَـالَ لِبَنِيـهِ﴾ بـدل من إذ حضـر وأراد عليـه السـلام بـذلك تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثـاقهم على ذلـك فسـألهم مـاذا الذي تعبدونه من بعد موتي؟ فأجابوا بأنا ثـابتون على مـا كنـا عليـه من التوحيـد ونعبـد إلهـك وإلـه آبائـك إبـراهيم وإسـماعيل وإسـحاق عليهم السلام المتفقين على توحيد الباري تعالى في وجوب الوجود والخالقيـة والمعبوديـة إلهـاً واحـداً لا تعـدد لـه في ذاتـه ولا شـريك لـه في صـفاته وأفعاله ونحن له مسلمون وعـد إسـماعيل من الآبـاء تغليبـاً لأكـثر على الأقل أو لأنه كالأب لقوله صلى الله عليه وسلم عمّ الرجل صنْو أبيه.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَـدْ خَلَتْ﴾ الإشـارة إلى إبـراهيم وأولاده عليهم السلام. والأمة في الأصل المقصود أتت بمعانٍ منها الجَماعة. والمعنى: إن إنتسـابكم إليهم لا يـوجب إنتفـاعكم بأعمـالهم، وإنمـا تنتفعـون بموافقتهم في أعمـالهم كمـا قـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: يـا معشـر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون. فكونوا بسبيل من ذلك فانظروا أن لا يلقـاني النـاس يحملـون الأعمـال وتلقـوني بالـدنيا فَأصُـدَّ عنكم بـوجهي. وهـذا جـارٍ على طريـق العـدل الـذي يجب للإنسـان المسـلم الإعتماد عليه. وانتفاع الإنسان بأعمـال غـيره جـارٍ على طريـق الفضـل وعليه شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والمرسـلين والناس الصالحين للأمة أو لذوي القرابة والصداقة لهم. ورعايـة العـدل أحق بأهل التكليف وإن كان الفضل ثابتاً للتشريف. وقوله ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسـيآتهم كمـا لا تنتفعـون بحسـناتهم عدلاً، وإن جاز بل ثبت

ذلك فضلاً لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الآية الحادية والعشرون من سورة الطور.

وكما ثبت في الصحاح من حج الإنسان وصيامه عن المتوفين من الآباء والأمهات وتقرر إنتفاع الموتى بما يعمل وراءهم من الخيرات والصدقات ومن أداء الديون ومن إستغفار الأنبياء للوالدين وسائر المسلمين والمسلمات النازلة في الآيات ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا﴾ الآية الضمير راجع لأهل الكتاب، والجملة معطوفة على ما قبلها عطفَ القصة على القصة. يعني وقالت اليهود للمسلمين: كونوا هودا تهتدوا. وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا. وقل يا حبيبي في رد ما قالوا: بل أنتم إتبعوا ملة إبراهيم جدّكم الأعلى من دينه توحيد الله تبارك وتعالى حالكونه حنيفاً مائلاً عن الباطل إلى الحق، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، وهو ما كان في

زمان من الأزمان من المشركين، ولم يكن على نحو ما كنتم عليه من الإشراك والضلال.

وقوله: ﴿قَالُوا﴾ الآية خطاب للمؤمنين أي قولوا لأهل الكتاب مقررين لهم طريق الصواب: آمنا بالله وحده لا شريك له، وما أنزل إلينا من القرآن الكريم، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من الصّحف السماوية وهي وإن نزلت على سيدنا ابراهيم لكن لما كان من عطف عليه متعبدين بها صح القول بنزولها إليهم أيضاً لاسيما إذا كان من جملة آياتها تعميمُها حكمها لأولاده وعقبه وما أوتي موسى من التوراة، وعيسى من الأنجيل. وخصا بالذكر لكون كتابهما متأخراً عن صحف إبراهيم بقرون وأحكامها مختلفة مع أحكامها في شؤون، لاسيما لما مدت إليهما أيدي التحريف توهم أن لا عبرة بهما مع أن الأصل أصل وإن كان الفرع فصلا، ولما لم يصرح ببعض الرسل وما أوتي من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ﴾ ولم يذكر هنا داود عليه السلام مع أنه تعالى قال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ والحال أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل سواء المذكورون في القرآن الكريم وغيرهم، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ زاد الله تعالى عطفاً على من سبق ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الرسالة وإن كان فرق ما بينهم في الفضل والجلالة كعموم الدعوة وخلود دينه أو كثرة نصَبه وتعبه في سبيل الإرشاد، ونحن له مسلمون مخلصون منقادون مطيعون في وصاياهم وسجاياهم والأسباط جمع سبط كأحمال وحِمل. وهم أولاد يعقوب عليهم السلام، مأخوذ من السبط وهو شجرة كثيرة الأغصان فكأنهم سموا بذلك لكثرتهم وقيل للحسنين: سبطا

رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنتشار ذريتهم. ثم قيل لكل ابن بنت سبط، وكذا قيل له حفيد أيضاً.

(فائدة) المشهور عند أرباب العربية أن لفظ (أحد) المستعمل في النفي العام مطلقاً أو مع كل في الإثبات همزته أصلية بخلاف ما أستعمل في الإثبات بدون كل، فإن همزته منقلبة عن الواو. وقال العلامة التفتازاني إن أحداً في معنى الجماعة بحسب الوضع لأنه إسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع. ويشترط أن يكون إستعماله مع كلمة كُلّ أو مع النفي نص على ذلك أبو علي وغيره من أئمة العربية. وهذا غير (أحد) الذي هو أول العدد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (أي فهو بمعنى الواحد وأصله الواو) وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي على ما سبق إلى كثير من الأوهام. ألا ترى أنه لا يستقيم (لا نفرق بين رسول من الرسل) إلا بتقدير العطف أي رسول ورسول ولستن كأحد من النساء ليس في معنى كإمرأة منهن إنتهى.

أي بل في معنى أيّ واحد وأيّ جماعة منهن. أي أنتن بمنزلة وهن بمنزلة أخرى إحتراماً واحتشاماً لأن بيت الرسالة ينبوع الأصالة فوجبت رعاية الإحتشام فيه أكثر من غيره.

وفي روح المعاني إعتراضاً على قوله: ألا ترى أنه لا يستقيم لا نفرق بين رسول من الرسل الخ ما نصّه دعوى عدم الإستقامة إلا بذلك التقدير غير مجمع عليه. فقد ذكر في الإنتصاف أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً عموماً شمولياً حتى ينزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الآحاد مُطابَقَة، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أنّ مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات. وجعل هذا التعدد والعموم وضعاً هو المسوغ لدخول بين عليها هنا. إنتهى.

وقال بعض المحققين: لفظ (أحد) أصله وحَدْ بمعنى واحد وحيث وقع في سياق النفي عمّ واستوى فيه الواحد والكثير، وصحّ إرادة كل منهما وقد أريد به هنا أي في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ الجماعة ولذا صح أن يضاف إليه (بين) ويفيد عموم الجماعات إنتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ﴾ الباء زائدة للتوكيد، أي فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم بالله تعالى وحده وتصديقاً خالصاً خالياً عن النفاق والشقاق والغلو والإفراط والتفريط، فقد اهتدوا طريق الحق والصراط المستقيم. وإن تولوا عن هذا الإيمان والإذعان، فإنما هم في شقاق ومخالفة وعداء وعناد، ولا تهتم بهم وبمخالفتهم فسيكفيكهم الله أي فَسَيكفي اللهُ رَسولَهُ اَعْداءه ويحفظُه عن عدائهم وهو السميع لقول كل قائل العليم بما ينفذه في عباده في جزاء أعمالهم. وقوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ منصوب على أنه بدل من ملة إبراهيم أو على الإغراء أي ألزموا صبغة الله، أي دينه وكتابه، فهو الحق بجعله ميزة للإنسان المشرف بنور الإسلام تميزه عن الإنسان المصبوغ بصبغة الأوهام والآثام، أي مثل تصبغ اليهود أبناءَهم يهوداً، والنصارى تصبغ أبناءهم نصارى، وإن صبغة الله الإسلام. وروي عن مجاهد والحسن وأبي العالية وقتادة الصبغة: الدين. وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه المعمورية ويقولون: هذا تطهير لهم. وسرّه عندهم أنه الماء الذي غسل به سيدنا عيسى طفلاً، ويجعلون هذا الغسل مكان الختان. فرد الإسلام على ذلك كله واعتبره من الأوهام، وجعل الشعار الشريف للمسلمين وأولادهم الإسلام ونزل القرآنُ بقوله تعالى صبغة الله ومَن أحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون.

وقيل معنى قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ غُسْلَ الله أي ألزموا غسلاً قرره الله لكم عند دخولكم في الإسلام وفرضه عليكم للتعبير عن تنظيف

قلوبكم وقوالبكم من أوساخ الكفر والضلال. وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما. روى أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ثمامة الحنفي أسِرَ فمرَّ به النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فأسلم، فبعث به إلى حائط أي بستان من النخل كان لأبي طلحة فَأمَرَهُ أن يغتسل فاغتسل، وصلى ركعتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حَسُنَ إسلامُ صاحِبِكم. وخرّج أيضاً عن قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يغتسل بماء وسدرٍ ذكره النسائي وصححه أبو محمد عبدالحق.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أي أتجادلوننا في شأن ربنا واصطفائه نبياً من العرب دونكم والله أعلم حيث يجعل رسالته روي أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منّا فلو كنت نبياً لكنتَ مِنّا فنزلت والمعنى: أن إرسال الرسول إن كان من إحسان الربوبية فهو ربنا كما أنه ربكم وإن كان من المواظبة على الأعمال فنحن مواظبون عليها مثلكم علاوة على ذلك إنا مخلصون في الطاعة لسنا كهيئتكم إذا جاء ما يسركم تطيعون وإلا ترفضون. فنحن أحق بإرسال الرسول منكم.

وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ كلمة أم منقطعة بمعني بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني بل أيقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أي على دين يهود مع أن كتابهم وهو التوراة لم ينزل إلاّ بعد إرسال موسى، أو كانوا نصارى أي على دين النصارى مع أن كتابهم وهو الإنجيل تأخّر عن وفاتهم بقُرون. قل لهم أأنتم أعلم بحال أولئك الرسل السابقين أم الله تعالى؟ والله يعلم إنهم لم يكونوا على ما تنسبونهم إليه بل عندكم العلم ببراءتهم من ذلك، وكان الواجب عليكم الشهادة بأنهم كانوا حنفاء على ملة التوحيد فلم تكتمونها؟ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من علم واصل إليهم من الله لا شك في مطابقة الواقع فإذا كتمتموه فاعلموا أن الله عليم وَمَا الله بِغافِلٍ عما تعملون وَسَتَرَوْنَ جزاء العلم والكتم.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الآية كررت للمبالغة في الزجر عما هم عليه من العناد والإستكبار والإعتماد على شرف الآباء والإغترار بذلك وعدم الإهتمام بمغبة العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة، ووعيد لهم على ذلك بأن الله يجزيهم على ما هم عليه وإنهم يرجعون إليه للميزان والحساب وهذا الداء العضال هو الذي ابتلى به كثير من الناس الذين ينتسبون إلى آباء أشراف فضلاء أتقياء علماء حيث إعتبروا إنتسابهم إليهم كل شيء واغترّوا بذلك وتكاسلوا عن أداء ما في ذمتهم من الإقتداء بهم بل بمن اقتدوا به أعني الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يصلوا إلى ما وصلوا إليه ويحصلوا على ما حصلوا عليه، بل تَعَدَّوا عن ذلك واعتبروا أن ذلك الإنتساب رفع عنهم أنصابَ الحساب ونسأل الله أن يحفظنا عما يوجب سوء القضاء ويوفقنا لما يحب ويرضى، إنه سميع قريب مجيب.

الجزء الثاني

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)﴾

النزول عن قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ وعند ذلك حوّل قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ قال العلماء: هذه الآية مؤخرة في الله التوجه من بيت المقدس إلى الكعبة فقالت اليهود الخفاف العقول ما قالوا.

وقال القرطبي: أعلم الله تعالى أنهم سيقولون عند تحويل المؤمنين من الشام (يريد بيت المقدس) إلى الكعبة: ما ولّاهم؟ وسيقول بمعنى قال جَعَلَ المستقبلَ موضع الماضي دلالة على إستدامة ذلك وإنهم يستمرّون على ذلك القول. والمراد من السفهاء جميع من قال ما ولّاهم، سواء

كانوا من اليهود أو من غيرهم، والسّفهاء جمع سفيه بمعنى خفيف العقل.

وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري: إن العلماء إختلفوا في الجهة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إليها في الصلاة وهو بمكة. فقال ابن عباس وغيره رضي الله عنهم: كان يصلي إلى بيت المقدس. وقال آخرون: كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس. وأطلق آخرون إنه كان يصلي إلى الكعبة فلما تحوّل إلى المدينة إستقبل بيت المقدس، وهو ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين والأول أصح لأنه يجمع بين القولين. وقد صححه الحاكم وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وكأنّ البخاري أراد الإشارة إلى الجزم بالأصح من أن الصلاة لما كانت عند البيت كانت إلى بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ إستفهام إنكاري من السفهاء، أي ما الذي صرفهم من قبلتهم التي كانوا عليها وهي بيت المقدس، وما كان يحق لهم ذلك الصرف والإنحراف لأنه كان قبلة الأنباء السابقين؟

وقوله ﴿قُلْ﴾ أي قل في ردّهم وإرشادهم عن الخطأ إلى الصواب ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون آخر ولا شرف بالذات لأيّ محلّ وإنما الشرف يحصل بتجلي الرحمة من الله تعالى عليه وهذا الحكم الحكيم هو الصراط المستقيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم للسلوك عليه، وذلك الصراط عبارة عما شرعه وقرره لا ما تقرونه وترتضونه.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الآية إشارة إلى معنى الآية السابقة أي وكما قررنا أن القبلة هي ما ارتضاها الباري وهديناكم

إليها، جعلناكم يا أمة محمد على سبيل الإلتفات نحوها أمة وسطاً خياراً متصفين بالعلم الصحيح والعمل الصالح لتكونوا شـهداء على النـاس أي أمم الآخـرين بتبليـغ الأنبيـاء إليهم مـا شـرعه اللـه تعـالى لهم. ويكـون الرسول النبي العربي المختار محمد صلى الله عليه وسلم شـهيداً علي زكائكم وصحة شهادتكم على الأمم. روي أن الأمم يوم القيامة ينكـرون تبليغ الرسل إليهم ويطلبـون منهم الشـهود لإثبـات التبليـغ فيـؤتى بأمّـة الرسول محمد صلى الله عليـه وسـلم فتشـهد لأولئـك الرّسـل بالأمانـة والتبليغ، فيطلبون هناك تزكية هذه الأمة الشاهدة فيؤتى بسـيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم فيشهد بِعدالتها وصحة شهادتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي ومـا جعلنـا القبلـة التي كنت عليها قبل الهجرة وبعدها وهي بيت المقدس إلا لنعلم ويتعلق العلم بمن يتبـع الرّسـول مّمن ينقلب على عقبيـه، أي ممن لـه تـردد نفسي ويرتدّ من دين الهدى إلى ديـدَن الهـوى من العـرب الـذين اَلِفُـوا الكعبةَ ولا يستحبّون غيَرها، ومن اليهود الذين يختارون دين اليهـود على دين الإسلام، ولو كُنتَ متوجهـاً إلى بيت المقـدس الـذي كـان ولا يـزال قبلتهم. فلما ظهر حال العرب المسلمين وأنهم يتوجهون إلى مـا توجـه إليه الرسول وحالُ اليهود وانّهم لا يتركون دين اليهود، ولو تـوجهتَ إلى قبلتهم حَوَّلناك إلى القبلة التي ترضاها روحاً وهي الكعبـة الشـريفة، أي أنّ التوجه إلى بيت المقدس كان شيئاً عارضـاً والتوجـه إلى الكعبـة هـو الأصل الثابت بالنسبة إليك وإلى دين الإسلام. فذلك الجعـل هـو الجعـل المنسوخ بالتوجه إلى الكعبة.

ومنهم من قال: إن معناها وما جعلنـا القبلـة الـتي أنت عليهـا الآن وهي الكعبة الشـريفة على زيـادة كـان وإن قولـه ﴿كُنْتَ عَلَيْهَـا﴾ بمعـنى أنت عليها

وكان للتأكيد. إلا لنعلم من يتبع الرّسول المتحول إلى الكعبة من العرب الذين يتوهم فيهم ضعف الإيمـان والإرتـداد بسـبب التغـيرات في شـأن القبلة ومن اليهود الذين يتوهم إرتـدادهم بسـبب تـرك التوجـه إلى بيت المقدس والتحول إلى الكعبة الشريفة فهذا الجعل هو الجعل الناسخ.

وقولـه تعـالى: ﴿وَإِنْ كَـانَتْ﴾ إن مخففـة من المثقلـة، واللام هي اللام الفارقة بين أن النافية والمؤكدة، وضمير كانت راجع إلى نسـبة الجملـة السابقة، والمعنى المؤكّد أن تلك التحويلـة كبـيرة وثقيلـة على النفس، إلّا على الذين هداهم الله إلى التقبل للأحكـام. وقولـه: ﴿وَمَـا كَـانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ المراد بالإيمان الإيمان بالقبلة المنسـوخة والعمـل على مقتضاه أو الصّلوات التي صلاّها المسلمون متوجهين إليها.

والجملة لمن قالوا يا رسول الله كيف حالُ مَن مات قبل التحويل حيث تبين أنهم ما توجهوا إلى قبلتنا اليوم؟ أو كيف حال صَلَواتنا قبل التحويل هل صحت ومضت أو نَقْضيها؟ فنزلت وما كان اللـه ليضـيع إيمـانكم إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيم.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَـةً تَرْضَـاهَا فَـوَلِّ وَجْهَـكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عَمَّا يَعْمَلُـونَ (144)﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى﴾ الآية قال العلماء: هذه الآية مقدمـة في الـنزول على قولـه تعـالى سـيقول السـفهاء من النـاس. قولـه تعـالى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية أي تردّد وتحول وجهك في السماء إنتظاراً

للوحي ينزل عليك بتحول وجهك إلى الكعبة، وكان يتوجه صلى الله عليه وسلم إلى السماء لأنها قبلة الدعاء فإن الوحي كان ينزل منها كما أن النور والضياء والأمطار والأنداء والبركات تنزل منها. فقد قال تعالى: إنا انزلناه في ليلة القدر. وإلا فالباري لا مكان له ولا يجري عليه زمان وهو مع كل داعٍ وساعٍ معيةَ العلم والقدرة.

وفي صحيح البخاري في كتاب الصلاة من باب الإيمان: حدثنا عمرو ابن خالد قال: حدثنا زهير قال: حدثنا أبو إسحاق عَنِ البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة على أجداده أو قال أخواله من الأنصار، وإنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً. وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنه صلى أوّل صلاة صلّاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممن صلّى معه، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبَلَ مكة فداروا كما هم قبل البيت.

وفي فتح الباري قوله: ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً كذا وقع الشك في رواية زهير ثم نقل رواية سبعة عشر أيضاً. ثم قال: والجمع بين الروايتين سهل بأن يكون مَنْ جزم بستة عشر لفّق مِن شهرِ القدوم وشهر التحويل شهراً وألغي الزائدَ. وَمَن جَزَم بسبعة عشر عَدَّهما معاً. وَمَن شك تردد في ذلك. وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح. وبه جزم الجمهور. ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباسي. انتهى المقصود. ثم علّق على قول البخاري وإنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر ما نصه: والتحقيق إن أول صلاة صلّاها في بني سَلَمَة

لما مات بشرُ بن البَراء بن مَعرور الظهر وَأوّل صلاة صلّاها صلّاها بالمسجد النبوي العصر. وأما الصبح فهو من حديث ابن عمر بأهل قباء.

والحاصل: أنه صلى الله عليه وسلم بعد قدوم المدينة المنورة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتالِ بدر بشهرين في مسجد بني سلمة. وقد صلّى بأصحابه في مسجد بني سَلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب فتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي فلنوجّهنك إلى قبلة أنت ترضاها وهي الكعبة الشريفة. فول وجهك شطر المسجد الحرام، أي لأنها داخلة فيه. وقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أنزله لدفع توهم إختصاص التحول بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بوقت الوجود في المدينة المنورة. يعني أن تحول القبلة عامّ شامل لك ولأصحابك ولسائر أمتك أينما كنتم من الأرض في المدينة أو غيرها من المغرب أو المشرق أو الجنوب أو الشمال فحيثما كنتم من الأرض فولوا وجوهكم شطره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس شيئاً غريباً مجهولا عند علماء التوراة والإنجيل؛ لأنهم كانوا يعلمون بمطالعة كتابهم أن النبي الأمي المبعوث في آخر الزمان صاحب القبلتين، فيتوجه في صلاته إلى بيت المقدس، وإلى الكعبة، وأنه الحق من ربهم فاستنكارهم لذلك التحويل عناد واستكبار، وما الله بغافل عما يعملون وأنه يجازيهم عليه يومَ يُبعثون.

واختلف العلماء المجتهدون في معنى لفظ الشطر، وفي كيفية التوجه إلى الكعبة: ومما لاشك فيه أن الشطر ظرف مكان وجاء بمعنى نصف الشيء وجهته. ولا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلةٌ في كل أفق، وأجمعوا على أن من شاهدها وعايَنَها فرض عليه إستقبالُها، وأنه إن ترك إستقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له. واختلفوا: هل فرضُ الغائب إستقبال العين أو الجهة؟ فالصحيح عند الشافعية أن الواجب إصابة عين الكعبة. وبه قال بعض المالكية ورواية عن أحمد. وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية راجحة ومالك على ما نقله أكثر الموالك: أن الواجب إصابة الجهة وحكاه الترمذي عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن المبارك.

ويستدل الشافعي رضي الله عنه بظاهر معنى الشطر وهو النصف في قوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ اي إلى نصف عينها أي منتصفها.

وبحديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله وعليه وسلم لما دَخَل الكعبة (عام الفتح) خرج فصلى إليها وقال: هذه هي القبلة. رواه البخاري ومسلم. واحتج المعتبرون للجهة بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة.. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وصح ذلك عن عمر رضي الله عنه موقوفاً عليه.

ومما ينبغي أن يعلم أن مراد الشافعي رضي الله عنه بوجوبه إصابة عين الكعبة على الغائب السعي حتى يظن ظناً مؤكداً أنه أصاب عينها. ومراد الأئمة الثلاثة بالإكتفاء بالجهة هو إصابة الخط الخارج من عين الغائب إلى جزء من جانبي الكعبة يمينها أو يسارها بقدر لا جواز خروجه

وانحرافـه عن جانبيهـا يمنـة أو يسـرة. وهـذا أيضـاً مبـني على إعتقـاد المستقبل يدل على ذلك عبارة فقهاء المذاهب المحققين.

فمن غاب عنها إذا وجد ثقة يخبره عن عينها وجب عليـه العمـل بقولـه، ومثـل المخـبر عن علم محـلّ صـلاة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم واتجاهه، فلا مجال للإنحراف عنه مطلقاً، فإن لم يجد أحـداً يخـبره عن علم إجتهد بما عنده من الأدلة من كـوكب القطب، أو مغـرب الشـمس ومشرقها، أو الريـاح الشـمالية واتجاههـا، أو مـا يعتمـد عليـه من الظن الأكيد الحاصل له من معرفة طول البلد وعرضه، وطول مكة المكرمــة وعرضـها، ومن ذلـك وجـود أبـرة القطب المجربـة لمن يعـرف الطـول والعرض، فإن لم يقدر على الإجتهاد قلد مجتهداً. فإن تحير صـلي كيـف شاء، حتى لو صلى أربع ركعات لأربع جهات صحت صلاته. لكن إذا تبين خطأه بعدها أعاد صـلاته عنـد الشـافعي دون الأئمـة الآخـرين، وتفصـيل الموضوع في كتب الفقه.

وتعلم أدلة القبلة فرض عين على المكلف كمعرفة الصلاة وأركانها عند بعض، وفرض كفاية عنـد آخـرين. والمقـام فيـه تفصـيل عنـد المحققين فمن كان حضرياً فالوجوب بالنسبة إليه على الكفاية لأنه مـا دام هنـاك من يعرف القبلة فليس عليه أن يتكلف، ومن كان مسافراً وحده أو مـع عامة جهلاء يجب عليه العلم بها قطعاً. هذا كله في غـير صـلاة الخـوف وفي غير النافلة في السفر، لأن إستقبال القبلة ليس بواجب عليهما إلا في تكبير التحرم علي تفصيل في الموضوع. والله أعلم.

ومن أدلة القبلة الكوكب الصغير المسـمى بـالقطب الشـمالي فإنـه إذا وقف الإنسان المستقبل للجنوب بحيث إذا إلتفت إلى اليمين رأى ذلــك الكوكب خلف الأذن اليمـنى فقـد اتجـه إلى القبلـة وهـذا جـار ممـا بين همدان والموصل. ولكن مع فرق يسير فإنه يراه في همدان بأدنى ميل يميني،

ويحتاج إلى زيادة في الموصل وما والاها. وإذا وصل إلى الشام يقع الكوكب محاذياً لظهر الواقف ولا يراه بالتيامن.

ومن أدلته: مشرق الشمس في أول الشتاء ومغربها في أول الصيف فإن الواقف إذا توجه إلى منتصف ما بينهما فقد توجه إلى القبلة في العراق وما والاها شرقاً أو غرباً. ويحتاج هذا إلى الدقة في أخذ المنتصف.

ومن أدلته: أبرة القطب فإنها إذا وضعت زجاج الدائرة على أرض مستوية وتوقفت الأبرة عن الحركة فقد أخذت تجاه خط الجنوب اي خط نصف نهار البلد، فإذا مِلْتَ إلى غربيّ الأبرة بقدر تفاوت درجات طول بلدك عن درجات طول مكة المكرمة فقد إتجهت إلى القبلة. مثلاً إذا كان طول مكة ثنتين وسبعين درجة وطول بلدك تسعين درجة فمِلْ إلى غربي الأبرة ثماني عشرة درجة. وهكذا.

ومن أدلتها: مقام صلى فيه صلى الله عليه وسلم فالوقوف على منهاج وقوفه كالإستقبال لعين الكعبة بلا فرق، ولا يجوز الإجتهاد فيه مطلقاً.

ومنها: محاريب مساجد المسلمين التي مضى عليها الزمان. لكنه يجوز الإنحراف عن اتجاهها قليلاً يمنة ويسرة حسب الأدلة الموجودة عنده المستقبل. وأما المصلّى الواقع في المقابر فلا إعتناء به ولا إعتماد عليه إلا إذا أقره العارف العادل.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آَيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)﴾

قوله تعـالى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام موطئـة للقسـم. وقولـه ﴿مَـا تَبِعُـوا قِبْلَتَـكَ﴾ جـواب للقسـم المقـدر، والقسـم وجوابـه نـاب منـاب جـواب الشـرط. والمعنى: لا ينفع أولئك النـاس المعانـدين المسـتكبرين الإتيـان بالآيـات البينــات الكاشــفة عن الحقــائق؛ لأنهم لا يريــدون أن يفتهمــوا واللا مفتهمون أفظع حالا من اللاّفاهمين لأن دواء الجهل يسـير سـهل ودواء العناد عسير صعب. وقوله ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَـابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ الآيـة يعـني ولسـتَ بمن له قابلية تبعية الباطل كما أنهم لا يتبع بعضهم قبلة بعض، ولو كـان كلُّهم في ضـلال. وقولـه ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْـوَاءَهُمْ﴾ معنـاه بعـد أن تـبين الرشد من الغي والهدى من الهوى، والله لئن اتبعت أهواءهم سواء من حيث القبلة أو غيرها من بعد ما جاءك من العلم إنَّك إذا لمن الظالمين، ولست منهم لأنك صاحب العهد من الله وصاحب العهـد صـالح سـالم لا عنود ولا ظالم. وقوله الـذين آتينـاهم الكتـاب إسـتئناف لبيـان أن عـدم إتباعهم ليس لجهلهم بالواقع وحقيقة أنك رسول الله وكتابك كلام اللـه، وقبلتك معينة من اللـه، بـل لفـرط عنـادهم لأن الـذين آتينـاهم الكتـاب يعرفونه أي محمداً صلى الله عليـه وسـلم كمـا يعرفـون أبنـاءهم علمـاً بالأدلة السابقة والآيات اللاحقـة، وإن فريقـاً منهم ليكتمـون الحـق وهم يعلمـون. الحـق من ربـك والباطـل من اَعـدائك، فلا تكن من الممـترين الشاكين في أن ما أنت عليه هو الحق من الله. وهذا النهي إمـا للتأكيـد أو للتعريض بأولى النُّهى حتى لا يصيروا من الممترين.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُـوا يَـأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ يجوز أن يكون المراد بكـل الأمم المختلفـة من المسلمين واليهود والنصارى، فيكون المعـنى لكـل أمـة مسـلمة أو يهودية أو نصرانية، وجهـة ومحـل يتوجهـون إليهـا في العبـادة وقرروهـا قبلة لهم حقاً أو باطلاً. وقوله ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ الضـمير المرفـوع عائـد إلى كل ومبتـدأ، وموليهـا خـبره. ويتعـدى إلى مفعـولين والأول محـذوف أي ولكل أمة قبلة هو مُولّي وجهه إليها ولا ينحرف عنها، فاستبقوا الخيرات الحسـان من تلـك القِبَـل، فخيرهـا بالنسـبة إلى المسـلمين الكعبـة، وبالنسبة إلى اليهود هي الصخرة على زعمهم، وبالنسـبة إلى النصـارى جهـة المشـرق. ولمـا كـان الخـير هـو الخـير الخـالص الموافـق للواقـع فالوجهة المباركة والقبلة المقبولة هي الكعبة. زادها الله رفعة ومقاماً.

واذا تـبين لكم الخـير وتركتمـوه للتعصـب والتحـزب فـاعلموا أنهم لا ينفلتون من أيدي القادر فأينما تكونوا يأت بكم اللـه جميعـاً ويحاسـبكم، إن الله على كل شيئ قدير، ويجوز أن يكـون المـراد بكـل هـو طوائـف المسلمين يعني ولكل قوم وجهة من أطراف المسجد الحـرام لميقـات الإحـرام. أو لكـل قـوم منكم ركن من أركـان الـبيت كـالركن الشـامي والـركن اليمـاني. فاسـتبقوا الخـيرات والطاعـات المقـررة المـأثورة، وكونوا على مسابقة لنيلها حتى تنالوا خـير الأجـور فـإنكم أينمـا تكونـوا يأت بكم الله جميعا للمـيزان والحسـاب، ولكـل قـومٍ نَيـلٌ على حَسَـب المَيْلِ، إن الله على كل شيء قدير.

ويحتمل أن يكون المعنى ولكل إمام من أئمة الـدين المجتهـدين وجهـة وهـدف يميـل إليهـا فيعمـل على ذلـك ويرشـد أتباعـه إليـه، فاسـتبقوا الخيرات

وتَسـابَقوا فيهـا. أي فلا تأخـذوها على التقليـد الأعمى إذا كـان عنـدهم قابلية للإجتهاد. فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً للمكافأة على حســب النيـات وصـحة الأعمـال الصـالحة فيجـزي كلا بمـا يسـتحقه من عشـر درجات إلى ما زاد واللهُ أراد.

ومن هنا يدخل إختلاف آراء الأئمـة المجتهـدين في خـير الأعمـال وخـير وجوه أدائها. فيرى الإمام الشافعي رضي الله عنه أن أول الــوقت لأداء كل صلاة أفضل إلا لعذر مثل الإبراد بصلاة الظهـر في البلـد الحـارّ لمن يبعد عن المسجد. وذلـك نظـراً لظـاهر الأحـاديث الدالـة على مـا قـال. ويرى أبو حنيفة كمـا قالـه القرطـبي أن آخـر الـوقت أفضـل لأنـه وقت الوجـوب المتعين، وأجـر أداء الـواجب أفضـل. ويـرى مالـك التفصـيل: فيقول أداء الصبح والمغـرب أول الـوقت أفضـل. أمـا الصـبح فلحـديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يصـلي الصـبح فتنصـرف النسـاء متلفّعـات بمـروطهن مـا يُعْـرَفْن من الغَلَسِ. وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأكـوع أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم كـان يصـلي المغـرب إذا غـربت الشـمس وتـوارت بالحجاب. أخرجهما مسلم.

وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قدر عليه.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَـكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَــوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَـا لَمْ تَكُونُـوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾كرر هذا الحكم لأمور: الأول: أن نسخ الأحكام مظنة الفتنة لأهل الأوهام لاسيما للمعانـدين من الأنـام فـإذا لم يتكرر لم يتقرر. الثاني: أن كل إنسان لا يحفظ كل آية من آيات القرآن فإذا كانت الآية واحدة ربما لا يحفظها كل مسـلم ولا تكـون آيـة النسـخ محفوظة عند النـاس وإذا كـررت كـثرت ويكـثر حفاظهـا. الثـالث: ذكـر للتحويل ثلاث علل: الأول تعظيم مقام الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم بابتغاء مرضاته أوّلاً فإنه كان يشتاق بلهف إلى تحويل القبلة فذكر لبيان قصـد إرضـائه صـلى اللـه عليـه وسـلم. الثـاني: رفـع حجج المخـالفين. الثالث: أن التولية إلى الكعبـة تـدفع إحتجـاج اليهـود بـأن المنعـوت في التوراة قبلته الكعبة لا الصخرة. وهذا النـبي يصـلي باتجـاه الصّـخرة فلا يكون النبي الموعود وبأنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم يـدعي أنـه صـاحب شريعة مع أنه يتبع قبلتنـا، واحتجـاجَ المشـركين بـأن هـذا النـبي يـدعي دعوة الناس إلى ملة إبراهيم وهي التوحيد مع أنه يخالف قبلتـه. الوجـه الرابع: أراد بالأول التولية إلى نفس الكعبة إذا عاينهـا. وبالثـاني التوليـة إليها إذا كانوا غائبين. وبالثالث التولية إليها في الأسفار.

وقولــه: ﴿لِئَلَّا يَكُــونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ النــاس يعم أهــل الكتــاب والمشركين واحتجاجهم عليه صلى الله عليه وسلم أمور مزيفة ذكرناها آنفاً. وقوله إلا الذين ظلموا منهم هذا الإستثناء متصل ومعناه

ليس لأحد حجة على الرسول صلى الله عليه وسلم في تحويـل الكعبـة مطلقاً إلا للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك، واهملوا نظـر العقـل واتوا بحجة داحضة، بل بشبهة واهية وهي أن محمداً تحيّـر في دينـه ولا يستقر علي شيىء، وهم غافلون عن أنـه على بصـيرة في دينـه وثبـات في يقينيه وما إستقبل القبلة الأولى ولا الثانية إلا لِحكم ومصالح ظاهرة عند أهل النظر الناجح. ولما إنتهت الرعاية جاءته العنايـة. وتحـولت إلى الكعبة بالأخير واستقر عليها البشير النذير صلى الله عليه وسلم.

وقولـه: ﴿فَلَا تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِي﴾ الخشـية: حالـة نفسـية تبعث على التوقي والحذر. والخوف: فزع القلب واضـطرابه، والمعـنى الحث على تحقير جميع ما سوى الله ومن سواه ممن يتبع هواه ومراعاة أمـر اللـه تعالى والوقوف عنده بعزم وحزم. فـإن اللـه هـو الكـافي الـوافي وهـو الحافظ العاصم في الدنيا والدين.

وقولـه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ معطـوف على قولـه تعـالى لئلا يكـون للنـاس عليكم حجـة وإتمـام النعمـة إنمـا هـو بالنسـبة إلى الظـروف والمواقـف وإلا فلا إتمـام النعمـة فإنهـا تسـتمر إلى الأبـد ولا حـدّ لـه. وإتمامها هنا بالهداية إلى القبلة الثابتة. وما يقال من أن إتمامها بالموت على الإيمـان فلأنـه ورقـة شـهادة الأمـان ودخـول الجنـة لأنـه فتح بـاب العطاء والمنة وإلا فقد قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَـةَ اللَّهِ لَا تُحْصُـوهَا﴾ ومـا لا يحصى لا يوصل منه المنتَهى.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَـلْنَا﴾ مربـوط بمـا قبلـه أي ولأتم عليكم نعمـتي بالهدايــة إلى القبلــة الثابتــة كمــا أنعمت عليكم بإرســال رســول من أنفسكم يتلو عليكم آياتنا البينـات الـتي هي معجـزات وكاشـفة لحقـائق يعجز عنها أهل الأرض والسموات. ويزكيكم ذلك الرسول

الأزكى عن أدناس العقائد الفاسدة الزائفة. وأوساخ الأعمال الكاسدة الفارغة، ويعلمكم الكتاب الهادي إلى الصّواب الحاوي للعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة، والأخلاق الناجحة. والحكمة من الشريعة الكافية للأمة أو جمل جميلة تفيدكم الرقي وعلو الهمة. ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كيفية التصرف في نقد الحياة الثمينة وصرفها في التجارة الرابحة. قوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ يعني وما دام تنعمتم بهذه النعم الجسيمة فاذكروني قلباً بالتوحيد والقدم والبقاء أذكركم بالثواب وزيادة اللقاء، واذكروني بالطاعة الخالصة أذكركم بالدرجات عليها والمغفرة للأعمال الفاضلة، واذكروني باللسان أذكركم بالأمر بإفاضة الإحسان. وللعلماء أقوال في معنى الذكر والمرادِ به هُنا، وحاصلها الحضور مع الله والرضا بالقضاء والإستقامة على ما يحبّ ويرضى. وأصل الذكر التنبّه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دليل على ذكر القلب لكنه لما كثر إطلاقه على الذكر باللسان صار هو السابق إلى الفهم والجامع بين الخيرين: ذكرٌ باللِّسان يوافقه الضمير، وذكرٌ بالقلب يساعده التقدير. واشكروا لي على نعمتي التي أنعمت بها عليكم بالخضوع جَناناً والطاعة اركاناً والذكر لِساناً، ولكل طَرَفٍ منها أطراف والناس في أدائها أصناف وأتمُّها أعَمّها، ولذا قال تعالى: وقليل من عبادي الشكور. ولا تكفروني ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً حتى لا أعذبكم عذاباً نكالاً وأورثكم فضلاً وكمالاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾

قوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّـلَاةِ﴾ الإسـتعانة طلب العـون والمسـاعدة في أداء الـواجب وتـرك المحـرم بالدرجـة الأولى وفي فعـل المرغـوب وترك المستكره بالدرجة الثانية. والصبر هـو إمسـاك النفس على مـا لا يوافق هواها فليس هناك عمـل ظـاهر أو بـاطن فعلاً أو كفّـاً إلا ويحتـاج إلى مقارنة الصبر فالصـبر أسـاس النجـاة وقاعـدة السـعادة الإنسـانية. والصلاة في اللغـة الـدعاء وفي العـرف الأقـوال والأفعـال المخصوصـة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسـليم. فمعـنى الآيـة الشـريفة: يـا أيهـا الذين آمنوا استعينوا بالصبر على الـذكر والشـكر وسـائر الطاعـات من الزّكاة والصّوم والجهاد وترك المبالاة بطعن الطّـاعنين. وبالصـلاة الـتي هي الأصل والموجب لكمال التقـرب إلى اللـه ولا شـيء من الطاعـات البدنية أقوى في الإستعانة به على موجبات مرضاته تعالى وأقرب منهـا الله تعالى: إن الله مع الصابرين معية خاصّة بالعون والنّصر للمؤمنين.

وقولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَقُولُـوا لِمَنْ يُقْتَـلُ﴾ الآيـة نـزلت في قتلى بـدر من المسـلمين وكـانوا أربعـة عشـر رجلاً ثمانيـة من الأنصـار وسـتة من المهاجرين. وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سـبيل اللـه: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها فأنزل الله الآية. أي: ولا تقولوا في شأنهم وبيان الأسف على فقدهم أنهم أموات فـإنهم ليسـوا أمواتـاً بل أحيـاءٌ. فقولـه تعـالى بـل أحيـاء بتقـدير المبتـدأ جملـة لتقريـر حيـاة الشهداء. والإضراب عن مجموع الجملة السابقة القول والمنقول لا عن المقول فقط، إذ ليس المعنى لا تقولوا

إنهم أمـوات، وقولـوا إنهم أحيـاء بـل المقصـود إنهم أحيـاء في الواقـع. ولكن لا تشـعرون أنتم بـأحوالهم في الـبرزخ فإنهـا لا تـدرك بالعقـل المجرد بل تدرك بالعقل المؤيد.

واختلفوا في هذه الحياة فقال بعض: إنها حياة بـالروح والجسـد، وبعض إنها حياة بالروح فقط. لكن لا مثـل حيـاة بـاقي الأمـوات بـل أرقى من ذلك بما لا يعلم تفصيله إلا الله.

والحـق في الموضـوع أخـذا من هـذه الآيـة الشـريفة وآيـة سـورة آل عمران، ومن الأحاديث الشريفة الواردة في موضوع حيـاة الأمـوات إنّ كل ميّت له روح متعلق به بعد قطع العلاقة الموجودة في عـالم الحيـاة الجسدية. وإن كل ميت له جسـد بـرزخيّ تـدرك فيـه النعيم واللـذة إن كـان من السـعداء، والشـقاء والألم إن كـان من الأشـقياء. ومـع ذلـك فالبـاري تعـالى منـع بقدرتـه القـاهرة الأرضَ عن أكـل أجسـاد الأنبيـاء والمرسلين صلوات اللـه وسـلامه عليهم، وجَعَـل للشـهداء لإعلاء كلمـة الحق حياة وقوة روحية دون حياة الأنبياء والصـديقين على ظـاهر قولـه تعـــالى ﴿فَأُولَئِكَ مَـــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـــدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُـنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وممـا لاشـك فيـه أن هـذه الحيـاة البرزخيـة تختلـف بـاختلاف درجـات المتـوفين، من الآحـاد إلى العشـرات، إلى المئـات، إلى الآلاف حسـب الأصـناف واللـه أعلم. وإن ذلك الجسد البرزخي يجوز أن يكون مثل الجسد الـذي يتـوفى فيـه وإن كنا لا ندرك ذلك فإن عالم الـبرزخ عـالم عجيب وقـد جـاء في الحـديث الشـريف: ((إن المـؤمن يفسـح لـه مـدّ بصـره ويقـال لـه: نم نومـة العروس)) مع أنا لا نشاهد ذلك إذ البرزخ معـزل عن أذهاننـا ويجـوز أن يكـون جسـداً آخـر على صـورة الطـير تتعلـق الـروح بـه كمـا أخرجـه عبدالرزاق عن عبدالله بن كعب بن مالك قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم

((إن أرواح الشهداء في صورة طير خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله تعالى يوم القيامة)) وهناك روايات أخرى حول الموضوع بينها مخالفات جزئية في محل تعلقها والذي أعتقده: أنها كلها ثابتة والإختلاف فيها عائد إلى إختلاف درجات الشهداء. ومما لاشك فيه أن درجات المسلمين على كثرة أصنافهم مختلفة ومتفاوتة بما لا يعلمه إلا الله، كما أن دركات الأشقياء مختلفة. أعاذنا الله من الدركات بفضله وأوصلنا إلى بعض الدرجات اللائقة بهباته، إنه الرؤوف الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي لنعاملن معكم معاملة المختبر لشخص والمراقب لحاله في عوارضه وأحواله فهو مجاز وإلا فالباري تعالى لا يخفى عليه شيء ولا يحتاج إلى إختبار أحد.

وقوله بشيء التنوين للتنكير، والمراد به التقليل أي وسيلة إختياركم شيء قليل من ذلك وإلا فكثيره لا يطيقه أحد إلا من أعانه الصمد. وقوله: ﴿مِنَ الْخَوْفِ﴾ الآية... المراد من الخوف: الخوفُ من كل من يَمَسُّه بسوء أو يؤذيه من أهله وجيرانه وأقاربه لاسيّما الذين اَعْلنوا عداوتهم له، ومن الجوع قلةُ المأكلِ والمشرب بسبب خاصّ أو عام كالقحط. ومن نقص الأموال نقص ما يملكه من النقود أو العُروض او العقار أو المواشي، ومن نقص الأنفس: وفاةُ الأصول والفروع والحواشي القريبة والبعيدة. ومن نقص الثمرات: هلاكُ ثمار البساتين والمزارع بالجوائح أو غيرها كأهل العدوان. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الخوف خوف الله تعالى، والجوع صوم رمضان، ونقص الأموال الزكاة والصدقات، ونقص الأنفس الأمراض، ونقص الثمرات موت الأولاد.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه الترغيب والترهيب وأَمَر له بأن يبشّر الذينَ يصبِرون على ما داهَمَهُم، ويُمسكونَ بأنفسهم عن الإعتراض قلباً، والمعارضة والقدح وسوء البيان لساناً. ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قولاً موافقاً لسكون القلب وإيمانه بأنّ كل مقدر مُيَسَّرٌ وإن العالَم لله، وإن المآل إليه، ويتصرف في العالم بما يشاء، ببشارة لا يحيط بملابساتها البيان، وإنما الممكن الإجمال، والإستئناف بقوله الجامع لكل فضل وهو ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ يعني أولئك الصابرين تنزل عليهم بركات وسكينة من ربهم. وحاصلها رحمة تعمهم في سائر أحوالهم في الدنيا والآخرة، وبشارة فيها إعلان أن أولئك هم المهتدون بهدي الباري للدنيا والدين.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ وجه المناسبة بينه وبين ما تقدم هو أن الآيات السابقة ذكر فيها الصبر وأجر الصابرين ولما كان الحج صعباً على الإنسان محتاجاً إلى الصبر على بذل المال والحال وقبول الأتعاب ذكره بعدها.

ومما يجب أن يعلم أن الحج والعمرة كانا من الشرائع المتقدمة واستمرت إلى عهد رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فجعلا من أركان الإسلام واختصّا بكثير من الأحكام يأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى في تفسير: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ آية مائة وست

وتسعين من سورة البقرة وفي وقت تشريعهما في الإسلام أقوال: أرجحها أنه كان في السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة المكرمة. وبعث صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق في السنة التاسعة آمراً على الناس، فحجّ بهم، وتأخر عنه مياسيرُ الأصحاب الكرام كعثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف من غير شغل بحرب ولا عدو، حتى حجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة الحجة المشهورة بحجة الوداع. والأصح أنه صلى الله عليه وسلم حج قبل الهجرة مرتين واعتمر مراراً، ولم يبين كيفيتهما. وأما بعد الهجرة فإنه حج مرة واحدة تلك الحجة المعروفة، ولكنه إعتمر أربع مرات عمرة القضاء في السنة السابعة وعمرتين عام الفتح، وعمرة مع حجة الوداع. وقوله تعالى من شعائر الله: جمع شعيرة أو شعارة وهي العلامة. والمراد بكونهما من شعائر الله أنهما من أعلام العبادة لله تعالى. والصفا والمروة علمان لموضعين معينين بمكة عند المسجد الحرام علماً بالغلبة واللام لازمة فيهما، وسبب النزول ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان على الصّفا صنم على صورة رجل يقال له: أساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى: نائلة.

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس، فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا سَعَوا بينهما مَسَحُوا الوثنين، فلما جاء الإسلام وكُسِرَتِ الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين أنزل الله تعالى هذه الآية.

ومن هذا يعلم دفع ما يترائى أنه لا يتصور فائدة في نفي للجناح بعد إثبات أنهما من شعائر الله بل ربما لا يتلازمان إذ أدنى مراتب الأول الندب،

وغايـة الثـاني الإباحـة ولا جنـاح فيهمـا قطعـاً. وقـد وقـع الإجمـاع على مشروعية الطواف بينهما في الحج والعمـرة الدلالـة نفي الجنـاح عليـه قطعـاً. لكنهم اختلفـوا في الوجـوب فـروي عن أحمـد أنـه سـنة، وعن الشافعي ومالك أنه ركن، وهو رواية عن الإمام أحمد واحتجوا بما أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: سئل رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فقـال: ((إن اللـهَ كَتَبَ عَليكُمُ السّـعيَ فَاسْـعُوا)). ومـذهب الإمـام أبي حنيفة رضي الله عنه انـه واجب يجـبر بالـدم؛ لأن الآيـة لا تـدل إلا على نفي الإثم وذلك يستلزم الجواز. وأما الركنية فلا تثبت إلا بدليل مقطـوع به ولم يوجد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ الآيـة معنـاه ومن زاد على مـا فـرض عليـه من حج أو عمـرة أو طـواف بـالبيت ﴿فَـإِنَّ اللَّهَ شَـاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي قابل لطاعته ومثيب لـه عليهـا، لأنـه عليم بنيتـه للعبـادة والتقـرب إليـه تعالى فيثيبه برحمته ولا يردها عليه، فلله الحمد اَبَدَ الآبدين

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَـا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَـابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُـونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَـابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَمَـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَـةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خَالِدِينَ فِيهَـا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَـذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَـرُونَ (162)﴾

قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُـونَ﴾ الآيـة عن قتـادة أنهـا نـزلت في الكاتمين من اليهود والنصارى. وقيل: نـزلت في كـل من كتم شـيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل. فقد روى البخاري وابن ماجه وغيرهما

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حَدَّثتُ أحداً بشيء اَبَداً ثم تلا هذهِ الآيةَ.

وقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ أي على الرسل وقوله ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات الواضحة الدالة على الحق، ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى عليهما السلام في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونعوته ونعوت أصحابه. وقوله ﴿وَالْهُدَى﴾ أي وما يهدي إلى وجوب الإيمان به واتباعه وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ أي من بعد ما شَرَحْناه وأظهرناه لهم.

وقوله: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ وهو التوراة، أو المراد جنس الكتاب من التوراة وأسفار شعياء وأرميا وزبور داود وإنجيل عيسي عليهم السلام. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبرٌ لإنّ. أي إن أولئك الكاتمين يبعدهم الله عن رحمته ويجعلهم في عذابه ونقمته جزاءً لعنادهم واستكبارهم واستنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ويلعنهم اللاعنون أي كل من يأتي منه اللعن من الملائكة والجن والإنس لإعلان طردهم عن حضرة القدس. أعاذنا الله من الكتم لأحكام الدين. وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ اي رَجَعُوا عن الكتمان لنعوته، أولها ولكل ما يحتاج إلى البيان. وقوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي وأصلحوا ما أفسدوه من معاني الأسفار بالتأويل والتحريف، أو أصلحوا قلوب الناس بعد تشويشها إصلاحاً ناجحاً بالبيان والإرشاد والتعريف وقوله: ﴿وَبَيَّنُوا﴾ أي وأوضحوا ما بينه الله تعالى للناس، وذلك يكون توبة لهم لأن توبة الظالم يرد الحقوق وتوبة الكاتم ببيان الواقع.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي فأولئك الناس التائبون أتوب عليهم بغفران ذنوبهم وأنا التواب الرحيم.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الصلة للإشارة إلى النـاس المعهـودين بنقض العهود وكتمان نعـوت صـاحب المقـام المحمـود من النصـارى واليهـود. وقوله: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي وأصرّوا على كفرهم وكتمانهم وصفاتهم الرذيلة وأعمالهم المغشوشة الدخيلة، وماتوا على تلك الحالة الفاسدة، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والنـاس أجمعين. معنـاه يسـتمر عليهم اللعن من اللــه، واللعن من الملائكــة على حســب أمــره، ومن النــاس العالمين بالحق وقدره. وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة أي مقـدرين خلـودهم في نتـائج تلـك اللعنـة وهي العـذاب الـدائم. لا يخفـف عنهم العـذاب ولا هم ينظـرون: أي يمهلـون بتأجيـل العـذاب يـوم القيامـة، أو بقطـع العـذاب عنهم حينـا بعـد حين. وهـذا على أن الفعـل من الأنظـارِ بمعــنى التــأخير. ويجــوز أن يكــون من النظــر بمعــنى الإنتظــار. أي لا ينتظرون فيعتذرون أو من النظر بمعنى الرؤية. أي لايُنْظـرُون من اللــه ولا يَنظُرُ إليهم نظرَ الرحمةِ.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)﴾

لما ذكـر البـاري تعـالى في الآيـات السـابقة أهـلَ الكتـاب والمشـركين وأوْعَدهم بالعذاب ووَعَد الذين يؤمنون منهم بالثواب، حَوّل السـياقَ إلى بيان جهة الوحدة للجميـع فقـال: وإلهكم إلـه واحـد أي أن الإلـه لجميـع أفراد الإنسان واحد وهو أمركم بالإيمان بـه وبرسـله وأن لا تفرّقـوا بين أحد منهم. ثم أكّـد وقـرر الوحـدة لـه تعـالى بقولـه لا إلـه إلا هـو. أي لا معبود بالحق سواه حيث إنه هو الرحمن المنعم بجلائل النعم، والــرحيم المنعم بدقائقها، وكل منعم كذلك يجب أن يُعْبد ويُوَحَّد.

ثم أتى بالإستدلال على وحدته تعـالى بآيـات الآثـار العظيمـة الـتي تـدل على وجوده ووحدته فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)﴾

والمراد بالسموات: جميعُ الأجرام الموجودة العلوية المزينة بالشمس والقمر والكواكب الثوابت والسيارات التي تجري على فلكها الخاص ومدارِها المعين بدون إنحراف عنها في دقيقة من الدقائق بطول الزمان. والمراد بالأرض: الجرم المادي الموجود فوقه البشر وسائر الحيوانات المرتب لها طرق معاشها بالمياه والأقوات والفواكه وسائر ما يتمتع به ويحتاج إليه المزين بالبحار والأنهار والعيون، والحدائق والأوراد واشجار ذوات الثمار وغيرها، والمسقف بمظلة مضيئة بالأيّام، منورة بالليالي، والمنظفة بهواء صافٍ وافٍ للدّيار. والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجيء كل منهما عقب الآخر بلا إنفصال. فمن طلوع الفجر إلى غروب الشمس ومن غروبها إلى طلوع الفجر كالأمس، أو تغايرهما بالساعات والدقائق في سائر البقاع إلا ماشذّ من نقطتي الإعتدال الربيعي والخريفي، أو إختلافهما بحسب الحركات المستوية والمائلة والرحوية، فإن في القطبين الشمالي والجنوبي تكون السنة يوماً وليلة، وكل منهما ستة أشهر وفيها تختلف مراتب الأضواء والانوار.

وقوله: ﴿وَالْفُلْكِ﴾ أي وفي إبداع القوة العقلية الصناعية في البشر وبالأخص في سيدنا نوح عليه السلام في صنع السفينة بكل دقة وحذاقة

إلهاميـة وإيحائيـة من اللـه بـدون تعلم علم الفيزيـاء، ومعرفـة مـوازين الهـواء والبحـار، ورعايـة وزن السـفينة مـع حمولتهـا حـتى لا تغـور في البحار. وهي التي تجري في البحر بقوة الرياح سـابقاً والنّـار والكهربـاء لاحقاً، مصاحبة بما ينفـع النـاس من المطعـوم والمشـروب والملبـوس وباقي ملابساتها. وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ أي وثلوج وبَـرَدٍ وأنـداءٍ وَمنّ السـماء. وقولـه: ﴿فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا﴾ أي وخلـق فيهـا النضـارة والبشـارة بـالزروع والثمـار بعـد موتهـا ويبسـها وجمودها وتَعِس من عليها. ووقولـه: ﴿وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ﴾ عطـف على أحيا فيدخل تحت فاء السببية لأن الماء سبب عـادي لحيـاة الأرض بعد الموت، وانتشار الحيوانات من كل نـوع منهـا. والمـراد بهـا الـدواب الإعتيادية المخلوقة لا مطلقاً، حتى يرد عليها الجن والملـك على فـرض تسميتها دابة أو حيوانـاً. وقولـه تعـالى وتصـريف الريـاح أي تقليب اللـه تعالى لها جنوباً وشمالاً، وقبولاً ودبورا، وحارة أو باردة، وعاصـفة ولينـة، وعقيما ولواقح، وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب..

وقولــه: ﴿وَالسَّــحَابِ الْمُسَــخَّرِ بَيْنَ السَّــمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وفي مــادة السحاب وإنشائها ورفعها إلى جهة العلو وتسخيرها هناك بــالوقوف في محاذاة بقعـة من بقـاع الأرض أو جريانهـا إلى حيث شـاء اللـه. وقولـه: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني إن في كل ما ذكـر الآيـات عظيمـة قطعيـة الدلالة على وحدة الصانع الحكيم والقادر العليم فتدل على وحدتـه بعـد الدلالة على وجـوده وعظيم صـنعته. أمـا دلالتهـا على وجـوده فلأن كـل ذلك من الآثار الحادثة بعضها بالبداهـة وبعضـها بـالنظر والحـادث يحتـاج إلى محدث واجب حتى لا يلزم التسلسل، وأما دلالتها على وحدته فلأنه لو كان مع وجوده إله آخر يقـدر على مـا يقـدر هـو عليـه فـإن تـوافقت إرادتهما فالحادث

إن كـان بهمـا لـزم إجتمـاع مـؤثرين واجـبين كـاملين على مـؤثر واحـد واستحالته واضحة لأن توجه إرادة أيّ واحد منهما إليـه كـاف في خلقـه فيكون الآخر عبثاً مستغنى عنه. وإن كان بواحد منهمـا لـزم الـترجيح بلا مرجع ولزم أن يكون الإله الآخر عبثـاً مسـتغنى عنـه لحـدوث الحـوادث بغيره إن كان كاملاً، وإلا لزم عجزه المنافي لألوهيته. وإن إختلفت لـزم التمانع فعلاً وعدم حدوث الحوادث لمنع كل غيره عن التـأثير أو إمكـان التمانع المستلزم لإمكان العجز المستلزم لعدم صلوحية أيّ واحد منهما للألوهية وحدوث الحوادث بدون صانع حكيم، وكل ذلك مسـتحيل بنظـر العقل السّليم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَـذَابَ أَنَّ الْقُـوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًـا وَأَنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعَـذَابِ (165) إِذْ تَبَـرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّءُوا مِنَّا كَـذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـدَادًا﴾. الأنـداد: الأمثال، والمراد بها الأصنام: وقيل: المـراد الرؤسـاء الـذين يطيعـونهم، وقيل: المراد أعم منهما، وهو ما يشغل عن الله تعالى. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ جملة مسـتأنفة ذكـرت لـدفع تـوهم مسـاواة محبـة المشركين للأنداد ومحبة الموحدين الله تعالى.

وذلـك لأن محبـة المشـركين للأنـداد ناشـئة عن أوهـام عاطلـة فكلمـا عارضها مانع زالت. وأما محبة الموحدين له تعالى فمبنيـة على أسـاس متين من الإعتقـاد واليقين وعلى نورانيـة واطمئنـان للقلب حاصـلة من ذكره تعالى أوصلهم إلى درجة الإحسان وحضور التجليـات بالإسـتمرار. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ شرط محذوف الجـواب أي ولـو يرى المشركون عند رؤية العذاب يوم القيامة أن القوة والتصـرف كلـه للـه تعـالى لا نصـيب لغـيره فيهـا لوقعـوا في حسـرة وندامـة لا يمكن الكشف عنها أبَدَ الآبدين.

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ بدل من قوله إذ يَرَوْنَ والفصل بين البدل والمبـدل منـه جـائز. ومـا قيـل من فعـل مجهـول ومـا بعـدها معلـوم، والمتبوعون إن كانوا من الناس المفسدين فتـبريهم بنطـق معتـاد عنـد العبـاد، وإن كـانوا من الأصـنام فبإنطـاقِ القـادر على إبـداع النـامي والجماد. وقوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ الباء في بهم بمعـنى عن أي تقطعت عنهم العلاقات والترابط المزيفة المفتعلة الموجـودة بينهم في الدنيا. وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا﴾ ومعنـاه وقـال الأتبـاع الضـالون: يـا ليت لنا رجوعاً مـع المتبـوعين إلى الـدنيا، والوضـع الإجتمـاعي السـابق حتى نعلن هناك تبرّينا وابتعادنا عن المتبـوعين الأنـذال، كمـا أعلنـوا في هـذا العـالم تـبرأهم مِنّـا. وقولـه تعـالى: ﴿كَـذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـالَهُمْ حَسَـرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي اراءة وإظهـاراً مثـل مـا ذكرنـا يظهـرُ اللـهُ تعـالى أَعمـالَ التـابعين لهم، ويجعلهـا مكشـوفة خاليـة عن النتـائج الحميـدة والعواقب السعيدة. حال كونها حَسَـرات وآسـافاً عليهم لا تنفعهم شـيئاً وتفيدهم أشياءً من الخيبة والخسران والعار والبـوار. ومـا هم بخـارجين من النـار لأنهم كـانوا كفـرة فجـرة مثـل سـائر الكـافرين وأمـا سـائر المعذبين بالنار فليس عذابهم على الخلود والإستمرار بل يكـون مؤقتـاً محدوداً وبنتيجة الأمر يحصل لهم الخروج حَسْبَما وَعَدهم الله تعالى

على لسان رسوله أن من آمن بالله إيماناً سليماً عن شـوائب الضـلال، وآمن برسوله وما جاء به من الله الُمتعَال فإنه يدخل الجنة خالـداً فيهـا أبد الآبدين والحمد لله رب العالمين.

﴿يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ كُلُـوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًـا وَلَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَـاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُـوا مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ شَـيْئًا وَلَا يَهْتَـدُونَ (170) وَمَثَـلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا كَمَثَـلِ الَّذِي يَنْعِـقُ بِمَـا لَا يَسْـمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾ الآيـة نـزلت في قـوم حرمـوا على أنفسـهم رفيع الأطعمة والملابس. وقال الشهاب: إنما نزلت في المـذكورين آيـة المائدة يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. وأما هـذه فنزلت في الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل كمـا ذكـره ابن جرير وغيره بدليل قوله: بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا.

وقولـه: ﴿حَلَالًا﴾ مفعـول بـه وقولـه: ﴿طَيِّبًا﴾ صـفة حلال. أمـا الحلال فواضح، وأما الطيب فهو ما يستطيبه طبعُ المستهلكِ المتوسّطِ. وقولـه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وهي تحـريم مـا أحلـه اللـه وتحليـل مـا حرمه الله تقليداً واتباعاً للهوى. لأن التحليل والتحـريم إن كانـا تعبـديّين فـذلك واضـح. وإن كانـا لحكمـة فـالحكيم المطلـق هـو اللـه ولا يجـوز التجاوز عما شرعَهُ

أبداً. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَـدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تعليـل للنهى السـابق. وبين عداوتـه بقولـه: ﴿إِنَّمَـا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّـوءِ وَالْفَحْشَـاءِ وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَـا لَا تَعْلَمُونَ﴾ السوء: مطلق ما ساءك دينـا ويعم القبـائح كلهـا. والفحشـاء: منها ما يجاوز الحد في القبح كهتك الأعراض. وقيل الأول مـالا حـدّ فيـه والثاني: ما فيه الحدّ. والمراد من أن تقولوا على اللـه مـالا تعلمـون أن تنسب إلى الدين ما ليس منه لا نصّاً ولا إستنباطاً. فما حكم به المجتهد المستفرغ وسعه في إستخراج الحكم من الأدلة الشـرعية يجب إتباعـه على غير المجتهد لأن للدين أصـولاً وفروعـاً، عقائـد واحكامـاً. والعقائـد يجب أخــذها من الأدلـة القطعيـة بلا شـبهة. وأمـا الأحكـام فلم نكلّـف باليقين فيها لأنه متعذر أو متعسر. وغايته إقامة الدليل الشرعي عليها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الآية إما مرتبط بما سبق وبيان لفساد أحـوالهم بالإعتماد على تقليد الجـاهلين الجاحـدين الخامـدين أو نـزل في طائفـة من اليهود دعاهم الرسول إلى الإسلام فقالوا: تتبع ما وجدنا عليه آباءنـا لأنهم كانوا خـيراً منـا وأعلم. وحاصـله أنّهم ملازمـون لمـا وجـدوا عليـه آباءهم لا ينفكّون عنه، وهذا لَجاج ما فوقه لجاج لأن إمتياز الإنسـان عن الحيوان بالعقل والعقـل فضـله أن يكـون أحكامُـه على البداهـة أو على البرهـان، وأمـا التقليـد للنـاس الجهلاء الحـائرين فلا يُفيـدُ إلا التقييـد. لا سـيما إذا كـان آبـاؤهم لا يعقلـون. أي لا تنظـر لهم يتوصـلون بـه إلى النتيجة بالذات ولا يهتدون باتباع أصحاب النبوات والمعجـزات ثمّ سَـجَّلَ أحوالَ أولئك النـاس بـأنهم يشـبهون البهـائم في إختصاصـهم بإحسـاس الأشياء بالحواس وليس لهم إدراكها بالعقول بقوله: ومثل الذين كفــروا أي وَمَثلُ داعي الدين كفروا من أولئك الذين ذكرنا أحـوالهم وأشـباههم كمَثَل الّذي ينعق أي كمثل الـراعي الـذي ينعـق أي يصـوت في الرغبـة والرهبة

بما لا يسمع إلا دعاء ونداء أي بحيوانات سائمة من البهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء أي صوتاً يدرك منه الإقبال تارة والإدبار أخرى والهدوء وقتاً والحركةُ والرواحُ وقتاً آخر بدون فهم المعاني وأَسرارِها وعِلَلها قطعاً. فكلمة ما واقعة على البهائم وقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ على وزن فعل بضم الفاء وسكون العين جمع الأصم والأبكم والأعمى ورد تقريراً لما سبق، يعني أولئك الكفار كالبهائم تسمع صوتَ الراعي ولا تسمعه كما يسمع الإنسان العاقل كلام الداعي له إلى الخير الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر فيستجيبَ له حسبَ فهمه والتأمل فيه ولا ترى الداعي حتى يهتم بكلامه فهم يسمعون كلام الداعي لهم إلى الله لكن لا يسمعونه سماع تدبر في مدلول المسموع ولما لم يسمعوه كذلك لم يستجيبوا له استجابة نافعة بكلامٍ ناشئ عن علم ومعرفة فهم بُكْم حيث لم ينطقوا في الإجابة نطقاً ناشئاً عن علم وإعتقاد، ولم ينظروا إلى شخص الداعي وأعماله والآيات البينات التي أتى بها. فهم عُمْيٌ عن إبصار الآثار والآيات النفسية والآفاقية التي تفيد الإهتداء إلى الصراط المستقيم، فهم لا يعقلون مبدا أمورهم ومنتهاه كالعاقل الذي ينظر في أمور دنياه وأخراه بل لهم إدراك كإدراك البهائم للمحسوسات التي ترغب فيها أو تنفر عنها. وذلك لا يؤثر فيهم بحيث ينقادون للحق وبه يؤمنون.

والإنسان إذا تفكر في أحوال الناس تفكراً دقيقاً علم أن الناس لهم قلوب يفقهون بها وحواس يحسون بها، وكلما كان إستعمالهما بطريق الإعتدال تحصل له حالة نفسية معتدلة تسيطر عليه وتوجهه إلى إحساس المحسوسات بقدر منافعها ومضارها، وإدراك المعقولات كذلك فيستفيد من إستعمال الحواس إستفادة جلية، ومن إدراك المعقولات كذلك، وإلا إبتلى بالمحبة للأمور المادية فيتوغل فيها وينسى من المعقولات المعاني العالية

الداعية إلى السعادة الأبدية فتكون من القاصرين الهالكين أعاذنا الله من تلك الإتجاهات الدنية، ووفقنا إلى سلوك سبيل الرشد والنجاة الأبدية بمنه وفضله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا﴾ الآية لما وسع الله تعالى على الناس بإباحة ما في الأرض سوى ما حرّمه عليهم، حثهم على إختيار طيّباته والقيام بحقوقها.

وقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ معناه إن صح أنكم تعبدونه فلابد أن تشكروه على إنعامه عليكم، فإن العبادة الصحيحة ملزومة لأداء الشكر على نعم المعبود، وما دام اللازم منتفياً تبين أن الملزوم وهو العبادة له منتف ودعوى الملزوم مع إنتفاء اللازم خارج عن المعقول.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ الحصر إضافي أي هذه الأمور محرمة عليكم لا ما حرمتموه من البحيرة والوصيلة والحام وأمثالها، وإلا لو كان حقيقياً لزم أن لا يكون ما عدا المذكورات في الآية حراما مع أنه سيأتي في الآيات غيرها. وقد استثنى صلى الله عليه وسلم من الميتة والدم بعضاً بقوله فيما رَواه إبن

ماجه والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: (أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال) الحديث ومن الميتة كل عضو إنفصل من الحي لما رواه أبو داود من قوله صلى الله عليه وسلم: ((ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة)). وقوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي رفع الصوت به عند ذبحه للصّنم، ثم جعل عبارة عما ذبح لغير الله تعالى على وجه التقديس له، فليس منه ما ذبح لقدوم سلطان خوفاً منه لعله يسامح الناس، أو إحتراماً وإجلالاً له ولا ما ذبح لقدوم علماء او صلحاء إكراما لهم، وإن اعتقد الذابح فيهم وجود طاعة وتقوى ولا ما ذبح لرعاية قلوب الضيوف الأصدقاء، ولا ما ذبح في وليمة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ما ذبح من النذورات المعلقة بشفاء مريض أو خلاص أسير ولو قصد وصول ثوابها لروحانية أحد الصالحين؛ فإن ذلك ليس تقديساً له ولا عبادة والعياذ بالله. وإنما غايتها ومنتهى الأمر زيادة محبة لذلك الشخص أو حسن اعتقاد فيه.

غير أن المنذورات بعبارتها المعروفة كأن شفى الله مريضي فعليَّ ذبح نعجة مثلاً يختصّ أكلها بالفقراء غير أهل الذابح ممن تجب عليهم نفقته.

وأما قولهم: هذه ذبيحة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، فاطرد العرف العام بأنها صدقة عامة ويجوز لصاحبها وأصوله وفروعه والأغنياء أن يأكلوا منه إذ ليس في صيغة الشخص إلتزام لذبحها، واطرد العمل به على ما ذكرته.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي على مضطر آخر بأن يتعدى عليه ويستأثر نفسه بها، وقوله: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي متجاوز سد الرمق أو غير متجاوز عند إضطراره على الحدود والحقوق الشرعية، كأن خرج هارباً عن الحدود الشرعية أو متجاوزاً على حقوق الناس بأخذ أموالهم وقطع الطريق عليهم.

وقولـه ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْـهِ﴾ أي لا إثم عليـه حينئـذ في تنـاول مـا ذكـر من المحرمـات إن اللـه غفـور لمـا فعـل ورحيم بإعطـاء هـذه الرخصـة للمضطرّين.

فوائد: الأولى: إن الميتة ما فارقته الروح من غـير ذكـاة ممـا يـذبح ومـا ليس بمأكول كالسباع ونحوها فلا تفيدُ ذَكاته.

الثانية: لا يجوز الإنتفاع من الميتة بشيء عند الإمام الشافعي إلا بجلدها بعد الدباغ. فشعرها وصوفها نجس. وفي ذلك خلاف لبعض الأئمة.

الثالثة: إذا نُحـرت الناقـة، أو ذُبحت البقـرة، أو الشـاة وكـان في بطنهـا جنين ميت جاز أكله عند الإمام الشافعي. فقد روى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم سـئل عن البقـرة والشـاة تـذبح والناقة تنحر فيكون في بطنها جـنين ميت فقـال: إن شـئتم كلـوه فـإن ذكاته ذكاة أمه.

الرابعة: من المطعوم المحرّم مال الغير إلا بطيب نفس منه، فإن كـان هناك عادة يعمل به كماء السقاية، أو بستان أبيح للعابرين. ومن الحرام أكل مال جيء به لصفة فيك ولم توجـد، أو موقـوف على جهـة ولسـتَ بوافٍ حقها أو قدم إليك إستحياءً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُـونَ مَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَـابِ وَيَشْـتَرُونَ بِـهِ ثَمَنًـا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَـأْكُلُونَ فِي بُطُـونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَلَا يُـزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْـتَرَوُا الضَّـلَالَةَ بِالْهُـدَى وَالْعَذَابَ بِـالْمَغْفِرَةِ فَمَـا أَصْـبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللَّهَ نَـزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176)﴾

قوله: ﴿يَكْتُمُونَ﴾ الآية المراد به عدم الإظهار أو إظهاره مع تأويل باطل، وسبب النزول علماء اليهود، ولكن الحكم عام.

وقوله: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي عوضاً حقيراً من الرشايا والهدايا. قوله ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ ومعنى في بطونهم ملء بطونهم والبطن ليست ظرفاً للأكل بل للمأكول، لأن الأكل هو المضغ وهو في الفم، لكن ذكر البطن للدلالة على أن المأكول مَلأ البطن فإذا أكل ومَضَغ في الفم فكأنه أكَل في البطن لأن الفهم والبطن إتصل كل منهما بالآخر فالبطن صار فما والفم صار بطنا. ومعنى أكل النار أكل ما سيصير نارا في الآخرة. وأما في الدنيا فالنار نار العار عند أهل الإعتبار.

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي يغضب عليهم ويأمر بعذابهم. وقوله ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي لا يثني عليهم أو لا يبرؤهم من العقاب. وقوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي في الدنيا ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي في الآخرة. وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم.

وقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما اَصْبَرَ على وزن ما أفعل صيغة من صيغتي التعجب. والصيغة الثانية: أفِعلْ بِهِ على وزن اَمر باب الإفعال. فالصيغة ذكرت لإنشاء التعجب من اختلاطهم بأوساخ الكفر والضلال الموجبة للعذاب الخالد بنار أعدّت لهم ولأمثالهم بدون مُبالاةٍ وَاهتمام. ومِن صَبْرِهم على العذاب بتلك النار على الدّوام.

قوله ذلك أي ذلك العذاب بالنار وجب عليهم بسبب أن الله نزل الكتاب الذي أوتي موسى عليه السلام متلبساً بالحق من العقائد ونعوت الرسول الخالد. وإن اليهود الذين اختلفوا في ذلك الكتاب أي في تأويله بالباطل بعد الإنحراف عن الحقّ لفي شقاق وافتراق وابتعاد عن الحق بعيد غاية البعد أعاذنا الله تعالى منه.

وتفصيل معنى الآية الشريفة: ان المراد بالكتاب إما القـرآن أو التـوراة والإنجيل، أو جنس الكتاب. فإن كان المراد الأول فمعـنى إختلافهم فيـه إختلافُهم في إسناد وجوه الفسـاد إليـه، فـإن بعضـهم قـال: إنـه كهانـة، وبعضهم إنه سحرٌ، وثالث إنه شعر، ورابع إنه من أسـاطير الأولين. وإن كان المراد التـوراة والإنجيـل فمعـنى إختلافهم هـو إختلافهم في تأويـل الأسفار الدالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فـذكر كـل منهم تأويلاً فاسداً غير ما ذكره الآخرون، لأن الإنسان إذا ضل وانحـرف عن الحق أخذ طرقاً شـتّى، فمنهم من يقـول: إنـه لم يـأت زمانـه بعـدُ، ومنهم من يقول: إنه ليس هذا الشـخص الحـائز لبعض نعـوت الشـخص الموعود.

وإن كان المراد بالكتاب جنس ما أنزل الله من الكتب فمعـنى إختلافهم فيه أنهم قبلوا بعض الكتب وهو التوراة ورفضوا بعضها وهـو الإنجيـل أو قبلوا بعضاً وهو التوراة والإنجيـل ورفضـوا بعضـاً وهـو القـرآن. ومعـنى كـونهم في شـقاق بعيـد أنهم في نـزاع واختلاف عن الحـق الثـابت بالبرهان القاطع، فإن الإنسان بعـد أن آمن باللـه رب العـالمين وأنـه لا يترك عبـادة بلا شـريعة ومنهـاج يجب أن ينظـر إلى وجـوه الدلالـة على صـدق من يـدعي الرسـالة من اللـه بعين الإنصـاف، فالوجـه إذا كـان إعتـدال الأخلاق والإعتـدال موجـود في محمـد كمـا كـان موجـوداً في عيسـى وموسـى وغيرهمـا من الرسـل وإذا كـان صـحة مـدلول الآيـات المنزلـة وصـدقها وبعـدها عن الإضـطراب فهـو موجـود في القـرآن بلا شبهة. وإذا كان ظهور المعجزات الباهرة القاهرة فكما وجـدت لسـيدنا موسى بالعصـا واليـد البيضـاء وإنفلاق البحـر وغيرهـا، ولسـيدنا عيسـى بالآيات الكبرى من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص كانت موجـودة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كمعجزة الإسراء والمعراج

وشق القمر وتسليم الشجر والحجر، وتسبيح الحصى في كفه الشريفة صلى الله عليه وسلم، وإخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلة. والقرآن الكريم كله معجزة وكل سورة منه معجزة، وآياته الناطقة بالعلوم الكونية التي تحير فيها العقلاء معجزات، وهو موجود وسيبقى كما كان الى يوم القيامة فكما دلّت الأخلاق والأعمال والسيرة الطيبة والمعجزات على صدق دعوى الرسالة لهم، فكذلك تدل على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أن هذا الرسول الجليل سجلت نعوته العالية في الكتاب والأسفار الموجودة عندهم إلى هذا اليوم، بحيث لا تبقي مجالاً لشبهة الإنسان العاقل المنصف في رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وانه المبعوث رحمة للعالمين.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾

قوله تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ الآيات عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن البر فنزلت الآية فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الرجل فتلاها عليه. وقال: أيضاً كان الرجل قبل الفرائض إذا شَهِدَ اَنْ لآ إله اِلّا الله وأن محمداً رسولُ الله ثم مات على ذلك

وجبت له الجنة، فأنزل الله الآية. وفي البيضاوي: البر كل فعل مرضي، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُـوِّلت وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلتـه فـرد اللـه عليهم وقـال: ليس البر مـا أنتم عليـه فإنـه منسـوخ، ولكن الـبر مـا بيّنـه اللـه واتّبعـه المؤمنون. وقيل: الخطاب عام لهم وللمسلمين أي ليس البر مقصــوراً بأمر القبلة أو ليس البر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها.

ونحن إذا نظرنا إلى مورد النزول والسبب الخاص ننظر أيضاً إلى عموم الفائدة والبيان بالنسبة إلى أهل ملة الإسـلام الـذي جـاء لنشـر الثقافـة الروحية والفكرية ولبث الأخلاق العالية التي تنفع كـل إنسـان ذي شـأن أي غير المجانين، وننظـر إلى أن أمـر القبلـة أمـر مختص بأحـد أعمـال المسلم في أداء أحد أركان الإسـلام، ولكن الإسـلام ليس منحصـراً في ذلك بل أعم وأشمل وأنفع وأكمل فإن للمسلم جانب العقائد الــتي هي أساس السعادة وجانب الأحكام الفرعية العملية وجانب الأخلاق النافعة للشخص والمجتمع بصـرف القـوى الماديـة والمعنويـة في سـبيل إنقـاذ البشرية من مهالـك المـادة ومطـامع النفس وجـانب الآداب الشخصـية في الوفاء بالوعود والعهـود، والصـدق والمـروءة، والصـبر على مشـاق الأمور في السراء والضراء والسماح عن أهـل الزلـة من أولي الغفلـة، ومع ذلك كله تواضع الإنسان أمام ربه وخليقة الرب فهذا هـو الـبر لمن اتصف به وفي الحقيقة دليل تحقق ذلك البر في الإنسـان هـو إطمئنـان النفس وسكينة القلب وانشراح الصدر واختيار آجل الثواب على عاجــل الخير وإلا فدعوى البر موجود حتى في أقسى البَرّانيّين واَغلَظ الماديّين وعلى ذلك المنوال أتى الباري بجهات البر مرتّباً لها على ترتيب ترتضيه العقول السليمة. فبدأ بالإعتقاديات من الإيمان بالله الواحد الأحد الــذي هو الأساس للمبدأ وباليوم الآخر بعثاً

للأموات وحشراً في العرصات، وحساباً وميزاناً للحسنات والسيئات، واستحقاقاً للدركات أو الدرجات في النيران أو الجنات والإيمان بالملائكة المخلوقة من النور أي المواد اللطيفة النورية بطريق الأمر الإبداعي لا بالتناسل الإعتيادي. الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون الوسائط بين الله وبين عباده المرسلين. والإيمان بالكتاب المنزل من الله رب العالمين إلى كل رسول أمين والإيمان بالنبيين والمرسلين المصطفين الأخيار الذين هم مظاهر تجليات الرحمة وواسطة إرشاد الأمة الذين في تبليغاتهم الكفاية لأهل الهداية والرعاية للدين.

ثم آداب حسن المعاشرة بإعطاء المال الخاصّ بعد الوفاء بالنفقة الواجبة للممون من نفسه وغيره ذوي القربى من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم البنات والبنين، واليتامى المحتاجين إلى إحسان المحسنين، ثم الفقراء والمساكين من الأجانب وابن السبيل أي المسافرين العائزين، وفي إستخلاص الرقاب من المكاتبين إذا كانت الصرف من الصدقات المستحبة الخالصة عند الله.

ثم آداب تهذيب النفس بالصلاة وسائر العبادات عن درن الغفلة والكسل وبإيتاء الزكاة للمستحقّين عن أوساخ اللؤم والشح ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وبالوفاء بالعهد والوعد وبالصّبر في حالتي الفرح والفزع. وفي البأساء من القحط والجدب والغلاء والضراء بالإبتلاء في الأنفس بالأمراض والعاهات عافانا الله وحين البأس والشدة من الأعداء.

وحاصل تفسير الآيات الشريفة: أنه ليس البر والعمل المرضيّ منحصراً في أن تولوا وجوهكم المشرق والمغرب على أساس أنهما القبلة للنصارى واليهود ويجب بقاء قبلة كل طائفة منها إلى يوم القيامة، ولكن البر برّ من آمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين جميعهم من غير تفرقة بين

أحد منهم والإيمان بالله معناه التصديق بوجود ذاته الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقص والإيمان باليوم الآخر الإيمان بأنه يأتي بعد فناء هذه الدنيا عالم آخر للثواب والعقاب والإيمان بالملائكة الإيمان بأنهم عباد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والإيمان بالكتاب الإيمان بأنه منزل من الله بواسطة الملك المعصوم جبريل، أو بلا واسطة ككلام الباري مع موسى بالذات ومع سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم ليلة المعراج والإيمان بالنبيين الإيمان بأنهم معصومون عن الذنوب وأنهم أشرف الناس حسباً ونسباً، وليس فيهم وصمة عيب منفر، وأن أولهم آدم وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع والتمسك بها واجب على كل مكلف إلى يوم القيامة كما قال تعالى الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون، قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون. والبربرُ من آتى المالَ على حبه، أي حب المال ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل أي المسافرين المحتاجين والسائلين المعوزين وفي فك الرقاب عن الرق للمكاتبين.

وبِرّ من أقام الصلاة على الوجه المشروع فرضاً ونفلاً، وبِرّ من آتى الزكاة لمستحقيها الموفون بعهدهم أي وبرّ الناس الموفين بعهدهم إذا عاهدوا ولم يُخلفوا بدون عذر مشروع وَبر الصابرين في الباساء من القحط والغلاء والضراء من الأمراض والعاهات والبلاء، وبرّ الصابرين

عند البأس والشـدة من لقـاء الأعـداء، أولئـك الـذين صـدقوا وثبت لهم الصدق في الدنيا والدين وأولئك هم المتقون على وجه اليقين.

وقوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ منصوب على المدح بتقدير أخصّ أو أمـدح. وغير الأسـلوب تنبيهـا على فضـيلة الصّـبر ومزيتـه على سـائر الأعمـال والصفات غير الإيمان وهـو كـذلك قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يُـوَفَّى الصَّـابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْـدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَـهُ مِنْ أَخِيـهِ شَـيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِـالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178)﴾

قوله تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُـوا﴾ الآيـة سـبب الـنزول: إنـه كـان في الجاهلية بين حيّين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طَول (أي قوة وزيادة) على الآخر، فَأَقْسَموا لنقتلن الحر منكم بالعبـد والـذكر بـالأنثى. فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية. وأمَرهم أن يتباوؤا أي يتقاصّـوا في قتـالهم على التسـاوي فيقتـل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. أي لا حُران بحر واحـد فيمـا إذا لم يتشاركا في قتله، ولا عبدان بعبد واحد، ولا أنثيـان بـأنثى واحـدة. ولا تدل على أن لا يقتـل الحـر بالعبـد ولا الـذكر بـالأنثى، كمـا لا تـدل على عكسه. فإن مفهوم المخالفة إنما يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى إختصاص الحكم، وقد بيّنا ما كان الغرض هناك.

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي فمن إعتدى منهما على الآخر بعد ذلك بأن إغتنم ولي الدم الفرصة واغتال القاتل بعد العفو أو ماطل القاتل في أداء الدية وهو موسر فله عذاب أليم أي مؤلم في الآخرة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ اه أي ولكم في تشريع القصاص على الوجه المذكور حياة للأمة؛ فلا يمد أحد يده إلى غيره بالقتل غالباً مخافة أن يقتص منه. وفي ذلك كسب إطمئنان على حياة الجاني والمجنى عليه وغيرهما ممن تسري الفتنة إليه يا أولي الألباب والعقول الناضجة الخالصة، لعلكم تتقون الله في المحافظة على القصاص والحكم به والإنقياد التام له.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)﴾

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فرض عليكم. قوله: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي علامة الموت، كالمرض المخوف لاسيما للشيّاب، وقوله ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً كثيراً. وروي ذلك عن علي وابن عباس وعائشة رضي الله تعالى عنهم، وقالوا في سبعمائة دينار إنه قليل. والظاهر أن

المراد بالخير المال الذي يحتمل عادة التبرع بمقـدار منـه مـع بقـاء مـا ينفع من بقي من الورثة ويسد حاجتهم المؤقتة.

وقوله: ﴿الْوَصِـيَّةُ﴾ وهي لغـة كـل شـيء يـؤمر بفعلـه في الحيـاة وبعـد الموت،، وخصّصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعـد المـوت. وقولـه: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالعدل أي لا يزيد على الثلث، ولا يوصى للغـني ويـدع الفقير.

وكان السبب في نزول هذه الآية: أن أهـل الجاهليـة كـانوا يوصـون بمـا لهم للبعدى رياء وسمعة، وطلبا للفخر والشرف، ويتركون الأقـارب في الفقر والمسكنة، فصرف الله تعالى بهذه الآية في بدء الإسلام مـا كـان يصرف إلى الأبعدين إلى الوالدين والأقربين فعمل بها ما كان العمل بها صلاحاً وحكمة.

ثم إن هذا الحكم كان في بدء الإسلام ثم نسخ بآية المواريث كمـا قالـه ابن عباس وابن عمر وقتادة وشريح ومجاهد وغيرهم. وقد أخـرج أحمـد وعبد بن حميد والترمذي وصححه، والنسـائي وابن ماجـه عن عمـرو بن خارجة رضي الله تعالى عنهم أن النبي صلى اللـه عليـه وسـلم خطبهم على راحلته فقال: وإن الله قد قسم لكـل إنسـان نصـيبَه من المـيراث فلا تجوز لوارث وصية.

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الـوداع في خطبتـه يقـول: إن اللـه قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث. وأخرج عبـد بن حميـد عن الحسن نحو ذلك. وهذه الأحاديث لتلقي الأمة لهـا بـالقبول إنتظمت في سلك المتواتر في صحة النسخ بها عند أئمتنا قدس الله أسرارهم، بل

قال البعض: إنها من المتواتر، وإن التواتر قد يكون بنقـل من لا يتصـور تواطؤهم على الكذب، وقد يكون بفعلهم بأن يكونوا عملوا بـه من غـير نكير منهم. على أن النسخ بآيات الفرائض والسنة مبينة لها.

ثم إن القـائلين بالنسـخ إختلفـوا: فمنهم من قـال: إن وجوبهـا صـار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون، وبقي في حـق الـذين لا يرثـون من الوالـدين والأقـربين، كـأن يكونـوا كـافرين، وإليـه ذهب ابن عبـاس رضي الله عنهمـا. وروي عن علي كـرم اللـه وجهـه: من لم يـوص عنـد موته لذوي قرابته ممن لا يرث فقد ختم عمله بمعصية.

وبعد نسخ الوصـية الواجبـة بالنسـبة للوالـدين والأقـربين فالأصـل فيهـا الندب؛ لأنها في ذاتها قربة، وكل قربة لا أقل من أن تكون مندوبة، وقد تكون واجبة لمن كانت عنده وديعة أو عليـه حقـوق الغـير وهنـاك تركـة توفي منها، وقد تكون محرّمة مثل الوصية لجهة المعصـية، أو مكروهـة كالوصية بالزائد على الثلث فيما إذا كان له ورثة. وقد تكون مباحة، كذا قالوا. وفيه نظر، لأن ما وضعه على الندب لا يكون مباحاً فهي مندوبة.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ حقاً مصـدر مؤكـد للحـدث الـذي دل عليـه كتب. أي حق ذلك حقاً.

وقوله: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ للدلالة على أن المحافظة على الوصـية والقيـام من شعائر المتقين الخائفين من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ الضمير عائد إلى الحكم المستفاد من قولـه كتب عليكم أو إلى الإيصاء المستفاد من الوصية. والمبـدِّل إمـا الوصـي أو الشاهد على الأمر أو القائم على تنفيذه من الحكّام. وقولـه: ﴿بَعْـدَمَا سَمِعَهُ﴾ المراد بعدما وصل إليه وتحقق عنده. وقوله: ﴿فإنما إثمه﴾ أي

فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّله؛ لأنه الذي خان وخـالف الشرع، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدلين.

وقولـه تعـالى: ﴿فَمَنْ خَـافَ﴾ الآيـة الخـوف: توقـع مكـروه عن إمـارة مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء توقع محبوب كذلك. والجنـف الميـل بالخطـأ في الوصـية. والإثم هـو التعمـد فيـه. وهـذه الآيـة الشـريفة في معـنى الإسـتثناء من المبـدلين أي كـل مبـدل لـه أثم إلا من ادرك أن الموصي يميل إلى ظلم خطأ أو تعمداً، وحصـل هنـاك نـزاع بين الورثـة والموصى لهم، بأن يأمر الموصي بالعـدل والرجـوع عن تلـك المظلمـة في الوصية ودفع ما يورث النزاع والفتنة حالاً أو مـآلاً فلا إثم عليـه لأنـه أراد الإصلاح وأصلح بينهم فعلا فهو مثاب لا معاقب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أتي به للوعد بـالثواب للمصـلحين. ويدخل في الجنف والإثم ما لو وصى الموصي بالزيادة على الثلث عنـد إباء الورثة، أو بالحرام أو المكروه والوصية للوارث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَـا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ (183) أَيَّامًـا مَعْـدُودَاتٍ فَمَنْ كَـانَ مِنْكُمْ مَرِيضًـا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُـومُوا خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ (184) شَهْرُ رَمَضَـانَ الَّذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآَنُ هُـدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَـاتٍ مِنَ الْهُـدَى وَالْفُرْقَـانِ فَمَنْ شَـهِدَ مِنْكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُـمْهُ وَمَنْ كَـانَ مَرِيضًـا أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَـرَ يُرِيـدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْـرَ وَلَا يُرِيـدُ بِكُمُ الْعُسْـرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية واعلم أن الصوم أحد الأركان الخمسة للإسلام. وهو من العبادات الراسخة السابقة في الأديان السماوية لما يترتب عليه من المحاسن. فإن الإنسان قبل كل شيء يهمه الأكل والشرب لإدامة حياته، ثم المشتهيات النفسية. فالأكل والشرب من لوازم حياته والشهوات من التوابع، فإذا امتنع من هذا الأمر الذي هو من لوازم ذاته إطاعة لله تعالى فقد تحلّى بعبادته تعالى. وإذا صام وأمسك عن المفطرات صوماً يستحب في الدين فلاشك أنه تضعف قوته الشهوية فيتعفف وينال رضاء ربه تعالى والصبر عن الأكل والشرب وقضاء الشهوة في درجة لا حساب لها.. وعليه يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ويقول صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته لأَجْلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي)). ويقول صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغَضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)) أي قاطع لشهوته.

ففي الصيام تدريب النفس على الجوع والعطش تدريباً يعود بالنفع له أيام الشدائد والمجاعة والحروب. وفيه كبح جماح النفس عن الشهوات وتنويرها بأنوار الطاعة وتقريب لها إلى رضاء الباري سبحانه وتعالى. وفيه إنتباه لأحوال الجياع العطاش وترحم بهم. وفي ذلك إقتراب من الله

تعالى. فقد ورد: الراحمون يرحمهم الرحمن. علاوة على مـا يظهـر من تجليـات رحمـة البـاري سـبحانه وتعـالى عنـد الإفطـار، وعنـد السـحور، ووقت الأسحار، ويوم البعث والوقوف بين يدي الله العزيز الغفار.

وللصـوم درجـات: صـوم العمـوم، وصـوم الخصـوص، وصـوم خصـوص الخصوص. أما الأول: فهو كف البطن والفرج من قضـاء الشـهوة. وأمـا الثاني: فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسـائر الجـوارح عن الآثـام. وأمـا الثـالث: فهـو صـوم القلب ومنعـه عن الهمم الدنيـة والأفكـار الدنيويـة، وتوجيهـه إلى اللـه تعـالى فيتنـور بـأنوار القـدس، ويطمئن، وفي الإطمئنان سعادة الإنسان.

وشــرائط وجوبــه: الإســلام والبلــوغ والعقــل والقــدرة على الصــوم. وفرائضــه: النيــة أي قصــد صــيام فــرض رمضــان تلــك الســنة بالليــل. والإمساك عن الأكل، والشرب، والجماع، وتعمّد القيئ. والمفطرات: ما وصل عمداً إلى الجوف أو الرأس أو الحقنة في أحـد السـبيلين والقيء عمداً والوطء عمداً في الفرج والإنزال عن مباشرة، والحيض والنفـاس والجنون والرّدة. ويستحب فيه تعجيل الفطـر، وتـأخير السـحور، وتـرك الكلام الفاسد.

وأما لوازم الإفطار فأربعة: القضاء ووجوبه عامّ على كل مسلم مكلــف تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر. فالحـائض تقضـي الصـوم وكـذا المرتـد. والكفّارة ولا تجب عند الإمام الشـافعي إلا بالجمـاع، وتجب عنـد الإمـام أبي حنيفة بـه وبغـيره من المفطـرات وهي عتـق رقبـة، فـإن لم يمكن فصوم شهرين متتابعين، وإن عجز فإطعام ستين مسـكينا كـل مسـكين مدّ عندنا، وطعام مسكين عند الحنفيـة نصـف صـاع من الـبرّ. والفديـة: وتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولـديهما، لكـل يـوم مدّ وهذا

عند الشـافعي، والشـيخ الهـرم إذا لم يصـم تصـدّق عن كـل يـوم مـدّا. وإمساك بقية النهار، ويجب على من عصـى بـالفطر أو قصـر فيـه. وإذا شهد بالهلال عـدل واحـد يـوم الشـك، والصـوم في السـفر أفضـل من الفطر إلا إذا لم يطقه. ولا يفطر يوم يخـرج وكـان مقيمـا في أولـه، ولا يوم يقدم، إذا قدم صائما.

وما عـدا الصـوم الـواجب إمـا حـرام وهـو صـوم يـومي العيـدين وأيـام التشريق الثلاث، وإما مكروه، وهو صوم يوم الشك. إلا أن يوافق عـادة له، والنصف الأخير من شعبان وإما مندوب، وهو إما يتكرر في كل سنة كصوم ست من شوال، ويوم عرفـة، ويـوم عاشـوراء، والتسـعة الأولى من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم. وجميع الأشـهر الحـرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. أو يتكرر في الشـهر وهـو أولـه، وأوسـطه، وآخـره. أو يتكـرر في الأسـبوع وهـو صـوم يـوم الإثـنين والخميس. والتفصيل في كتب الفقه فلتراجعْ.

وبعد بيان تلك النبذة نقول: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية نـداء منـه سـبحانه وتعـالى للمؤمـنين ويقـول يـامن إتصـف بشـرف الإيمـان الداعي لإطاعة الرحمن إعلموا أنه كتب وفرض عليكم الصـيام، وجعـل ركناً من أركان دينكم، كمـا كتب على المكلفين الـذين كـانوا من قبلكم في عهـد الأنبيـاء والأمم السـابقين. وفي ذلـك توكيـد للحكم الإيجـابي، وترغيب لهم في الوفاء به إعتقاداً وعملاً خالصـاً وتطـييب لأنفسـهم في فرض طاعة مباركة في العمل بها سعادة للدارين. وإنمـا فـرض عليكم لعلكم تؤدونه وببركة أدائه تتقون المعاصـي، فـإن الصـيام قـاطع لعـرق النزوع إلى المشـتهيات الفاسـدة الـتي تـؤخر الإنسـان عن السـبق في الدين.

وقولــه: أيامــاً معــدودات يعــني كتب عليكم الصــيام والإمســاك عن المفطرات في أيام معدودات من الفجر إلى غـروب الشـمس. وقولـه: ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ كناية عن قلتها فإن القليل من الشـيء يعـدّ عـدّاً. والمـراد بها أيام شهر رمضان المبارك الذي يأتي بعدُ.

ولمـا فـرض البـاري صـيامه على المكلفين ولا يخلـو أهـل التكليـف عن الأعـذار المانعـة غالبـا أتى بـإخراج المعـذورين فقـال: فمن كـان منكم مريضاً مرضاً لا يتحمل معه الصيام عـادة، أو كـان على سـفر مسـتقراً عليه ومباشـراً لـه بحيث يعتـبر الصـيام فيـه خارجـا عن طاقـة أوسـاط الناس فالواجب المحتم عليه صيام عدة من أيام أخر بقدر ايام سـفره، إن أفطر في أيام مرضه أو سفره. فتأجيل الصيام لهمـا رخصـة لوجـود العذر لهما مـع قيـام السـبب لأداء الـواجب. هـذا في المعـذورين بعـذر طارئ غيرِ مزمِنٍ. وأما المعذورون بعـذر ثـابت لا يـزول عـادة في ذلـك الشهر؛ كالشيخ الهرم، والعجوز العاجز، فلا تجب عليهم الصـيام وجوبـاً منجـزاً، وإنمـا يجب وجوبـاً مخـيراً، فـإن صـاموا فقـد قـاموا بـالواجب المبارك، وإن أفطروا وأدّوا الفدية عنه فقد فازوا برضـاء البـاري تعـالى وتبارك. فقولـه تعـالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَـهُ فِدْيَـةٌ﴾ أي وعلى الـذين يبلغون في الصيام نهاية طوقهم وطاقتهم لعسره عليهم أو على الــذين يسلبون طاقتهم عن الصـوم أي لا يقـدرون عليـه حسـب العـادة فديـة، وهي: طعام مسكين مقدر بمدّ من الطعام عند الحجازيين، ونصف صاع من بر عند الأئمة العراقيين الناشرين لأحكـام الـدين فيهـا عبـد اللـه بن مسعود وأشباهه. فمن تطوع خيراً فـزاد في الفديـة فهـو خـير لـه، وأن تصوموا أيها الذين عسر عليكم فهو خير لكم من الفدية لأن الأصل خير من الفرع، إن كنتم تعلمون مـا في الصـيام من الأجـر عن العليم العلام ما تركتموه وأدتموه بالإهتمام.

وإنمـا فسـرت قولـه تعـالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَـهُ﴾ على مـا ذكـرت موافقة للقراءات المرويـة الثابتـة الـتي كلهـا نص في معـنى المباشـرة بالعسر والتكليف. فقـد قـرئ يُطَوَّقُونَـهُ على صـيغة المجهـول من بـاب التفعيل، أي يُكَلَّفُونَه ويقلّدونه. كما قرئ يتطوَّقُونَه على صيغة المعلــوم من بـاب التفعـل، أي يَتكلَّفونـه. كمـا روي يَطَّوَّقُونَـه بفتح اليـاء والطـاء والواو المشددتين من باب التفعل، وأصله يَتَطوّقونه، فقلبت التـاء طـاء وأدغمت الطاء في الطاء ومعناه يَتكلفّونه.

وقرئ (يُطَيِّقُونَه) بضم حرف المضارع وفتح الطاء المخففة وكسر الياء المشددة، وأصله يُطَيْوقونه مثالَ يُبَيطرونَـهُ، فاليـاء زائـدة، والفعـل من الطوق. و(يَطّيّقونـه) بفتح حـرف المضـارع والطـاء واليـاء المشـدّدتين، وأصله يَتَطَيْوقُونه. وهاتان القراءتان على صيغة المبني للفاعـل وقـالوا: إنهمـا من فَيْعَـلَ وتَفَيْعَـلَ. لا من فعّـل وتفعّـل بتشـديد العين. وإلا لكانـا بالواو دون الياء؛ لأن المجرد طوق بالواو. فاجتمع فيهمـا الـواو الأصـلية واليـاء الزائـدة فقلبت الـواو يـاء وأدغمت اليـاء في اليـاء على القاعـدة المقررة. فتكون الصـيغتان من الملحقـات بالربـاعي بزيـادة اليـاء قبـل عين الفعل كما في بَينطرَ. ومعناهما يتكلّفونه أي الصيام. لكنـه يسـتفاد من الشهاب على البيضاوي أنهما من فعّل وتفعل بتشـديد العين كفـرّح وتكسر. وضعّفت الواو الـتي هي عين الفعـل، ثم قلبت يـاء لأنهـا أخـف على اللّسان. ويقول: إنه قد كرر (ابن جني) هذا القلب وجعله كقاعــدة ثابتــة بلا تــردّد. قلت: وعليهـا يسـتعمل التقـييم بـدل التقـويم. وهـذه القـراءات منقولـة من ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا، وكلهـا يـدل على معنى يتكلفونه وتتفق مع ما ذكرنا في تفسير ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ من

باب الإفعال. وتنطبق على الشيوخ والعجائز الضعاف حيث يكتفي منهما بالفدية وإن كان الصوم لمن صام منهما اَحْسَن وَاَوْفى.

ولا داعي لتفسير ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ بإطاقة الصيام بسهولةٍ وتقدير حرف النفي عليه، إذ تقدير حرف النفي عند بيان الأحكام ينفيه المعقول والمنقول. نعم قد فسر ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ على الطاقة الإعتيادية المضبوطة بناء على أن الصوم كان إختياريا في أول تشريعه ثم نسخ بقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ الآية الكريمة. لكنّ المحقّين من المحقّقين عارضوا هذا المعنى لوجوه:

الأول: أن صدر الآيات يصرح بأنه كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم في الأديان السابقة، ولم ينقل أحد أن الصيام كان إختيارياً فيها.

الثاني: أنّ بيان أحوال المعذورين من المسافرين والمرضى يدل دلالة واضحة على أن الصيام لم يكن إختيارياً لا في الأول ولا في الآخر لأن الأمر الإختياري لغير المعذورين يكون إختيارياً للمعذورين بالطريق الأولى.

الثالث: أنه لو كان منسوخاً بقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن الآية ما كان يذكر الباري تعالى في آخرها يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر؛ لأن إرادة اليُسْر تنافي نسخ التخيير إلى التنجيز وإيجاب الصيام وحده، وهو ظاهر.

وعليه فقد ثبت تشريع الصيام في شهر رمضان، وبيّن حكم المعذورين بأعذار مؤقتة كالمسافرين والمرضى بأن لهما الإفطار ثم قضاء ما فات في أيام أخر، كما بيّن حكم المعذورين بأعذار لا تزول كالشيوخ والعجائز بأن عليهم الفدية لا غير.

وأما المعذورون بالإبتلاء بالأشغال الشاقة في شهر رمضان المبارك كالحصّادين، والدّياسين، والحدادين، والحاملات، والمرضعات اللاتي يخفن على أنفسهن أو الحمل أو الولد، وأمثال أولئك فقد قرر الفقهاء قياسها على المسافرين أو المرضى مرضاً موقتاً بجامع وجود المشقة التي لا تطاق حيث قرروا أن لهم الإفطار ثم قضاء ما فات من الصّيام. وأما إيجاب الفدية على الحامل والمرضع إذا خافتا على الحمل أو الولد لا على النفس فهو أمر إجتهادي مقرر ومدلل في محلّه.

وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ وخبره يأتي، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي ذلكم شهر أو هي أي تلك الأيام شهر رمضان، وعلى قراءة النصب بدل من قوله ايّاماً معدودات، ورمضان مصدر رَمَضَ إذا احترق ولكنه مصدر شاذ، لأن الموزون بفَعَلان لا يأتي في الفعل اللازم. وأسماء الشهور العربية ثلاثة مها صارت أعلاماً مع لفظ شهر وهي: شهر رمضان، وشهر ربيع الأول، وشهر ربيع الثاني. والباقي منها أعلام بدون لفظ شهر، ولا حاجة إلى إضافة شهر إليها ولذلك قالوا:

ولا تضف شهراً إلى اسم شهر

إلا لما أوّله الرا فادر

واستثن منه رجباً فإنه

ممتنعٌ إضافةٌ الشهرِ لَه

وعلى ذلك فنحو قوله صلى الله عليه وسلم: ((من صام رمضان الخ)) من باب حذف جزء العلَم لعدم الإلتباس.

وهو غير منصرف للعلمية والألف والنون المزيدتين، ولا يقدح فيه وجود المضاف.

وقوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ﴾ أي أنزل فيه كلّه من اللوح المحفـوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل منجما إلى آخـر حيـاة الرسـول صلى الله عليه وسلم أو ابتدئ فيه إنزاله وكان ذلك في ليلة القدر، كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. وقـال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ﴾. ولا نظـر إلى أن شـهر رمضان من الشهور العربية. وهي دائماً في التحول والإختلاف فتقع في مواسم الفصول الأربعة فإنّه لمّا أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القـدر من ليالي رمضان فقد قرر جزءً من هذا الشـهر موسـم نـزول تجليـات الرحمة على العباد المطيعين؛ لأنه أخبر بأن تلـك الليلـة تفضـل العبـادة فيها على عبادة الف شهر. فاحفظه. وهو تعالى قادر على إنزال رحمته في كل آن على من يشاء من عباده.

والقرآن في الأصـل مصـدر كـالغفران بمعـني القـراءة، ثم جعـل علمـاً للقدر المشترك من الكتاب المنزل على سيدنا محمد صـلى اللـه عليـه وسلم كله أو بعضه. فسورة الإخلاص قرآنٌ ومن القرآن. وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ حـال من القـرآن، وهدايتـه لهم بيـان طريـق الحـق والصـراط المستقيم. كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآَنَ يَهْـدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ حال منه أيضا. وتفيـد أنهـا تشهد على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باعتبار أنّها تعجــز الثقلين عن معارضتها والإتيان بمثلها وتُفَـرِقُ بَين الحـق والباطـل. فـإن القرآن هو القول الفصل، وهو الحكمة وفصل الخطـاب، وقولـه تعـالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ تأكيد لفرض صيامه على المكلفين.

ثم إن شهود الشهر عبارة عن حضور المكلـف شـهر رمضـان، ودخولـه فيه وللائمة فيه آراء. قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن كانت السماء

مُغَيَّمَة قبـل واحـد، وإن كـانت صـاحية ببلـد أو قريـة كبـيرة لم تقبـل إلا شهادة الجم الغفير. وروي عنه أنه تقبل شـهادة عـدلين. وقـد روي عن مالك رضي الله عنه أنه لا يجـوز أن يصـام ولا يفطـر بأقـل من شـهادة رجلين عدلين. وقال الشافعي في رواية المزني أنه يصام بشهادة رجل واحد على الرؤية ولا يفطر بأقل من شهادة رجلين.

وسبب إختلافهم إختلاف الآثار في هذا الباب وتردد الخـبر في ذلـك بين انّه من باب الشهادة أو من باب العمل بالأحاديث الـتي لا يشـترط فيهـا العدد بعـد الإتفـاق على قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم صـوموا لرؤيتـه وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين.

وإذا ثبتت رؤية الهلال في أيّ بلد ثبت حكمها في البلد الغربيّ منه، وأما في البلد الشرقي فتثبت عند من لم يعتبر باختلاف المطالع كابي حنيفة ومالك وأحمد. وأما عند الإمام الشافعي فلا تثبت فيـه إعتبـاراً بـاختلاف المطالع.

روى مسـلم عن كُـرَيْب أن أم الفضـل بنت حـارث بعثتـه إلى معاويـة بالشام، قال: فقدمت الشـام فقضـيت حاجتهـا، واسـتُهل عَلَيَّ رمضـانُ وانـا بالشـام فـرأيت الهلال ليلـة الجمعـة، ثم قـدمت المدينـة في آخـر الشهر فسألني عبدالله بن عباس رضي اللـه عنهمـا فقـال: مـتى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة. فقـال: لكنـا رأينـاه ليلـة السـبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين، أو نراه. هكـذا أمرنـا رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾ للمريض أحوال: الأولى أن لا يطيـق الصـوم فعليه الفطر وجوبـاً. الثانيـة أن يقـدر على الصـوم لكنـه بمشـقة وتعب فيجـوز لـه الفطـر ويـترجح على الصـوم. الثالثـة: أن يقـدر عليـه بـدون مشقة فيجوز له الصوم ويترجح على الفطر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ إختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر وقصر الصلاة. فقال الإمام أبو حنيفة: ثلاثة أيام. وعند الشـافعي يومان. وكذا عند مالك. والذي في البخاري وكان ابن عمـر وابن عبـاس يفطران ويقصران في أربعة بُرُدٍ وهي سـتة عشـر فرسـخا. والفرسـخ: ثلاثة أميال. والميل: ستّة آلافِ ذراعٍ بذراع اليد. وهذه المسافة تسـاوي (80. 5) كيلومتر و(140) متراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَـدَاكُمْ﴾ يعـني بين الله تعالى الأيام المعدودات للصيام المفروض بشـهر رمضـان المبـارك حتى يتحدد عندكم أيام الصيام، وتكمّلوا عدتها، فإن الشهر ظرف معين محدود بالإبتداء والإنتهاء ولتكبّـروا اللـه بعـد إنتهـاء الشـهر، إعلانـاً لختم عبادته وإعلاماً بعظمة شريعته. وفي صيغة التكبير اَوْجُهٌ. والمقـرر عنـد الإمام الشافعي ألله أكبر الله أكبر الله أكبر (ثلاث مرات) لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر (مرتين) ولله الحمد. ويسن التكبير عنده بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى الشروع في صلاة العيـد، وينقطـع بعـد ذلـك في عيـد الفطـر. ويبقى في عيـد الاضـحى إلى عصـر آخـر أيـام التشريق. كما أن التكبير هناك يبدأ بصبح يوم عرفة المبارك.

ولعلكم تشكرون ربكم على تشريع هذا الصيام لنيل الرضا ودرجات دار السلام وتحديد أيامه بشهر حتى لا تشتبه عليكم بمرور العصور والأيـام، وترخيصه للمرضى والمسافرين وبإباحة الإفطار وقضاء ما فـاتهم رفعـاً للعقاب على الآثام.

﴿وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)﴾

سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقريبٌ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزلت الآية. وهذا ما ذكر في سبب النزول. والواقع أنّ الآية الشريفة مَمْزوجَةٌ ببيان الصيام وأحكامه، ثم إكمال العدة وتكبير الله تعالى وشكره على هذه الإنعامات العظيمة، فعقبها بهذه الآية المباركة للدلالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم وسميع لأقوالهم، ومجيب لدعائهم إذا كانوا مستجيبين لله تعالى في أداء الواجبات وترك المحرمات، والإتيان بسائر الطاعات.

ومعناها: أنا معهم حيثما كانوا ولا أضيع عمل عامل منهم، وإذا دعاني داع منهم فإني مجيب له ومجازيه على دعائه، وكذلك شأني مع عبادي المؤمنين فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والإطاعة والإحسان. وليؤمنوا بي على بلاغ المرسلين ونوابهم وليثبتوا ويداوموا عليه في مستقبل الأزمان لعلهم يَرْشدون ويصيبون الحق فينالوا سعادة الدنيا والدين.

فإن قال قائل: قوله تعالى: فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني حقٌ. فما للداعي قد يدعو ولا يجاب؟ فالجواب: أن الآية الكريمة وإن كانت مطلقة لكنها مقيدة بقيود واردة في الكتاب والسنة.

منها: أن يكون الدعاء بتفرغ وخفية أي بينه وبين ربه لا بالرياء والجهار. وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ومنها: أن لا يكون الداعي معتدياً بأن يدعو دعاء فيه إثم أو قطع رحم ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها قالوا: اِذن نُكثِر. قال: الله أكثر)).

أي: اللهُ أوسع نعمةً، وأَوْفى دائرةً للقبول.

ومنها: أن لا يكون أكلُه وشربُه ولبسُه وسكنُه حراماً. قال صلى الله عليه وسلم: ((الرجل يطيلُ السفر أشعث أَغبَرَ يمد يديه إلى السماء: ياربّ ياربّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك؟)).

ومنها: أن يكون الدعاء بالعزم. روى الأئمة، واللفظ للبخاري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة. ولا يقولن: أللهم إن شئتَ فأعطني فإنه لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ)).

ومنها: ملاحظة الأوقات والأحوال فإن للدعاءِ أوقاتاً وأحوالاً يكون الغالب فيها الإجابة وذلك كالسحر، ووقت الإفطار، وما بين الأذان والإقامة، وما وافق نزول المطر، أو حالة الإضطرار، أو المرض أو السفر. وما كان في المسجد الحرام أو بين الركن والمقام، أو عند رؤية روضة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام. وما كان بعد صلاة الحاجة وهي ركعتان يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون، وفي الثانية الإخلاص ثم يحمد ربه ويسبحه ويهلل ويصلي على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ثم يدعو بعزم ورغبة وظنّ إجابة فإنه إن شاء الله يستجاب له.

وقد يستنبط غالب هذه القيود من قوله تعالى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ ومعناه فليطيعوني في ما آمُرُهم وأنهاهم حتى اجيبُ لهم دعاءَهم ومَترجّاهم.

وبعد ذلك فليعلم المؤمن العاقل أن الله تعالى فاعل مختار وفعّالٌ لما يُريد، وجميع وعوده مقيدة بالمشيئة. فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وقال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾. ويقول: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾. وما يدريك فلعل ما دعوت به لنفسك قد دعا به أحد قبلك أو معك لنفسه وَقَد قبل الله دعاءه، فقد سبقك بها عكاشة. أو أن ذلك الأمر الذي تدعو بحصوله قد أبرَم الله فناءه أو ما تدعو بزواله قد أبرم الله القضاء ببقائه، ومعلوم أنه لا مرد لقضائه.

والحاصل: إن الدعاء بالخير لك أو لغيرك بحصول نعمة أو بدفع نقمة بعد تحقق القيود السابقة هو تحت المشيئة رداً وقبولاً. ولكن دائرة القبول أوسع. ونرجو من الله سبحانه وتعالى القبول بفضله ورحمته إنه سميع قريب مجيب.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)﴾

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ الآية بيان لبعض أحكام الصوم. روى البخاريّ عن البراء قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبلَ أن يُفطر لم يأكل ليلتَه ولا يومَه حتى يمسِي. وإن قيس بن صَرمة الأنصاريّ كان صائماً، وفي رواية كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائماً فلما حضر الإفطار أتى أمراته فقال لها: أعندكِ طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلقُ فأطُلبُ لك. وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته إمرأته، فلما رأته قالت: خَيْبَةً لكَ! فلما انتصف النهار غُشِيَ عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فنزلت هذه الآية أحلّ لكم الآية. ففرحوا فرحاً شديداً. ونزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

وفي البخاري أيضاً عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رَمَضَانَ كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ فقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ﴾ بصيغة الماضي المجهول يقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك ثم نسخ وأبيح. وقوله: الرفث كلمة جامعة لكلّ ما يريد الرجل من إمرأته. وقال ابن عرفة: الرفث هنا الجماع. وضمّن معنى الإفضاء الذي يراد به الملابسة. ولذلك أوصل بكلمة إلى، وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ إستئناف لبيان سبب الإحلال، وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة إجتنابهنّ. وأصل اللباس في الثياب، ثم سمي إمتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب، أو لأن كلاً منهما يستر صاحبه ويمنعه من الفجور. وقوله:

﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها وتظلمونها بتعريضها للعقاب. والإختيان أبلغ من الخيانة كالإكتساب أبلغ من الكسب.

وقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ أي بعد نسخ التحريم عنكم. وكان التحريم بالسنة ونسخت بالقرآن. وقوله: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إرشاد للمؤمنين بأن يطلبوا عند المباشرة ما كتب الله لهم من ولد صالح يستفاد من عمله ونسله كأصله وإعفاف النفس عما يبعدها عن القدس.

وقوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بيان مبدأ الإمساك، والخيط الأبيض: مبين بالفجر وظهور بياض الأفق الشرقي، واستغنى به عن بيان الخيط الأسود بالليل. وقوله: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بيان لمنتهى الإمساك. فجعل الباري تعالى كل الليل ظرفاً للأكل والشرب والجماع وسائر المباحات كما جعل كل النهار ظرفا للصيام والأعمال الصالحة وسائر المباحات للأنام. فمعناه أنه إذا أصبح جنباً واغتسل بالنهار صح صيامه، ولكن على المغتسل الإحتياط لصيانة منافذه عن تسرّب الماء منها إلى الجوف الشرعي، يعني الدماغ والحلقوم والمثانة وما قابلها من الوراء. كما أن في الآية دليلاً على أنه يحل الإفطار بدخول الليل، وعلامته ظهور السواد من الأفق الشرقي. ومن الخير للأمة التعجيل بالإفطار عند إنتهاء النهار.

وتيقن دخول الليل لا يحتاج إلى أكثر من دقيقتين. ويستحب السّحور وتأخيره أفضل لمزيد القوة في الأمر ولاقتراب الفجر. ومن إتمام الصوم استصحاب النية من أوله أي عند بقاء جزء من الليل لأن الصيام عمل مهم من أركان الإسلام. وقد قال صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات)). وظاهر الحديث الشريف أنّ وجود العمل المشروع بالنية، وهي قصد إمساكه في جميع نهار الغد عن أداء فريضة رمضان السنة التي هو فيها.

ويستحب الإعتكاف في كل وقت، وفي العَشر الأواخَرَ من رمضان أفضل لطلب نيل بركة ليلة القدر. وهي في أوتارها أرجى، وميل الشافعي إلى أنها ليلة الحادي أو الثالث والعشرين. وميل أبي حنيفة إلى أنها ليلة السابع والعشرين. وهو لغة: الملازمة للشئ والعكوف عليه. وفي عرف الشرع: ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص، في موضع مخصوص. وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب بل قربة من القُرب. وأجمعوا على أنه لا يكون إلا في المسجد، وأقله عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة. وقال الشافعي: أقله لحظة ولا حدَّ لأكثره. ويكون مع الصوم وبدونه وعند أبي حنيفة يشترط أن يكون مع الصوم. والجماع يفسد الإعتكاف، وعليه قوله تعالى ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فإذا جامع المعتكف في المسجد أثم وبطل إعتكافه أو في غيره بطل ولم يأثم إن كان الإعتكاف نفلاً وإلا أثم.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي تلك الأحكام الستة المذكورة المشتملة على: إيجاب وتحريم وإباحة حدود حاجزة بين الحق والباطل، فلا تقربوها حتى لا تقربوا الباطِلَ. والذي أعتقده أن جملة لا تقربوها كناية عن لا تمسوها بسوء ولا تخالفوها؛ لأن من كان حارسا على طعام أو شراب واقترب منهما يمد اليد اليهما غالبا، فكذلك كل حكم من أحكامه تعالى يجب المحافظة عليه، ولا يخالفه المكلف. فذكر تلك الجملة كناية عن تلك الجملة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كذلك المذكور من الأحكام الواضحة المبينة يبين الله آياته أي آيات أحكامه للناس لعلهم يتقون المعاصي فيرتقون على مدارجِ رحمةِ ربِ العالمين.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188)﴾

نزلت الآية في عبدان ابن أشرع الحضرمي إدعى مالا على إمرئ القيس الكندي واختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنكر إمرئ القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية فكف عن اليمين، وَحَكّمَ عبدان في أرضه ولم يخاصمه. وامرؤ القيس هذا صحابي وليس الشاعر المشهور؛ لأنه جاهليّ. وسبب النزول خاص والحكم عام يتضمن جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض نقداً أو عرضاً، ولا يتمتع بمنافعه بدون حق فيدخل في هذا القمار، والغش، والخداع، والغصب، وسائر وجوه الإستيلاء على أموال الناس.

كما يستفاد منها حرمة التوسل بالمحاكم الشرعية لأخذ مالٍ بالطريق المعتاد ما دام يعلم أن لا حق له فيه.

ويستفاد من الآية الشريفة أن حكم الحاكم باستحقاق شخص لمالٍ بشهود ظاهرهم العدالة إنما ينفذ ظاهراً لا باطناً وأنه يحرم على المدعي التمتع بذلك المال. قال صلى الله عليه وسلم: ((إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه. فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار فليحملها أو يذرها)).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)﴾

روي أنه صلى الله عليه وسلم سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم؛ فقال: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ؟ فنزلت الآية. سألا عن السبب والعلة لعروض الإختلافات على القمر فيبدو دقيقاً ويسمى بالهلال، ثم يزداد حجمه إلى أن يبلغ صورته في التربيع، ويزداد إلى البدر ثم يتناقص إلى آخر الشهر فيغيب ويعود مرة أخرى كما السابق.

ولما لم يكونوا مستعدين لفهم تلك الأسرار لغموضها ووقتها أجاب بيان الحكمة والفوائد الناشئة عن تلك الإختلافات لتكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، وللعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها ولاسيما للعبادة التي كان ركنا من الإسلام وهو الحج؛ فإن الوقت فيه مرعي جدا ولا يجوز النسيء فيه وتأخير وقته. وذكر أن مثل أولئك السائلين كمثل من اراد أن يدخل داراً وترك باب البيت ولم يدخل منه، ودخل من ورائه. وقال بعض: إن قوله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إتصل بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقت السؤال عن الأهلّة وعن دخول المـُحْرِمين بيوتهم من ظهورها فنزلت الآية فيهما جميعاً. وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعاً ألّا يحول بينهم وبين السماء حائل، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك أي من عند إحرامه من بيته فرجع لحاجة لا يدخل من باب الهجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء، فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم في حجرته، فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته، فكانوا يرون هذا من النسك والبر كما كانوا يعتقدون

أشياء نسكاً فردّ الله عليهم فيها وبين الله تعالى أن البر في إمتثال أمره، فقال تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى. أي ولكن البر بر من اتقى المحارم، وترك ما حرّمه الله تعالى عليكم. ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، إذ ليس في العدول عنها برّ، وباشروا الأمور من وجوهها، واتقوا الله في تغيير أحكامه، لعلكم تفلحون وتفوزون بالفلاح وتصلون إلى المطلوب بإطاعة ربّ العالمين.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)﴾

لما كان المشركون صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيُخْلُوا له مكةَ ثلاثة ورجع عليه السلام لعمرة القضاء وخاف المسلمون ان لا يوفُّوا لهم ويقاتلوهم في الحرم أو في الشهر الحرام وكرهوا ذلك.. نزلت الآية. أي إذا دخلتم الحرم وجاء المشركون للقتال فقاتلوا الذين يقاتلونكم ويناجزونكم القتال، ولا تعتدوا بابتداء القتال والمفاجأة به من غير ظهور عزمهم أو مباشرتهم للحرب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. أي لا يريد بهم الخير.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)﴾

قوله تعالى ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآيات إما مربوط بما تقدم، يعني فإن بدؤكم بالقتال فاقتلوهم، أو فتح باب لحرب الكفار وتهيج للمسلمين على محاربتهم. وقوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث غلبتموهم وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملا، والفعل منه ثقف ككرم وفرح. يعني واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم وقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي أخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها، وقد وقع ذلك في من لم يسلم يوم الفتح. وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتتن بها الناس كالإخراج من الوطن إلى الغربة بدون مال وحال أشدّ عذاباً من القتل، فإن عذابه، وإن كان صعباً لكنه موقت بدقائق، وهذه الفتنة تدوم سنين!

قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي ولا تفاتحوهم بالقتال عند المسجد الحرام صيانة له عن هتك حرماته، حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم أي فاتحوكم بالقتال فيه فاقتلوهم، ولا تبالوا بهتك حرمته عند ذلك لاضطراركم إلى القتال، ولأنكم إذا ظفرتم أعدتم حرمة المسجد الحرام كما هو حقه، كذلك الذي أمرنا به من قتالهم عند مفاتحتهم لكم بالقتال فيه جزاء الكافرين المعتدين. وقوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ أي عن القتال والكفر فإن الله غفور رحيم لما سلف منهم من السيئات الإعتقادية والعملية. وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أي وقاتلوهم حتى لا تكون ولا توجد فتنة بالإشراك، ويكون الدين والإعتقاد بالله وحده والعمل خالصاً لله. فإن انتهوا عما نهوا عنه، فلا عدوان إلا على الظالمين المصرّين عليه، إذ لا يَحْسُن أن يُظْلَمَ إلا مَنْ ظَلَم، وقتالهم حينئذ ليس إعتداء وتسميته عُدواناً لمقابلة عُدءوانهم.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَـاتُ قِصَـاصٌ فَمَنِ اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ مَـعَ الْمُتَّقِينَ (194)﴾

نزلت هذه الآية في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة، مقابلة لافتخار المشـــركين على المســـلمين في الســـنة السادســـة حين ردوهم عن العمرة واقتص الله تعالى منهم. يعني لما هتكوا حرمـة شـهركم بالصـدّ فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عَنْـوة وقهـراً. واقتلـوهم إن قـاتلوكم، فعملنا في الشهر الحرام مقابل لعملهم معنا فيه سابقاً، وفي الحرمات قصاص فدخولنا فيه عنـوة في مقابلـة صـدهم لنـا كـذلك. فمن اعتـدى عليكم وبدأ بالإعتداءٍ عليكم فاعتـدوا عليـه بمثـل مـا اعتـدى عليكم، ولا تزيدوا على حقكم في القصاص، واتقوا اللـه في كـل عمـل لم يـرخّص لكم فيه. واعلموا أن الله مع المتقين بالنّصر المبين.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ وَأَحْسِـنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195)﴾

روي عن أبي أيّوب الأنصاري أنه قال: لما أعزّ الله الإسلام، وكـثر أهلـه رجعنا إلى أهالينـا وأموالنـا نقيم فيهـا ونُصـلحها. فـنزلت والمعـنى على هذا: أنفقوا أيها المسلمون أموالكم في سبيل الجهاد لإعلاء كلمـة اللـه، ولا تتركوا الجهاد في سبيله، ولا تلقوا بأيديكم أي أنفسـكم إلى التهلكـة باستيلاء الكفـار فيهلكـوكم بأنفسـكم وأهليكم وأمـوالكم، وَأَحْسِـنوا إلى أنفسِكم وأهْليكم بالإنفاق في سبيل الله والجهـادِ الـذي ينجيكم إن اللـهَ يحبّ المحسنين.

أو المراد: أنفقوا أموالكم في سبيل الله إنفاقاً للواجب أو للصدقات على وجه الإعتدال، ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة بالإسراف والتبذير حتى لا يبقى عندكم نقير. وأحسنوا إلى الناس الذين أساؤا معكم إن الله مع المحسنين.

فالأيدي جمع اليد بمعنى الأنفس، والباء زائدةٌ، والتهلكة على المعنى الأول هو هلاك النفس بالقتل بأيدي الكفار أو الهوان بالبقاء على الذل تحت أمرهم. وعلى الثاني: ضياع الأموال، والفقر المدقع بسبب الإسراف والتبذير. والإحسان في الطاعة: إخلاص يوصل إلى درجة الحضور، وفي الإجتماعيات مقابلة الإساءة بالخير.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ إن الحج ركن من أركان الإسلام الخمس وفرض من فروض الدين، وفي وقت تشريعه أقوال، وراجحها أنه فرض في السنة الثامنة من الهجرة، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ابا بكر في السنة التاسعة فحج بالناس.

والحج: عبارة عن زيارة بيت الله سبحانه وتعالى أداء لفريضة الإسلام في أوقات محدودة بشروط مخصوصة معلومة من الكتاب والسنة.

وأما العمرة: فقد إختلف في وجوبها فمنهم من قال: إنها واجبة ومن أركان الإسلام، وعليه الإمام الشافعي والإمام أحمد، وأبو ثور، وأبو عبيد، والثوري، والأوزاعي. وهو قول ابن عباس من الصحابة، وابن عمر، وجماعة من التابعين. وقال الإمام مالك وجماعة: هي سنة. وقال أبو حنيفة: هي تطوع، وبه قال أبو ثور في رواية وداود. ومن اَوْجَبها إستدل بظاهر قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ حيث إنه مَعْنى الآيةِ الشريفة الأمر بالإتيان بهما تامّين مستجمعين. وهذا على ميزان قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي فأتو بهن كامِلَةً. وقوله تعالى: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. ومن لم يوجبها قال: المراد إتمامهما بعد الشروع فيهما فإن من أحرم بنسك وجب عليه المضي فيه ولا يَفسخه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مقابل المحذوف، أي هذا الإتمام لهما إن قدرتهم عليه. وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى، أي وَان مُنِعْتم من إتمامهما بعدوّ مثلاً، فالواجب عليكم أن تَذْبحو هَدْياً وتتحَلّلوا عَنِ الإحرام على ما يأتي. وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي لا تتحلّلوا عن الإحرام ولا يجوز لكم التحلل بحلق الرأس أو تقصيره حتى يبلغ الهدي المبعوث إلى الحرم الشريف مكانَه الذي يجب أن ينحر فيه، وهو الحَرَمُ كما قال تعالى ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ وقال: ثم محلها إلى البيت العتيق. وما روي من ذبحه صلى الله عليه وسلم في الحديبية مُسَلّم لكن الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم- ذبح

الهـدي في الجـزء الـداخل في الحـرم منـه. وقولـه تعـالى: ﴿فَمَنْ كَـانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ الآية مخصص لقوله تعـالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُـوا﴾ الآيـة أي فمن كان منكم مريضاً مرضـاً يحوجـه إلى الحلـق، أو بـه أذى من رأسـه من جراحة وقمل وصداع، واحتـاج إلى الحلـق وحلـق ﴿فَفِدْيَـةٌ مِنْ صِـيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. أي فعليه فدية من: صيام ثلاثة أيام، أو صدقة بإطعـام ستة مساكين لكـل مسـكين نصـف صـاع، أو نسـك أي ذبح شـاة. ففي البخاري عن عبدالله بن مغفل قال: قعـدت إلى كعب بن عجـرة رضـي الله عنه في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة فسألته عن قوله: فقدية من صيام، فقال: حملت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتنـاثر على وجهي فقال: ما كنت أرى أن الجهد بلغ بـك هـذا. أمـا تَجِـد شـاةً؟ قلت: لا. قال: فَصُمْ ثلاثـة أيّـام، أو أطعمْ سِـتّة مسـاكين لكـل مسـكين نصـفُ صـاعٍ من طعـامٍ، واحلـق رأسـك. فـنزلت فيّ خاصّـة. وهي لكم عامة انتهى.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ الآيـة معنـاه فـإذا كنتم في اَمْنٍ وسَـعَة، ولم تكونوا خائفين، فمن تَمَتَّع بالعُمرة إلى الحج أي إستمتع وتقرّب إلى اللـه تعـالى بـالعُمرة إلى وقت الحج أي كـان هـذا التمتـع قبـل الإنتفـاع بفضيلة مُباشَرَةِ الحج، وكـانَ ذلـك في اَشـهرِ الحج فَيَجبُ عَلَيـه ذبحُ مـا استيسر له من حيوان مجزئٍ في الأضحية. وهـذا الـدم دَمُ جـبران عنـد الإمام الشافعي يجوز ذبحه بعد التحلل من عمرته مـتى شـاء، ولا يأكـل منه إلا فقراءُ الحرم. ودم نسك عند الإمام الأعظم كالأضـحية يجـوز أن يأكل منه هو وأهلُه والأغنياء والفقـراءُ. ولكن لا يجـوز ذبحـه إلا في يـوم النحر وما بعده من أيام التشريق.

وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي فَمن لم يجد الهديَ مطلقاً، أو وجده بأزيد من ثمن المثل، أو وجده به ولم يكن قادراً عليه فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج بعد الإحرام به وقبل التحلل منه، وسبعة أيّام إذا رجعتم إلى أهليكم. تلك عشرة كاملة من أيام الصيام.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي وذلك الحكم وهو التقرب بذبح هدي للواجد وبالصيام تلك المدة للفاقد لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وحاضِرُوه مَنْ كان مسكنه بمكة المكرمة، أو بالحرم، أو بأرض تكون على مسافة القصر، أو اقل منها لا أزيد، وإلا فلا يجب عليه بالتمتع شيء من الواجبات المذكورة.

وفي الفقه: ويشترط أن لا يرجع إلى ميقات إحرامه المعتاد. وإلا فلا شيء عليه، واتقوا الله أي عقابه في مخالفته، واعلموا أن الله شديد العقاب للمخالفين.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197)﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ بيان للميقات الزماني للحج فإن له ميقاتاً زمانيا، وميقاتا مكانيا، أما ميقاته الزماني فقد قال تعالى هو أشهر معلومات، والمراد بها على ظاهر الآية الكريمة ثلاثة أشهر، وهي: شوال، وذو العقدة، وذو الحجة كلها. وهذا ما اختاره الإمام مالك رضي الله عنه ووجهه أنه أراد بوقت الحج وقت أعماله ومناسكه من الأول إلى الأخير وما لا يحسن فيه غيره من المناسك، فإنه يجوز الإحرام

بـالحج في أول يـوم من شـوال وبقـاء الحـاج محرمـا إلى أن يـأتي بالمناسك كلها: أركانهـا وواجباتهـا، وسـننها، ويـرمي الجمـار الثلاث في أيام التشريق واستنكره الشروع بالعمرة في بقية ذي الحجة. وشـهران وعشرة أيام من أوائل ذي الحجة عند الإمـام الأعظم. وأيـد هـذا الـرأي بأنّ يوم النحر وقت لـركن من أركـان الحج، وهـو طـواف الـركن الـذي يسمى طواف الإفاضة وطـواف الزيـارة، وبأنـه فسـر يـوم الحج الأكـبر بيوم النحر، كما فسر يوم الحج الأصغر بيوم عرفة وشهران وتسعة أيام من أوائل ذي الحجة بناء على أن وقت الحج وقت جواز الإحـرام بـالحج فيه، وأنه إذا طلع الفجـر يـوم النحـر لا يبقى المجـال للإحـرام والـوقت فائت ويؤجل الحج إلى سنة أخرى كما أن الوقوف بعرفة إذا فـات فقـد فـات الحج وعلي هـذين الـرأيين في الآيـة الشـريفة تجـوز لأنـه سـمى الشـهرين وبعضـاً من الشـهر الثـالث أشـهراً، وهي تسـمية جاريـة على العرف.

وأما ميقاته المكاني فقد روى الأئمـة أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم وقَّت لأهل المدينة: (ذا الحليفة) ولأهل الشـام (الجحفـة) ولأهـل نجد (قـرن) ولأهـل اليمن (يلملم) ((هنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غـير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة، ومن كـان دون ذلـك فمن حيث أنشـأ)) حتى أهل مكة يهلّون منها. وأجمـع أهـل العلم على القـول بظـاهر هـذا الحـديث واسـتعماله لا يخـالفون شـيئاً منـه. واختلفـوا في ميقـات أهـل العراق وفيمن وقته، فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النـبي صلى الله عليه وسلم وَقَّتَ لأهل المشرق العقيق. قـال الترمـذي: هـذا حديث حسن. وروي أن عمر رضي اللـه عنـه وقّت لأهـل العـراق (ذات عرق). وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم وَقَّتَ لأهل

العراق (ذات عرق) قال القرطبي وهذا هو الصحيح. ومن روى أنّ عُمَرَ وقته لأن العراق أفتتحت في عهده فغفلـة منـه، بـل وقتـه رسـول اللـه صلى الله عليـه وسـلم كمـا وقّت لأهـل الشـام الجحفـة، والشـام كلهـا يومئذ كانت دار كفر كما كانت العـراق وغيرهـا يومئـذ من البلـدان، ولم تفتح الشام ولا العراق إلا على عهد عمر رضي الله عنه.

قال ابو عمر: كلّ عراقيّ أو مشرقيّ أحـرم من ذات عـرق فقـد أحـرم عند الجميع من ميقاته. والعقيق أحـوط عنـدهم، وأولى من ذات عِـرْقٍ. وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع. ثم قال: أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتي الميقات أنّه مُحرِم، وإنمـا مَنَـعَ من ذلـك من رأى أن الإحرام عند الميقات أفضل، كراهيةَ أن يُضيّق المرءُ على نفسه مـا قـد وسّع اللهُ عليه، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يُحـدث في إحرامـه، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك لأنه زاد ولم ينقص. انتهى

وقوله تعـالى: ﴿فَمَنْ فَـرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ يعـني فمن أوجب على نفسـه الحج في تلك الأشهر بالإحرام به فيهنّ أو بالتلبية أو سـوق الهـدي عنـد أبي حنيفة فلا رفث أي فلا يجوز الجماع، ولا القول الفحش. ولا فسـوق أي لا يجوز الخروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات والمحرّمات. ولا جدال ولا مراءَ ولا مجادلة مع الرفاق في الحج. وهـذه الأشـياء كلهـا محرمة في الحج. وإثمهـا فيـه أزيـد من إثمهـا في غـيره. ويـترتب علي الجماع فساد الحج ووجوب الفدية وقضـاؤه في السـنة القادمـة. وهـذه الفقرات الواقعة جزاء للشرط وإن كانت مع مقدّمها قضايا وهي إخبـار لكن المراد بها النهي عنها، وتبعيد الناس عن مباشرتها.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ يعلمه كل إنسان مؤمن فاهم، والغرض منه لازمه وهو الترغيب على الخير قليله وجليله، وإخلاص النية فيه لأن العمل عبادة لمن يستأهله. وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ على معناه الظاهر أمرٌ بالتزود بالأعمال الصالحة التي تنفع العاملين يوم لقاء رب العالمين. وعلى معنى مناسبة مورد نزوله أمرٌ بالحجاج أن يتزودوا بما يحتاجون إليه مدة سفر الحج ذهاباً وإياباً حتى لا يكونوا كلّاً على الناس. وقوله: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ المراد به الأمر بالإخلاص في التقوى لأن أيّ إتقاء وأيّ إجتناب لا يكون لامتثال الله سبحانه وتعالى فهو هابط لا قيمة له في الميزان. جعلنا الله من المتقين المخلصين آمين.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198)﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ عن ابن عباس قال: كانت عُكاظُ، ومجنَّة، وذو المجَازِ، أسواقا في الجاهلية، فتأثموا أنْ يَتجروا في الموسم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت الآية. أخرجه البخاريّ. وعن ابن عباس قال: كانوا يَتّقون البيع والتجارة في موسم الحج ويقولون هي أيام ذكرٍ لله تعالى. فنزلت الآية. رواه أبو داود وابن أبي شيبة. أي لا جناح عليكم في أن تطلبوا عطاء ورزقاً من الله تعالى بالإسترباح في التجارة فلا تظنوا أن في التجارة في موسم الحج إثماً أو نقصاً في مناسككم حسب الأصول المشروعة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ الإفاضة: الإنصباب. وعرفات: كأذرعات جمع لا واحد لهما إذ لم يُسْمَع عرفة ولا أذرعة. وقول الناس: نزلنا بعرفة ليس بعربي محض، وجعلت عرفات إسماً للبقعة المعلومة المعينة الخارجة عن أرض الحرم، وجعل الوقوف بها ركناً من أركان الحج إذا فات فات الحج، ولذلك ورد منه صلى الله عليه وسلم: ((الحج عرفة)) وهي هنا إسم لليوم التاسع وإنما سميت البقعة عرفات؛ لأنها تعتت لإبراهيم عليه السلام فلما أبْصَرها عَرَفها، أو لأن آدم وحواء إلتقيا فيها فتعارفا. وفي الكشاف هي من الأسماء المُرْتَجَلة. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ دليل للأمر بالوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف. وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ ومقدمة المأمور به مأمور بها. وأما وجوب الوقوف بها وكونه ركناً من أركان الحج فيؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة حيث حصره فيها... ولما عُلم أنه ليس محصوراً فيها حقيقة علم أنها أهم أركانه.

ومعنى الجملة: فإذا اندفعتم وانصببتم من عرفات نحو المزدلفة فاذكروا الله بالتلبية والتهليل والدعاء، وقيل: بصلاة العشاءين جمع تأخير عند المشعر الحرام. وهو جبل يقف عليه الإمام ويسمى (قُزحْ) لما روى جابر أنه صلى الله عليه وسلم لما صلّى الفجر يعني بالمزدلفة بغَلَس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبّر وهلّل ولم يزل واقفاً حتى اَسفَر. وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَمُ العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. ومعنى عند المشعر الحرام: مما يقرب منه فإنه أفضل. وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسّر فإن آخره أول مُنى، فليس كلّه موقفاً.

أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك. كما أجمعوا على تمام حجّ من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل إلا الإمام مالكاً فإنه قال لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً وإلا فحجّه ناقص. ثم إختلف الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع إليها بالليل ماذا عليه مع صحة الحج؟ فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأي وغيرهم: عليه دَمٌ. وقال الحسن البصري عليه هَدْيٌ. وقال ابن جريج: عليه (بَدَنَةٌ). وقال مالك عليه: حج قابلٌ الهَدْيُ ينحره في حج قابل وهو كمن فاته الحج. فإنه عاد إلى عرفة حتى يدفع بعد مغيب الشمس. فقال الشافعي: لا شيء عليه، وهو قول أحمد وإسحق وداود، وبه قال الطبري، وقال أبو حنيفة وأصحابه لا يسقط عنه الدم وإن رجع بعد غروب الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أي واذكروا الله تعالى لما علمكم واجباتكم الدينية التي توجب سعادتكم إذا عملتم بها بإخلاص ولاسيما مناسك الحج. وإن كنتم من قبل الهداية والتعليم لمن الضالين عن الطريق السليم.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)﴾

ولما كان قريش لا يقفون مع الناس بعرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم، وكانوا يقولون: نحن سُكّان حَرَمِهِ فينبغي لنا أن نعظّم الحَرَمَ ولا نعظّم شيئاً من الحلّ.. أكد الله تعالى عليهم فقال: ثم أفيضوا أيها الناس الساكنون في الحرم من حيث أفاض الناس أي من عرفة لا من المزدلفة، وكانوا يقفون (بجمع) من المزدلفة وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمروا بأن يُساووهم، و(ثم)

و ﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولـك آحْسِـن إلى النـاس ثم آحْسِن إلى الكرماء.

وقيل: معناه ثم أفيضوا من المزدلفة إلى منى بعـد الإفاضـة من عرفـة إليها، واستغفروا الله من أنانية الجاهلية في تغيير المواقف والمناسـك، واستغفروه من التمايز مع سائر الناس المسـلمين لشـبهات واهيـة، إن الله غفور رحيم يغفر الذنوب لسعة رحمته.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَـدَّ ذِكْـرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَـهُ فِي الْآَخِـرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ رَبَّنَـا آَتِنَـا فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الْآَخِـرَةِ حَسَـنَةً وَقِنَـا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَـابِ (202)﴾

عن ابن عباس: كان أهـل الجاهليـة يقفـون بالموسـم ويذكرون مفـاخر آبائهم، فنزل قوله تعالى فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله الآية.

وعنه أيضاً أنـه كـان قـوم من الأعـراب يجـيئون إلى الموقـف فيـدعون بحصول أمور دنياهم فقط، فنزل قوله: فمن الناس من يقول: ربنـا آتنـا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق إلى آخر الآية الثانية.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ الآية يعني إذا قضيتم مناسك الحج، وفرغتم منها فـاذكروا اللـه كذكركم آبـاءكم وأكـثروا ذكـره وادعـوه وبـالغوا في الأذكار والدعوات كما تبالغون بـذكر آبـائكم وذكـر مفـاخرهم وعـاداتهم المقبولة في الجاهلية، أو أشد ذكراً وأكثر وابلغ وأخلص فإن ذكر الآباء

لا يفيـدكم إلا الفخـر والغـرور والإبـاء بـدون منفعـة واقعيـة، وذكـر اللـه يفيدكم إطمئنان القلوب في العبادة والتوحيد ومزيد القوة على الطاعة الموجبة لسعادة الدارين. فلا تكونوا كالناس القاصرين. فمن الناس من يقول: ربنا آتنا في الدنيا ما تلتذ به ونعتز وينسون أمور الآخرة، وما لهم في الآخرة من خلاق ونصيب إذ لا يطلبونَهُ حتى يجابون إليه، ومنهم من يقـول: ربنـا آتنـا في الـدنيا حسـنة من صـحة البـدن والأمن في الحـال والمـال والمنـال وحسـن صـحبة العيـال والجـيران والأقـارب والكفـاف وغيرها. وفي الآخرة حسنة من ختام العمـل بـالقبول، والعمـرِ بالإيمـان المـوجب للوصـول، وثـواب الأعمـال فضـلاً ورحمـة. وقنـا عـذاب النـار والفوز بالجنة في صحبة الأبرار، وأولئك الفريق الثاني لهم نصـيب واف وافر مما كسبوا من الأعمال الصالحة والدعاء بالحسنتين، واللـه سـريع الحســاب يحاســب العبــاد في وقت قليــل ويعطي الصــالحين الجــزاء الجزيل، والطالحين العذاب الوبيل إلا ما عفا عنه وسامح بفضله وكرمه وإحسانه الجميل.

﴿وَاذْكُـرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْـدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَـوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْـهِ وَمَنْ تَــأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْــهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُــوا اللَّهَ وَاعْلَمُــوا أَنَّكُمْ إِلَيْــهِ تُحْشَرُونَ (203)﴾

قولـه تعـالى: ﴿وَاذْكُـرُوا اللَّهَ﴾ الآيـة يعـني وكبّـروا اللـهَ تعـالى اَدبـار الصلوات، وعند ذبح القرابين، ورمي الجمار وغيرها في أيـام التشـريق. فمن تعجل أي إستعجل النفر في يومين بعد يـوم النحـر الـذي يتم فيـه الأركان من المناسك غالباً وخرج من منى في ثاني أيـام التشـريق بعـد رمي الجمار وقبل الغـروب فلا إثم عليـه في تـرك رمي اليـوم الثـالث. ومن تـأخر في النفـر حـتى رمى الجمـار الثلاث في اليـوم الثـالث بعـد الزوال أو قبله على ما رآه

الإمام الأعظم. فلا إثم عليه ايضاً. ومعناه: التخيير للحاج بين الأمرين. وإن كان البقاء والتأخر أفضل، خلافاً لما عليه أهل الجاهلية من وجود الإثم في التأخر والبقاء، وذلك التخيير واكتساب الجزاء لمن اتقى الله وعمل لرضاه، واتقوا الله في كافة أحوالكم واعلموا أنكم إليه تُحْشَرون.

واعلم ان الحج أحد الأركان الخمسة للإسلام، فهو واجب على كل مكلف مستطيع في العمر مرة واحدة. ودليله من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ﴾ ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا. وقد أجمعت الأمة الإسلامية على وجوبه؛ فيكفر منكره. ويدل على أنه فرض في العمر مرة واحدة: قوله صلى الله. عليه وسلم: ((يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحِجُّوا فقالَ رجل: اكُلَّ عام يارسول الله؟ فسكت صلى الله عليه وسلم حتى قالها ثلاثاً. فقال عليه الصلاة والسلام: لو قلتُ نعم لوجبتْ ولما استطعتم)).

والعمرة واجبة عند بعض الأئمة وسنة عند بعض. ووجوبها فوري عند بعض، وعلى التراخي عند بعض كما هو مؤكد.

والحج له في السنة وقت واحد فلا يمكن الإتيان به في السنة إلا مرة واحدة. وأما العمرة فكل السنة وقتها إلا وقت الإشتغال بأداء مناسك الحج على تفصيل مذكور في محلّه.

وشرائط وجوب الحج: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، ووجود الزاد والراحلة، وخلو الطريق عن الموانع وإمكان المسير. وأركانه أربعة: الإحرام مع النية، والوقوف بعرفة، والطواف بالبيت،

والسعي بين الصفا والمروة. وأما الحلـق أو التقصـير فهـو من الأركـان عند بعض، ومن الواجبات عند آخرين، وواجبات الحج غير الأركان ثلاثـة: الإحرام من الميقات، ورمي الجمار الثلاث، والحلق أو التقصير. والفرق بين الأركـان والواجبـات أن إنتفـاء أحـد الأركـان مبطـل للحج، وأمـا الواجبات فإذا انتفَتْ تجبر بالفدية. وشـرط الإحـرام: الإسـلام، والعقـل، والنية: بالقلب مع التعرض للفرضية. وأما التلفظ بها فسنة. وأما التلبية فشرط عند الحنفية، وليس بشرط عند الشـافعية. ومن سـننه: التـأهب له بتنظيف بدنه من الأوساخ، وحلق العانة ونتف الإبط، وقص الشارب، وقلم الأظفار، وغسل الـرأس، وأن يغتسـل ويصـلي ركعـتين بنيـة سـنة الإحرام. وشروط الطواف سبعة: الطهارة عن الحـدث والخبث، وسـتر العورة والبدء بحجـر الأسـود بحيث يحاذيـه بالبـدن في المـرور، وجعـل البيت عن يساره، وكون طوافه خارج الكعبة وداخـل المسـجد الحـرام، ولو على سطوح المسـاجد. وأن يطـوف سـبعاً، فـإن نقص بطـل الحج، ولكن الحنفية إعتبروا مُعظَم الأشواط من الركن والزائـدَ من الواجبـات تجبر بدم إذا تركه.

وشروط السعي: أن يبدأ بالصفا، فإن بدأ بالمروة لم يحسب من العـدد ويحسب له بعد الوصول الى الصفا ثم السعي منه، وأن يبدأ بالصفا في المرة الثانية، وأن يتقدمه طواف صحيح سـواء كـان طـواف القـدوم أو الركن، وأن يكون عدده سبعاً، وأن لا يقـع بينـه وبين الطـواف ركن من الأركان، فلو طاف للقدوم ثم وقف بعرفة ثم سعى بطل سعيه. وعليـه أن يسعى بعد طواف الإفاضة.

وشروط الوقوف بعرفـة: أن يكـون الواقـف أهلاً للعبـادة لا كـافراً. وأن يكون الوقوف بين زوال اليوم التاسع وطلوع فجر يوم النحر؛ فإن وقف قبل الزوال واقتصر عليه لم يحصل الوقوف. ولو اقتصر على

الوقوف ليلاً صح وقوفه، والأفضل الجمع بين الليل والنهار ولو بجزء قليل.

وسنن الحج سبع: الإفراد، وهو تقديم الحج على العمرة عند الشافعي، والتلبية، وطواف القدوم، والمبيت بمزدلفة، وركعتا الطواف، والمبيت بمنى، وطواف الوداع.

ومحرمات الإحرام عشرة: لبس المخيط، وتغطية الرأس من الرجل، والوجه من المرأة، وترجيل الشعر، وحلقه، وتقليم الأظفار، والطيب، وقتل الصيد، وعقد النكاح والوطء، والمباشرة بشهوة. وفي جميع ذلك الفدية، إلا عقد النكاح فإنه لا ينعقد. ولا يفسده إلا الوطء في الفرج. ومن فاته الوقوف بعرفة تحلّل بعمل عمرة، وعليه قضاء الحج والهدي. ومن ترك ركناً لم يتحلّل من إحرامه حتى يأتي به. ومن ترك واجباً لزمه الدم، ومن ترك سنة لم يلزمه بتركها شيء.

وللمرأة ستر رأسها وسائر البدن بالثوب المخيط، ومن الوجه القدر المجاور للرأس؛ لأن ستر الرأس واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن تسدل على وجهها ثوباً متجافياً بخشبة ونحوها لحر وبرد، أو خوف فتنة، وحرم عليها لبس القفازين، والقفاز شيء يعمل لليدين، وتجب به الفدية كالرجُلِ.

والدماء الواجبة في الإحرام خمسة: الأول الدم الواجب بترك نسك كترك الإحرام من الميقات وهو على الترتيب: شاة، فإن لم يجد فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله.

والثاني: الدم الواجب بالحلق أو الترفه كالطيب والدهن والحلق وهو على التخيير: شاة، أو صوم ثلاثة أيام أو التصدق بثلاثة آصُعٍ على ستة مساكين.

والثالث الدم الواجب بالإحصار، فيتحلل ويهدي شاة ويحلـق رأسـه بعـد الذبح.

والرابع الدم الواجب بقتل الصيد وهو على التخيير إن كـان الصـيد ممـا له مِثلٌ اَخَرجَ الِمثلَ مِن النّعَم، أو قوّمه واشترى بقيمته طعاماً وتصــدق به أو صام عن كل مد يوماً. وإن كان الصيد مما لا مثل له أخرج بقيمتـه طعاماً أو صام عن كل مدٍّ يوماً.

والخامس الدم الواجب بالوطء وهو على الترتيب: بَدَنَةٌ. فان لم يجــدها فبقرة، فإن لم يجد فسَبْع من الغنم، فإن لم يجدها قوّمَ البدنة واشترى بقيمتها طعاماً وتصدق به، فإن لم يجد صام عن كل مد يوماً. ولا يجزئـه الهدي ولا الإطعام إلّا بـالحرم، ويجزئـه أن يصـوم حيث شـاء، ولا يجـوز قتل صيد الحرم ولا قطع شجره، والمُحِلّ والمحِرم في ذلك سواءٌ.

اوقات الذبح:

الحنفيـة قـالوا: يتعين عنـدهم أيـام النحـر الثلاثـة الـذبح هـدي القـران والتمتع، ويكون الذبح بعد رمي جمرة العقبة، وإن ذبح قبـلَ أيـام النحـر لم يُجْزئـه، وإن ذبح بعـدها اَجْـزاه وعليـه هَـدْي لتـأخير الـذبح عن أيـام النحر.

المالكية قالوا: إبتداء نحر الهدي يـوم العيـد وينـدب أن يكـون بعـد رمي جمرة العقبة، ويدخل وقت الرمي من طلـوع فجـر يـوم النحـر، وينـدب تأخيره إلى أن تطلع الشمس. ويمتـد وقتـه إلى آخـر اليـوم الثـالث من أيام العيد، فأيام النحر ثلاثة: يوم العيد، وتاليـاه. ولـو فـاتت هـذه الأيـام الثلاثة ذبحه أيضاً.

الشـافعية قـالوا: يـدخل وقت ذبح الهـدي الـواجب بالنـذر أو الهـدي المندوب بمضي زمن يسع صلاة العيـد وخطبـتين معتـدلتين بعـد طلـوع شمس يوم العيد. ويمتد ذلك الوقت إلى غروب الشمس من آخـر أيّـام التشريق. فإن فات الوقت المذكور بأن مضت أيام التشريق لزمـه ذبح الهدي قضاء إذا كان منذوراً وإلا لزم. فإن ذبحه كان مجرد لحم لا هدياً. أما الهدي الواجب بسبب فعل محظور من أفعال الحج فإن وقته يكـون بعد وقوع سببه إلاّ دَمَ الفوات فإنه يكون في حجة القضاء، وأمـا الهـدي الواجب على المتمتع فوقته إحرامه بالحج، ويجوز تقديمه على الإحـرام بالحج إذا فرغ من عمرته ولا آخر لوقته وإلا فضل ذبحه يوم النحر.

الحنابلـة قـالوا: إبتـداء وقت ذبح الهـدي بجميـع أنواعـه يـوم العيـد بعـد الصلاة ولو قبل الخطبة، وإلا فضل أن يكون بعـدها. وآخـره آخـر اليـوم الثاني من أيـام التشـريق وإن ذبحـه قبـل وقتـه لم يجزئـه ووجب عليـه بدله، وإن فات وقته فإن كان تطوعاً سقط عنه، وإن كـان واجبـاً ذبحـه قضاء. ومكان الذبيح عند الكل هو الحرم فقط.

ثم لا خلاف في أن الحج والعمرة يؤدَّيان على ثلاثة أوجه:

الأول التمتع: وهو أن يحـرم الإنسـان بـالعمرة في أشـهر الحج، فيـدخل مكـة فيطـوف بـالبيت سـبعة أشـواط، ثم يـذهب فيسـعى بين الصـفا والمـروة سـبع مـرات، ثم يتحلـل بـالحلق أو التقصـير فيلبس ملابسـه الإعتيادية إلى أن يحرم الناس بـالحج، فيحـرم بـه ويخـرج من مكـة إلى منى ويبيت به، وفي اليوم التالي يذهب إلى عرفـة، وعنـدما وصـل إلى نمرة نزل وصلى صلاة الظهر والعصـر بهـا جمـع تقـديم، ثم يـذهب إلى عرفات ويقف بها إلى أن تغيب الشـمس، وبعـد غيابهـا يفيض منهـا إلى المزدلفة فيصلي صـلاة المغـرب والعشـاء بهـا جمـع تـأخير، ويبقى إلى وقت صلاة الصبح فيصلي في أول

الوقت وينزل إلى المشعر الحرام، ويبقى هناك ذاكراً داعياً ومكبراً ومهللاً إلى أن تطلع الشمس فيرمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم يتحول إلى منى ويذبح فدية التمتع، ثم يحلق فيحصل له التحلل الأول. ويحل له كل شيء إلا النساء. ثم يذهب إلى الكعبة الشريفة فيطوف بها سبع طوفات ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً، ويعود إلى (منى) ويبيت بها، وفي اليوم الثاني يبقى بها إلى ما بعد الزوال فيرمي الجمرات الثلاث سبعاً سبعاً، ثم يرجع إلى منى ويَبيت بها الليلةَ الثانية ويومها، ويرمي الجمرات الثلاث بعد الزوال أيضاً. فإذا أراد الخروج من منى خرج قبل الغروب إلى مكة، وإذا أراد الخروج منها طاف طواف الوداع، وإذا أراد رمي الجمرات الثلاث في اليوم الثالث بقي في منى إلى أن يرميها كما رماها سابقاً، ويعود إلى مكة فيطوف طواف الوداع ويخرج منها.

الثاني: الإفراد بأن يحرم الإنسان بالحج فيدخل مكة، ويطوف طواف القدوم، وإن شاء سعى بين الصفا والمروة كل منهما سبعاً سبعاً، ويخرج مع الحجاج إلى منى، ثم إلى عرفة. وهكذا كما ذكرنا، وبعد انتهاء آداب الحج، أي في اليوم الثاني أو الثالث من أيام التشريق يذهب إلى أدنى أرض الحل كالتنعيم، أو جعرانة، فيحرم بالعمرة ويعود الى الكعبة ويطوف بها سبعاً، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير، وإذا أراد الخروج من مكة طاف طواف الوداع وخرج منها. وهذا النوع لا يحتاج إلى الفدية.

الثالث: القِران بأن يحرم بالحج والعمرة معاً، ويأتي بآداب الإفراد إلى أن ينتهي منها، ولكن الحنفية في القران يطوفون بالبيت مرتين ويسعون بين الصفا والمروة كذلك مرتين.

واختلـف الأئمـة في الأفضـل من الأوجـه الثلاثـة، واختلافهم مبـني على الإختلاف في حج الرسول صلى الله عليه وسلم حجة الوداع. فمن قال كانت على الإفراد فضل الإفراد، أو على القران فضـل القـران، أو على التمتع فضل التمتع. وعند الشافعية أن حجه صلى الله عليه وسلم كـان أول الأمر على وجه الإفراد؛ لأنه أحرم بالحج وحده وبعـد أن وصـل إلى وادي العقيق أضاف إليه العمرة فصار قراناً، كما ذكره المحدث الشـيخ ابن حجـر العسـقلاني في شـرح البخـاري الشـريف. ومن أراد الإطلاع على تفصيل الأمر فليراجعه.

ثم إن التمتع بالعمرة إلى الحج على أربعة أوجه:

الأول منهـا: مجمـع عليـه، وهـو الـذي ذكرنـاه سـابقاً كـان يتمتـع بحـرم الآفـاقي بـالعمرة، فيطـوف ويسـعى ويتحلـل كمـا ذكرنـاه وتجب عليـه الفدية بذبحها بعد التحلل من العمرة، أو عند الإحرام بالحج، أو في ايام التشريق.

الثاني منها: التمتع الحاصل بصفة القران أي الجمـع بين الحج والعمـرة في النية كما ذكرنا. والتمتع هنا عبارة: عن حصول النسكين بنية واحـدة وعمل واحد منهما، وفيه الفدية أيضاً. وهو معلوم.

الثالث: التمتع الذي توعّد عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنـه فقـال: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا انهى عنهمـا وأعاقب عليهما: متعة النساء، ومتعة الحج. وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجه وأتي بعمل عمرة، وأقام حلالاً حـتى يهـل بالحج يوم التروية. فهذا هو الذي تواردت بـه الآثـار عن الرسـول صـلى الله عليه وسلم. فإنه أمر أصحابه في حجته من لم يكن معه هـدي ولم يَسُقْه وقد أحرم بالحج أن يجعلها عمرة. وقد أجمع العلماء على

صحة هذا الأثر، إلا أنهم اختلفوا في القول به والعمل لعلل فجمهـورهم على ترك العمل بها لأنها عنـدهم خصـوص خصّ بهـا الرسـول أصـحابه الذين لم يسوقوا الهدي. قال أبو ذر: كانت المتعة لنـا في الحج خاصـة. أخرجه. مسلم. والسر في تجويزه صلى الله عليه وسلم ذلـك لأصـحابه المذكورين ما قاله ابن عبـاس رضـي اللـه عنهمـا أنهم كـانوا يَـرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض. فقدم النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم صـبيحة اليـوم الرابـع من ذي الحجـة، وكـان أصـحابه مُهلّين بالحج فَأمرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عنـدهم! فقـالوا: يا رسول الله أي الحِلّ هذا؟ أي هل يحـل كـل مـا حـرم بـالإحرام بهـذه العمرة والتحلل منها؟ فقال: الحِلّ كلُّه أخرجـه مسـلم. وقـد كـان ذلـك الإنتقال من خصائص الأصحاب الذين كانوا معـه خاصـة لا لغـيرهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ولا يمكن الإنتقال من حكم كتاب الله إلا لسنّة مبيّنة كما هنا. ويحتج على ذلـك بمـا روى من حـدث أبي ذر وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال: قلنا: يا رسول الله فُسخ الحج لنا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل لنا خاصـة. وعلى هـذا جماعـة فقهاء الحجاز والعراق والشام.

الرابع: مُتْعَة المحصر ومن صدّ عن البيت. وذكر يعقوب بن شـيبة قـال: حدثنا أبو سلمة النبوذكي، حـدثنا وهيب، حـدثنا إسـحق بن سـويد قـال: سمعت عبدالله ابن الزبـير وهـو يخطب، يقـول: أيها النـاس إنـه واللـه ليس التمتـع بـالعمرة إلى الحج كمـا تصـنعون، ولكن التمتـع أن يخـرج الرجل حاجّاً فيحبسه عدوٌّ أو اَمرٌ يعذر به حتى تـذهب أيـام الحج فيـأتي البيت فيطوف ويسـعى بين الصـفا والمـروة ثم يتمتـع بحلّـه إلى العـام المستقبل ثم يحج وَيُهدي.

وهذه نبذة من آداب الحج والعمرة ذكرتها في تفسير آياتهما الكريمة الاستبصار، ومن أراد الإطلاع الكامل فليراجع كتب الفقه في الموضوع. والله ولي التوفيق.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)﴾

عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي صلى عليه وسلم بالمدينة وأظهر له الإسلام وقال: الله يَعلم إني لصادق! فأُعجب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج مِن عنده فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وبحُمْر لهم فأحرق الزرع، وعقر الحمر! فأنزل الله فيه هذه الآيات. أخرجه ابن المنذر وابن جرير. وكان شريق هذا حسن المنظر، حلو المنطق، يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدّعي الإسلامَ وهو منافق.

يعني: ومن الناس من يعجبك قوله بياناً واداءً لحلاوة لفظه، وفصاحته في أمور الحياة الدنيا؛ لأن الكلام فيها مبذول لكل أحد دون حياة الآخرة وأحوالها؛ لأنه لا يؤمن بها ولا يحبها أو لا يؤذن له فيها. ويشهد الله على ما في قلبه من المودة والإخلاص للإسلام والرسول المبعوث به، وهو ألّدَّ الخصام وأشد الأعداء عداوة. فالخصام جمع خصم بمعنى العدو، والجملة حالية. وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ الآية يعني وإذا أدبر وغاب عنك

يسعى في الأرض بأنواع الحيل الفاسدة. ليفسد فيها بإفساد قلوب الناس وبث روح العداء للدين، ويهلك الحرث أي المزارع بالإحراق والإتلاف، والنسلَ بالقتل والهتك والإعتساف، والله لا يحب الفساد فلا يحب أهله من العباد.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ يعني وإذا قيل لهذا الشخص نصيحة ونهياً عن المنكر: إتق الله واحذر عن هذه الأعمال الفاسدة السافلة.

وقوله: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ قال البيضاوي: حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه لجاجاً، من قوله أخذته بكذا أي حملته وألزمته إياه.

وقال الشهاب: أراد أنه إستعارة تبعية أستعير الأخذ للحمل بَعْدَ أن شَبّه حالة إغراء الحمية الجاهلية وحملها إياه على الإثم بحالة شخص له على غريمه حق فيأخذه به ويلزمه إياه، والمراد بالإثم حقيقته.

وقال الشهاب أبو الثناء: أخذته العزة أي إحتوت عليه وأحاطت به وصار كالمأخوذ بها وبالإثم، أي مصحوباً أو مصحوبة به. إنتهى. يعني أن بالإثم حال من الهاء أو من العزة.

ثم قال: ويجوز أن يكون أخذ من الأخذ بمعنى الأسر، ومنه الأخيذ للأسير. أي جعلته العزة وحمية الجاهلية أسيراً بقيد الإثم.

وقال أبو البقاء: بالإثم في موضع نصب على الحال من العزة والتقدير: أخذته العزة متلبسة بالإثم. ويجوز أن يكون حالاً من الهاء أي اَخَذَتْه العزةُ آثِماً. ويجوز أن يكون الباء للسّببية فيكون مفعولاً به. أي اَخَذَته العزة بسبب الإثم. قلت: وقال بعض: إن بالإثم متعلق بالعزة أي إذا قيل له: إِتق الله فالعزة المقرونة بإثم الإفساد وقتل الأنفس

البريئة أخَذته وسَلَبَت عنه الطاقةَ الإختيارية. وإنما كلف حينئذ مع أن المأخوذ قهراً لا تكليف عليه لأن أساسه كان على الإفساد والأعمال السيئة، والخبل المبنيّ على عَمَلٍ تعدي به لا يُسقِطُ التكليفَ.

وقوله: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ كلمة حسب إما اسم بمعني كافي، أو اسم فعل ماض بمعني كفى. وجهنم علم لدار العقاب ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ جواب القسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف. أي والله لبئس الفراش الممهد جهنم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)﴾

نزلت في صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد، فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم وجودي معكم، ولا يضركم خلافي لكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي، فقبلوه منه وأتى المدينة. فيقول: ومن الناس من يبيع نفسه ويبذلها في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقتل وذلك طلباً لرضاء ربه تعالى. والله رؤوف بالعباد فيجزي أولئك واحداً بعشرة إلى سبعمائة ضعف، ويزيد لمن يشاء. وصهيب بالتصغير صحابي معروف، ولم يكن رومياً، وإنما أسره الروم صغيراً فقيل له: الرومي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)﴾

قال البغوي: نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه. وذلك أنهم لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى عليه السلام، فعظموا السبت، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها، وقالوا إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة. وقالوا أيضاً: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقرأ به في صلاة الليل. فأنزل الله هذه الآية، وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في جميع شرائع الإسلام وأحكامه ولا يتمسكوا بالتوراة لأنها نسخت. وعلى نزولها في شأنهم فمعنى الآية الشريفة: يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب بدين الإسلام ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم أدخلوا في السّلم والإنقياد لدين محمد كافة عامةً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بخلط أحكام التوراة بأحكام القرآن حتى لا يتميز أهل الإسلام من غيرهم، إنه لكم عدو مبين، أي عدو ظاهر العداوة. فإن زللتم وانحرفتم عن الدخول في الإطاعة هكذا من بعد ما جاءتكم البينات أي الأدلة الواضحة الشاهدة على أنه حق واجب الإتباع فاعلموا أن الله عزيز أي غالب على أمره فينتقم منكم، حكيم في إنتقامه لا ينتقم إلا بحق.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ إستفهام إنكاري وهو نفي في المعنى. وقوله ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أمره أو عذابه. وقوله: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ أي في قطعات من الغمام الأبيض تظلّلهم وتقف فوق رؤوسهم كأنها ظُلّة. وإنما خص إتيان العذاب في ذلك الوضع؛ لأن الغمام الأبيض ينتظر منه الأمطار والبركات، وإذا كان إظلالها عليهم النزول العذاب كان أشدّ وأوقع

على نفوسهم فإنّ مجيء الزحمة من مُنتَظر الرّحمة أشَدّ عذاباً على الأمة.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عطفٌ على الله. وقوله ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي نفذ أمر إهلاكهم. وإلى الله ترجع الامور.

وخلاصة التفسير: إن بقاء الأمة على العناد وإنكار رسالة سيّد العباد يقرب إلى أذهان المؤمنين العارفين بالأمور أنهم إستعدوا لقضاء الأمر فيهم وحلول العذاب عليهم بأقصى أصنافه وأقسى أوضاعه بأن يفاجئهم العذاب بغتة ومجيء ملائكة العذاب في مظهر غمام أبيض ينتظر منه الرحمة فإذا هو يصب عليهم أنواع البلايا والرزايا ويقضي فيهم ما شاء الله. وهذا الوضع ليس من شأن العقلاء فالأولى بل الموافق لهم أن يتوبوا عن هذا العناد والإستكبار، ويتعرضوا لعفوا الباري تعالى حتى يتوب عليهم ويعفو عنهم. ولا ينتظروا مفاجأة ذلك العذاب بالإستمرار على الكفر والأعمال السيئة وإلا فلا ملجأ من الله إلا إليه وإلى الله تُرجَعُ الأمور.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آَتَيْنَاهُمْ مِنْ آَيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)﴾

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أمر منه تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم أن يسأل بني إسرائيل المصرين على الكفر والإستنكار والإستكبار كم آتيناهم أنفسهم في عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وآباءهم وأجدادهم في العهود السابقة من المعجزات الواضحة الدالة على أن رسالة الله وبعث الرسل إلى البشر حق. وتلك الإرشادات بالآيات البينات والمعجزات القاهرات كلها نعمة من الله أنعمها عليهم حتى ينتبهوا

وينتهوا عما هم عليه من الضلال، فوجب قبولها والعمل بها، وأن لا يقابلوا تلك النعم الجسام بالعناد كما هو عادة اللئام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ معناه أن أولئك الناس الذين جاءتهم تلك الآيات حقهم أن يقرروا تلك الآيات ويقروا بها ولا ينكروا إفاضتها عليهم، بأن يقولوا ما أتانا من الآيات وما رأينا شيئاً من المعجزات، أو حقهم أن يعملوا بها ويمشوا على مناهجها، ويؤمنوا برسالة محمد الموعود ببعثه سابقا ولا يمدوا إليها يسد النسخ والتأويل والتحريف. ومن يبدلها بأحد الوجهين فإن الله شديد العقاب يعاقبهم عليه كما يستحقون.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)﴾

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. قال بعض: إن فاعل الصيغة المجهولة هو الشيطان؛ لأن الشيطان هو المحسّن للقبائح والمقبح للحسنات. وقال بعض: إن الفاعل هو الله تعالى، وهو الحق؛ لأنه قد ثبت بالبراهين القاطعة أن الخالق والموجد لكل ما يحدث هو الله تعالى.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وإذا خص الإيجاد يبعض ما يمكن التأثير فيه بدليل العقل أو النقل فيبقى العام في ما عداه نافذَ الدلالة والإرادة.

والتحقيق الحقيق بالقبول: أنه إن أريد تزيين صوري أو عمل ظاهري ناتج عن القوى النفسانية المقتضية للسوء فإسناده إليها بعلاقة السببية مجازاً واردٌ. وإن أريد التزيين الواقعي بالإبداع والإيجاد فالفاعل هو

الله تعـالى لا غـيره. ولا عتب فيـه لأن اللـه سـبحانه وتعـالى بين الخـير والشـــر وأســـبابهما كمـــا أودع في المكلفين العلم والإرادة والقـــوى الشـهوية والغضـبية، وخـول الإنسـان في الكسـب وأسـنده إليهم. فمن صرف إرادته وقدرته نحو الخير خلقه له، ومن صرفهما نحو الشر خلقه لهم، ولا لـوم إلا على أنفسـهم، ومَـا كـانَ اللـهُ ليظلمهُم وَلكنْ كـانوا أنْفُسهمُ يَظلِمُون.

فيقول الباري سبحانه وتعالى: زين للذين كفروا الحياة الدنيا أي حسّنت في عقولهم ومشاعرهم الحياة الدنيا وملاذها ومغرياتها، وحصـلت فيهم داعيـــة الكـــبر بحيث يســـخرون من الـــذين آمنـــوا لاســـيما فقـــرائهم ويسترذلونهم، والحال أن الذين اتقوا أي المؤمنين المتقين فوقهم يـــوم القيامـة، عكس مـا في الـدنيا فهم في علـيين والكـافرون في أسـفل السافلين. وهم يستهزؤن بالـذين اسـتهزؤا بهم في الـدنيا جـزاء وفاقـا. والله يرزق من يشاء من المقام العالي والكرامة بغير تقدير وحساب.

﴿كَـانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـاتُ بَغْيًـا بَيْنَهُمْ فَهَـدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَـاءُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213)﴾

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية معناه: إنه كـان النـاس بعـد بعث سيدنا آدم عليه السلام وفترة زمنية في عهـد أولاده وأحفـاده أمـة واحدة متفقة على التوحيد وعبادة الله تعالى، إلى أن بعث اللـه إدريس فتكاثر الناس وتشاجروا وأثّرت فيهم المطامعُ والمطامح، فاختلفوا في

الأصول والأحكام، واختار كـل فئـة طريقـاً وسـبيلاً، وعبـدوا غـيرَ البـاري سبحانه وتعالى تبعاً للأهواء، فبعث اللـه النبـيين مبشـرين بـالثواب لمن آمن بالله وحده واهتدى إلى الصراط المستقيم، ومنذرين بالعقاب لمن كفر وأشرك، وانزل معهم الكتاب بالحق أي جنس الكتاب واحداً متوارثاً بينهم، أو متعدّداً لكل أجل كتاب ليحكم ذلك الكتاب أو النبي الذي أنـزل معـه بين النـاس فيمـا اختلفـوا فيـه سـابقاً، ووقـع فيـه الجـدال، وبقى الخلاف إرثاً للأجيال، أو فيما يختلفون فيـه بعـد ذلـك الإنـزال؛ كـاختلاف أهـل الكتـاب في الإنجيـل بعـد نزولـه على سـيدنا المسـيح، أو القـرآن الكريم بعد نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ومـا اختلـف فيه أي في الكتاب المنزل الجديد إلّا الذين اُوتُوهُ أي أوتوا الكتاب[5] في العهد السابق قبـل نـزول هـذا الكتـاب من بعـد مـا جـاءتهم البينـات أي الآيات الشاهدة على أن هذا الكتاب الجديد حـق حيث ذكـر في الكتـاب السابق بعث النبي اللاحق ونعوته وإنزال الكتاب عليـه. وذلـك الإختلاف في الكتاب المنزل الجديد كان بغياً وعدواناً دائـراً متوارثـاً بينهم وحقـداً على هذا النبي الجديد وكتابـه، وتلـك سـنّة سـيئة متبعـة من أهـل العلم بالكتاب السابق يغارون حقداً على العهد الجديد والنـبي والمرسـل فيـه والكتاب المنزل إليه، فهدى الله الذين آمنـوا من أهـل الكتـاب السـابق وغيرهم لما اختلفوا فيه من الحق أي الإيمان بالحق الذي اختلفـوا فيـه، فـآمنوا بـه إيمانـاً خاليـاً عن الشـكوك والأوهـام، واهتـدوا إلى سـلوك الصـراط المسـتقيم، وذلـك الإيمـان منهم بـه كـان بـإذن اللـه وتوفيقـه ولطفه. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، لا ترى فيه عوجاً ولا اَمْتاً. وفي هذه الآية الجليلة بيان شافه للصدور بنورها الموفور.

[5] يعني أن في الضمير استخداما، اذ أريد بالضمير السابق الكتاب الجديد، وبالضمير اللاحق الكتاب السابق.

تنبيه: إن التفسير الذي قررته هنا كان موافقاً لعقيدتي في الموضوع، ثم وجدت بعض الناس مقرراً له على حسب تقريري وحمدت الله تعالى على ذلك، والذي قرره البيضاوي والآلوسي هو أن الناس كان أمة واحدة لفترة من الزمن متفقة على الحق، ثم وقع الإختلاف بينهم في الأصول والفروع، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه، ويرفع الخلاف مع أن الذين أنزل عليهم الكتاب لرفع الإختلاف هم أنفسهم إختلفوا في هذا الكتاب بغياً بينهم وعدواناً من بعضهم لبعض. وهذا التفسير أيضا واردٌ. ويظهر صحته لأن كل أمة سابقة أو لاحقة عندما كانوا في حاجة إلى رفع الخلاف والإختلاف، وأنزل الله إليهم كتاباً مع النبي مرسل لدفع الإختلاف هم فسروا ذلك الكتاب وأوّلوا على مبتغى آرائهم وأفكارهم، واختلفوا أيضاً، فترى الإسرائيليين اختلفوا في التوراة مع وجود الأنبياء بين أظهرهم، وبعد بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إختلف كثيرون من أهل الأهواء مع أهل الدين والإعتصام بالكتاب والسنة السنية. فنسبوا خلق الأعمال إلى العباد، واوجبوا الأصلح على الله تعالى، ونسبوا خلق الشرور والمفاسد إلى النفوس الشريرة والشياطين الملبّسين بشبه واهية. لكن الله سبحانه وتعالى لم يترك كتابه ورسوله وسنته السليمة بدون معين ومساعد ومطبق، بل أعد للدفاع عن الحق أمّةً مؤمنة مطمئنة آمنوا بالحق الواضح في شقي الخلاف والإختلاف، وذلك بإذنه وعنايته وتوفيقه. وهذه سنة الله في خليقته وشريعته فكلما إشتد الإختلاف هيأ الله أناساً لإدراك الحق والإيمان به والعمل به، وتطبيقه، ورد المعاندين وتأييد الحق ونشره بين المؤمنين.

﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَـأْتِكُمْ مَثَـلُ الَّذِينَ خَلَـوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)﴾

روي عن قتـادة: أن هـذه الآيـة نـزلت في غـزوة الأحـزاب، وهي غـزوة الخندق وفي ما أصاب النبي صلى اللـه عليـه وسـلم والمسـلمين فيهـا من: جهد ومشقة، ونصب وشدّة، وحَرّ وبَردٍ، وخوف وسوء عيش وأَذىً. كما قال تعالى في هذه الغـزوة ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَـاجِرَ﴾ الأحـزاب / 10.

قوله تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبْتُمْ﴾ صـيغة الخطـاب إلتفـات، وأم إمـا منقطعـة بمعنى بل للإضراب بدون تقدير إستفهام، أو بتقديره على وجه الإنكـار، أي لِمَ حسبتم؟ وإما متصلة بتقدير جملة معادلة لها تقـديره: أعلمتم أن المؤمن يجب عليه الجهـاد إلى لقـاء رب العبـاد؟ أم حسـبتم أن تـدخلوا الجنـة الآيـة وإلى الآن لم يـأتكم مثـل حـال المؤمـنين الـذين خلـوا من قبلكم الـتي وَصَـلَتِ الـذروةَ في الشـدة: مَسّـتْهُم البأسـاءُ مِن الفقـر والحاجة والضرّاء من الأمراض الفتاكة ذات اللجاجة، وزُلزلوا، وأزعجـوا إزعاجاً بلغ منتهاه، حتى يقول الرسـول والـذين معـه: مـتى نصـر اللـه؟ وذلك لتأخره وكثرة العدو وتفاقم أذاه. فأوحى الله إليـه ليبلـغ إليهم: ألا إن نصر الله قريب. يعني أنه تقررت سنة الله في العباد أن اليسر بعـد تعب العسـر، وأن الظفـر بعـد الصـبر. وقـال صـلى اللـه عليـه وسـلم: ((حُفت الجنةُ بالمكارِهِ، وحُفّتِ النارُ بالشهوات)).

﴿يَسْأَلُونَكَ مَـاذَا يُنْفِقُـونَ قُـلْ مَـا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْـرٍ فَلِلْوَالِـدَيْنِ وَالْأَقْـرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِـهِ عَلِيمٌ (215)﴾

عن ابن جريج: قال: سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسـلم: ماذا ننفق من أموالنا وأين نضَعُها؟ فنزلت الآية. وقيل نـزلت في عمـرو بن الجموح الأنصاري، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثـير، فقـال: يـا رسـول الله بماذا نتصدّق وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ الآيـة هـذه الآيـة الشـريفة من البلاغـة بمكـان عال، ومن تلقي السائل بجواب غير ما يريده وينتظـره. يسـألونه صـلى الله عليه وسلم عن المال الذي ينفقونه في سـبيل اللـه ويتصـدقون أو يوصون به نوعاً وكمّاً، فيجيبهم بغير ما ينتظرونه حيث يبين لهم المنفـق عليهم. ومعناه أن المال الذي تصرفونه في سبيل الله من أي نوع كـان وعلى أيّ مقـدار فـالمهم صـرفه في المحـل المناسـب للانفـاق الأهم فـالأهم من الوالـدين المحتـاجين، والأقـربين أولي الحاجـة، واليتـامى بتسليمه إلى القائم بأمورهم، والمساكين الناقضين مالاً ومصـرفاً، وابن السبيل المعوزين إعوازاً حسيّاً أو شرعياً. وما تفعلوا من خير، أيّـا كـان، فإن خير فإن الله بـه عليم فيجـازيكم بـالثواب، والرّضـا في دار النعيم. وهـذا الإنفـاق من بـاب الصـدقات العامـة والزكـاة من صـرف الأمـوال الـواجب صـرفها. فهـذا بـاب، وتلـك بـاب، واللـه يهـدي من يشـاء إلى الصواب.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُـرْهٌ لَكُمْ وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُـوا شَـيْئًا وَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُـوَ شَـرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُـونَ (216)﴾

قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي فرض وهذا هو فرض الجهاد.

والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار، ولم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أُذِن له في قتال من يقاتله من المشركين. وهو فرض عين إن دخلوا بلادنا، وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ بضم الكاف أي شاق عليكم مكروه طبعاً، وهو مصدر نعت به للمبالغة، أو فُعُل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز.

وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ الآية وكلمة عسى للرجاء وانتظار غير الواقع. والكره وإن كان محققاً لكنه نزل منزلة غير الواقع لأن حق المؤمن الكامل أن لا يكره القتال في سبيل إعلاء كلمة الحق. وقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي والحال إن ذلك المكروه خير لكم لكسب الشرف والسّيادة في الدنيا علاوة على الغنائم والمنافع التي تستفيدونها بالقتال، ولكسب السعادة في الآخرة حيث إن العمل الذي قام أو يقوم به المُقاتِلُ جزءٌ من بناء صرح الإسلام الذي يفيد رضاء الباري تعالى بإعلاء كلمته ونشر دينه وشريعته وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ أي وعسى أن تحبوا شيئاً وهو الكسل والتباطؤ عن القتال، والإبتعاد عن المناهي. وهو شرّ لكم لأن في ذلك إرضاء النفس والشيطان، وهو شر للانسان لأنّ مآله الخسران، والله يعلم الخير والشر في الواقع، وأنتم لا تعلمون إلا بعضاً منه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)﴾

قال الشهاب: والذي في سيرة ابن سـيد النـاس أنـه في رجب وأنـه لم يرسـلهم لقتـال، وإنمـا بعثهم ليعلم أمـر قـريش وأنهم لقـوا هـؤلاء (أي عمـرو بن عبداللـه الحضـرمي وثلاثـة معـه وعـيراً لقـريش فيهـا تجـارة الطائف) في آخر يوم من رجب، وقالوا: لئن تركناهم لقد دخلوا الحرم، وإن قاتلنا حينئذ قاتلنـا في الأشـهر الحـرم، ثم عزمـوا على الفتـك بهم، ففعلوا مافعلوا (أي قتلـوا عمـرو ابن عبداللـه وأسـروا إثـنين واسـتاقوا العير) قال ابن إسحق: فلما قـدموا على رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم قـال لهم: مـا أمـرتكم بقتـال في الشـهر الحـرام! فَوَقّـفَ العـير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلـك شـيئاً. فلمـا نـزلت الآيـة قبض ذلـك. ويقال: وقّفه حتى رجـع من بـدر فقسـمه مـع غنائمهـا انتهى. وهي أول غنيمة في الإسلام.

والسائلون هم المشـركون، كتبـوا إليـه في الموضـوع. وقيـل: أصـحاب السرية. وقال الشهاب: السائلون أصحاب السـرية. وكـونهم المشركين ضعيف لا يناسب الرواية ولا الدراية. فمورد نزول آية: يسألونك هو هذه الواقعة. أما مورد نزول الآية الثانية فهو أنه لما كـثر القيـل والقـال في الموضوع قال بعض الصحابة: إن لم يكن أصحاب السرية أصابوا وزرا

فليس لهم أجر. فنزلت: إن الذين آمنوا، والذين هاجروا الآية. أخرجه البيهقي، وهذه الحادثة كانت قبل واقعة بدر بشهرين.

قوله: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ بدل من الشهر الحرام. وقوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ جواب للسؤال. يعني أن القتال في الشهر الحرام للمقاتل الغير المضطر له ذنب كبير، ولكن صد الناس عن سبيل الله، وعن الوصول إلى المسجد الحرام، والإشراك به تعالى، وبث فتنة الإشراك اكبرُ من القتال بدرجات.

وقوله: ﴿وَصَدٌّ﴾ مبتدأ عطف عليه ما بعده. وقوله ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ﴾ خبرهما. ومعنى الصد عن سبيل الله منع النّاسِ عنِ الإيمان بالله. ومنع المؤمنين عن طاعة الله والتعبد له. وقوله: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي بالله معطوف عليه. وقوله: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بالجر معطوف على الضمير المجرور في ﴿بِهِ﴾ والعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ وإن كان ممنوعاً عند البصريين لكنه جائز عند الكوفيّين ويونس والأخفش وأبي علي واختاره ابن مالك حيث قال في ألفيته:

وعود خافض لدى عطف على

ضمير خفض لازماً قد جعلا

وليس عندي لازماً إذ قد أتى

في النظم والنشر الصحيح مثبتا

والتقدير: وكفر بالمسجد الحرام وبرعاية حقوقه ومساواة العاكف والبادي فيه.

وقوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني أن القتال في الشهر الحرام وإن كان فيه إثم كبير، لكن صد

الناس عن سبيل الله، والكفر بـه، والكفـر بالمسـجد الحـرام، والتعـدي على حرماته، وإخراجٍ اهله منه، وهم المستحقون للبقاء فيـه كالرسـول وأصحابه... أكبر إثماً عند الله من القتال الحادث فيه؛ لأن القتـال عمـل فاسد، والكفر بالله عقيدة فاسدة. وصدّ الناس عنه تعدٍّ عام على الدين وعلى الكعبة وعلى المسلمين، وإخراج أهله منه وإبقاء غير المستحقين فيـه، وهم المشـركون، ظلم وبغيٌ وعـدوان على الحقـوق المشـروعة، فلم ترتكبون هذه الجرائم الإعتقادية والعمليـة والإجتماعيـة ولا تهتمـون بها؟ وكأنّها ليست شيئا قابلاً للـذكر! لكن قتـال سـرية من سـرايانا في يوم من أيام الأشهر الحرام صار عندكم أكبر الآثام.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ تذييل لما تقدم للتأكيد، وعطـف عليه عطفَ الحكم الكلي على الجزئي، والفتنة: ما يفتتن به المسلمون من كافة الوجوه من التعذيب، والتنكيل، والتهجير، والترحيل.

فشمل الوجوه المذكورة السابقة، أي تلك الجرائم الإعتقاديـة والعمليـة التي ترتكبونها أكبر من قتل شخص واحد أو أشخاص كثيرين لاسيما إذا كان القتيل فاسد العقيدة كاسد العمل.

وقولـه تعـالى: ﴿وَلَا يَزَالُـونَ يُقَـاتِلُونَكُمْ﴾ قطـع الكلام مـع المشركين السائلين إلى خطـاب المؤمـنين إذا كـان السـائلون من المشـركين وإلا فاستمرار للكلام بمناسـب المقـام مـع المؤمـنين من أصـحاب السـرية وغـيرهم. فيقـول: إن أولئـك المشـركين أشـد أعـدائكم، ولا يزالـون يقـاتلونكم حـتى يـردوكم عن دينكم الأصـيل إلى إشـراكهم العليـل ﴿إِنِ اسْـتَطَاعُوا﴾ واقتـدروا على ذلـك، ولكن لا يسـتطيعون على المؤمـنين المخلصين.

وقولـه: ﴿وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ﴾ الآيـة تهديـد لمن إختلج في قلبـه الأوهـام وتصور الإرتداد عن الإسلام. فيقول:

﴿وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا﴾ بالحرمـان عن المنـافع الدنيويـة الإسـلامية، ﴿وَالْآَخِـرَةِ﴾ بسقوط الثواب، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُـونَ رَحْمَـةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هذه الآية كما ذكرنا نزلت في شأن أصحاب السـرية، حيث ظن النـاس أنهم وإن سلموا من العقـاب لكن ليس لهم أجـر عنـد اللـه، فـبين اللـه جزاء أعمالهم الجليلة الناشئة عن الإخلاص لله ولرسوله، ورد الله على المتوهمين ظنونهم الغير المفيدة للحق. وقال: إنهم بإيمانهم وهجـرتهم من أوطانهم وجهادهم في سبيل اللـه يرجـون رحمـة اللـه لهم بايتـائِهِم حَسَنَةً في الدنيا وحسـنة في الآخـرة، واللـه غفـور لمـا فَـرط منهم من الذنوب، ورحيم بهم وبغيرهم فيجزيهم بفضله أكثر مما يستحقون.

﴿يَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ قُـلْ فِيهِمَـا إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُـونَ قُـلِ الْعَفْـوَ كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الـدُّنْيَا وَالْآَخِـرَةِ وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُـلْ إِصْـلَاحٌ لَهُمْ خَيْـرٌ وَإِنْ تُخَـالِطُوهُمْ فَـإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قال الواحـدي: نـزلت في عمر بن الخطاب ومعـاذ بن جبـل وتفـر من الأنصـار، أتـوا رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم

فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر؛ فإنهما مَذْهَبَة للعقـل وَمَسْلَبَة لِلمـال. فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي بعض الروايات: أن رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم قدم المدينة والناس يشربون الخمر، ويأكلون الميسـر، فسألوه عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فقـال قـوم: مـا حرمتـا علينـا، فكـانوا يشـربون الخمـر إلى أن صـنع عبدالرحمن بن عـوف طعامـاً فـدعا أناسـاً من الصـحابة، وأتـاهم بخمـر وشَربوا وَسَكروا، وحضرت صلاة المغرب، فقدّموا علياً كرم اللـه وجهـه فقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُـدُ﴾ بحـذف ﴿لَا﴾ فـأنزل اللـه تعـالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فقـلّ من يشـربها، ثم إتخذ عتبان بن مالك طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص. وكان قد شوى لهم رأسَ بعير، فأكلوا وشربوا الخمـر حـتى اَخَذَت منهم. ثم إنهم إفتخروا عند ذلك، وتناشدوا الأشعار، فأنشد سـعد ما فيه هجاء الأنصار وفخر لقومه. فأخذ رجـل من الأنصـار لحى البعـير، فضرب به رأس سعد فشجه موضحة. فـانطلق سـعد إلى رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الأنصار فقال: أللهم بيّن لنـا رأيـك في الخمر بياناً شافياً! فأنزل الله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصَـابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ (90) إِنَّمَـا يُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91)﴾ وذلك بَعْدَ غـزوةِ الأحـزاب بأيـام. فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب.

والخمر عند الإمام أبي حنيفة رضـي اللـه عنـه الـتي من مـاء العنب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد. وسميت بذلك لأنها تخمر العقل

أي تستره. وذهب الإمامان إلى عدم اشتراط القذف، ويكفي الإشـتداد، لأنّ المعنى المحرم يحصل به. ومن الناس من قال: هو حقيقة في كـل مسكر، لما أخرج الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي ((كـل مسـكر خمر)). وأخراج أبو داود نزل تحريم الخمر يـوم نـزل وهـو من خمسـة: من العنب، والتمر، والحنطة، والشعير، والذرّة. وأخـرج مسـلم عن أبي هريرة: الخمر من هاتين الشجرتين، وأشار إلى الكرم والنخلـة. وأخـرج البخـاري عن أنس: حـرمت الخمـر حين حـرمت. ومـا يتخـذ من خمـر الأعناب إلا قليل، وعامـة خمرنـا: البسـرُ والتمـرُ. ويمكن أن يجـاب: إن المقصود من ذلك كله بيان الحكم، وتعليم أن ما أسـكر حـرام كـالخمر، وهـو الـذي يقتضـيه منصـب الإرشـاد لا تعليم اللغـات العربيـة، سـيما والمخاطبون في الغاية القصوى من معرفتها.

وفي الصحيحين: أنه صلى الله عليه وسلم سـئل عن النقيـع، وهـو نبيـذ العسل، فقال: كل شراب أسكر فهو حرام. وروى أبو داود نهي رسـول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر. وصح ما أسكر كثـيره فقليله حرام. وفي حديث آخر ((ما أسكر الفرق منـه فملء الكـف منـه حرام))، والأحاديث متظافرة على ذلك.

وقوله: ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ مصدر ميمي من يَسَرَ كالموعِدِ والمرجع.

يقال يسرته إذا قمرته. وإشتقاقه من اليسر لأنه أخذ المال بيُسر.

وصفته: أنه كانت لهم عشرة أقداح، هي: الأَزلام، والأقلام الفذ والتّوأم، والرقيب، والحلس، والنـافس، والمسـبل، والمعلّى، والمَـنيحُ والسـفيح، والوغد. لكل واحـد منهـا نصـيب معلـوم من جـزور ينحرونهـا ويجزؤنهـا ثمانية وعشرين جزءً، إلا الثلاثة وهي: المـنيح، والسـفيح، والوغـد، للفـذ سهم، وللتوأم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة،

وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة، يجعلونها في الربابـة، وهي خريطة، ويضعونها على يـدي عـدل يُجَلجِلُهـا ويـدخل يـده، فيخـرج باسـم رجـل قـدحاً منهـا، فمن خـرج لـه قـدح من ذوات الأنصـباء أخـذ النصيب الموسوم به ذلك القدح. ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً، وغـرم ثمن الجـزور كلـه مـع حرمانـه. وكـانوا يـدفعون تلـك الأنصباء إلى الفقراء، ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك، ويذمون من لم يدخل فيه. ويسمونه البَـرْم. وفي حكم ذلـك عنـد الحنفيـة جميـع أنـواع القمار من: النرد، والشطرنج، وغيرهما. حتى أدخلوا فيـه لعب الصـبيان بالجوز والكعاب، والقرعـة في غـير القسـمة، وجميـع أنـواع المخـاطرة والرهـان. وعن ابن سـيرين كـل شـيء فيـه خطـر فهـو من الميسـر. والشافعي لم يحرم إلا بمقابلة المال.

قولـه تعـالى: ﴿قُـلْ فِيهِمَـا إِثْمٌ كَبِـيرٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ﴾ معـنى فيهمـا في تعاطيهمـا والتلبس بهمـا. وفي معـنى التعـاطي للخمـر: بيـع العنب المشهور بعصره للتخمير، والسعي في عمليـة عصـره ومـا بعـده حـتى يتخمّر كما يدخل الياسرين والعاملين بـه. وأمـا الإثم: فهـو بالنسـبة إلى شرب الخمر مخالفة النهي الوارد من صـاحب الشـريعة، ومباشـرة مـا يسلب العقل. ويهـيئ الشـارب للتعـرض والوقـوع فيمـا يخـالف أحكـام الإسلام قولاً وفعلاً كالشتام والسباب، وهتك الأعـراض، ونهـك الحقـوق. وبالنسبة للميسر: فهو إيذاء الناسب باخذ أموالهم بالباطـل بـدون بـدل وإيذاء أنفسهم بالتغريم، وما يترتب عليه من المعاتب والجرائم.

وأما المنفعة: فهو التجـارة بأسـبابهما، وأخـذ أمـوال النـاس بـدون تعب وأذى، وصرف بدل مشروع، والتلـذذ النفسـي، والغفلـة عن الواجبـات، وإن كان مآل الكل الخسارة في الدنيا والدين.

وقوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة فيهما. فمن المفاسد التي تنشأ منهما ما ذكرناه آنفاً. وعلاوة على ذلك فإنه قد تنشأ من شرب الخمور وتعاطي الميسر إيقاع العداوة والكراهية والبغضاء في العوائل والمجتمعات، والإبتلاء بتقيّد نفسي إلى أن يموت بحيث لا تمكنه مفارقته لهما ما أمكن بأيّ حال من الأحوال وفي أي زمان ومكان. وابتلاء شربة الخمور بأمراض فتاكة لا تفارقهم كما لا يخفى على من طالع كتب الطب والرسائل المؤلفة في ذلك الباب. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((إجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث)). عصمنا الله تعالى منها ومن كل عمل مكروه، وهدانا إلى كل عمل محبوب نافع للدنيا والدين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفراً من الصحابة أمروا بالنفقة في سبيل الله تعالى أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فنزلت.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ أي صفته أن يكون عفواً. والمراد به: مالا يتبين في الأموال. وفي رواية ما فضل عن العيال. وعن الحسن: مالا يجهد. أي مالا يشق إنفاقه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول)) أي من عليك نفقته.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ﴾ أي مثل ما بين أن العفو والسهل أصلح من الجهد والصعب؛ لأنه أبقى للمال وأنفع للآخرة. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تتفكرون في الآيات لفهم المصالح في الدنيا والآخرة فَتَسعدون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ إنطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه فوقع اليتامى في عسر وضيق وكذلك أقاربهم. فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت، وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي رعاية أموالهم بطريقة مشروعة وإصلاح أموالهم بالحفظ والتنمية خير لهم ولكم في الدارين من هذه المجانية والمتاركة. ولما كان الإصلاح خيراً فلا مانع من مخالطتهم. وقوله: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ معناه: إن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والمصاهرة تؤدّوا اللائق بكم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، وبذلك قرأ ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج عبد بن حميد عنه: المخالطة أَن يشرب من لبنك وتشرب من لبنه، ويأكل في قصعتك وتأكل في قصعته، وتأكل من ثمرته ويأكل من ثمرتك.

وقال أبو عبيد: مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه، ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحرّي فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه.

ومما علم من الدين أن ولي اليتيم أبوه، فجده، فوصي الأب إن لم يكن جد أو لم يكن بصفة الولاية، فوصي الجد، فالقاضي الأمل، فالقيم المعيّن من طرفه بشرطه. وأما الأم فلا ولاية لها على الأصح، ومقابله

أنها تلي لاسيما إذا كانت عاقلة فاهمة للأمور بشـرط أن لاتكـون زوجـة لغير أبيه. وفي التحفة: إذا لم يوجـد لـه ولي أو وجـد حـاكم جـائر وجب على المسلمين النظر في مال المحجور وتولي حفظه له إنتهى.

وهذه الآية الشريفة تـبين حكم حفـظ أمـوال اليتـامى فيمـا إذا لم يكن قاضٍ شرعي يراعي أموالهم ووقع عدّة من اليتامى تحت يـد واحــد من إخوتهم فله أن يخلط أموالهم بماله ويراعي المصلحة فيها بأن يـبيع مـا يشرف على الضياع منها ويحفظ ثمنه لليتيم، ويترك الأموال التي تـدوم كالعقار والمسقفات للإستفادة منها، ويصرف من مستغلات أمـوالهم أو من أعيان رؤوس الأموال في نفقاتهم، وَليقـدم الأحـظّ بـالبيع بـأن يـبيع الفروش الزائـدة، ثم الحيوانـات الـذكور، ثم مـا طعن في السـن منهـا. فإذا تصرف كذلك فقد أدّى واجبـه الشـرعي. ولا يمنـع هـذا الخلـط من أكل أطعمة الإخوة الكبار إذا كانت التصرفات على ما ذكرنا لأنه غاية ما يمكن تطبيقه هنا، وأما فصل طعام اليتامى وشرابهم عن طعـام الـبيت فدونها خرط القتاد. ولا يمكن عادةً تطبيقها.

وإذا اجتمع وجوه القرية وجعلوا أحد الإخوة قيّما على الأيتـام وأمـوالهم فـذلك حسـن بـل واجب حـتى تكـون تصـرفاته مندرجـة تحت الأصـول المشروعة.

وأما تصفية أموال اليتامى ببيعها لأحد الإخوة وصرف ثمنها في نفقـاتهم فهذا شيء إثمه أزيد من برّه، وفساده أكثر من خيره، لأن بقــاء رؤوس أموالهم أنفع لهم بدرجات. ثم لا موجب لهذه المعاملة والمشـتري غـير مؤتمن للمستقبل حتى يرد على اليتامى أثمان أموالهم أو ينفقها عليهم إنفاقاً معتدلاً مشروعاً.

علاوة على ذلك فقد يترتب على ذلك بعد بلوغ اليتامى مشاحنات وفتن كاد أن يقتل بعضهم بعضاً. وقد جربت هذه الأمـور مـرّات. نعم إذا كـان هناك قاض يبيع أموالهم ويحفظ أثمانهـا أو يسـتنميها بصـورة مشـروعة كان ذلك احسن وأنفع.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تهديد وتحـذير لمن ولى أمـر اليتـامى وأمـوالهم بـأن اللـه عـالم بـأحوال المفسـدين والمصـلحين وسيجزى كلاً منهم على حسب أعماله.

وقولـه: ﴿وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي ولـو شـاء إتعـابكم لأتْعَبكم بـأن يُكلفكم بفصل أموال اليتامى عن أموالكم وإدارتها معهم وإن كـان هـذا العمل صعباً جدّاً لكنه من فضله الواسع لم يكلفكم بذلك، وسهل عليكم الأمر بإباحة مخالطتهم والمسـامحة عن اللمم. فعليكم برعايـة الحـرام والحلال ومخافـة الملـك المتعـال إن اللـه عزيـز لا يمتنـع عليـه شـيء، وحكيم يتصرف في ملكه بما يريد.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَـةٌ خَيْـرٌ مِنْ مُشْـرِكَةٍ وَلَـوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُـوا الْمُشْـرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُـوا وَلَعَبْـدٌ مُـؤْمِنٌ خَيْـرٌ مِنْ مُشْـــرِكٍ وَلَـــوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَـــدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَـــدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221)﴾

روي أنه صلى الله عليه وسلم بعَث مَرثدا الغَنَوِيّ إلى مكة ليخرج منهـا أنُاساً من المسلمين، فَأَتَتْه عَناقُ، وكان يَهْواها في الجاهلية، فقـالَتْ: ألا نخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا. فقالت: هل

لك أن تتزوج بي؟ فقال: نعم ولكن اَسْتأمِرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمره، فنزلت.

ومما ينبغي أن يعلم أن النكاح مشروع في الأديان السماوية كلها، وتقرر في دين الإسلام على أحسن وجه وأوفقه بحياة الإنسان السعيد، فمن راعى آدابه سعد في الدارين فهو في حد ذاته وسيلة لاستيناس الإنسان بالإنسان، وقضاء حاجة النفس وكبح جماحها في الميل إلى العدوان، وطريق للتناسل واستمرار سلسلة الرجال والنساء في العالم، والحجر الأساس لبناء المصاهرة الموجبة للتعاون والتكاتف والتراحم بين الأفراد والقبائل، ووسيلة تكثير سواد الأمة السعيدة الصالحة المسلمة في تعمير الأرض بالعلم السليم والعمل الصالح. وعلى ذلك الأساس وردت أحاديث شريفة في الترغيب فيه واختيار الأكفاء، ورعاية الدين والحسب، حتى تحصل النتيجة المرغوبة المباركة، ويعيش الرجال مع النساء بكرامة ومحبة واحترام.

ومن أهم النتائج: الإعفاف، يقول صلى الله عليه وسلم: ((يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فانه أغض للبَصَر وَاَحْصَنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليهِ بالصوم، فإنه له وِجاءٌ)). والباءة: النفقة. والوِجاء: القطع للشهوة النفسية.

والرجل بالنسبة إلى الزواج لا يخلو إما أن يكون تائقاً محتاجاً له أوْلا، وعلى كل فإما أن يكون واجداً للأهبة أوْلا، فهو مستحب للتائق الواجد للأهبة إن لم يخف العنت، وإلا فيجب عليه صيانة لدينه. وأما الفاقد لها فيستحب له الصوم إن أمكنه واندفعت به شهوته. وإلا أبيح له النكاح، وعليه الكسب لتحصيل النفقة بقدر الإمكان. وأما غير التائق فيكره له النكاح إن كان فاقداً للأهبة، أو واجداً لها وبه علة تمنعه من إعفاف الزوجة، وإلا فإن تخلى للعبادة فهي أفضل، وإلّا فالنكاح لئلا تقضي به البطالة

إلى الفواحش. وفي غير التائق الفاقد للأهبة قد يحرم النكاح إذا أفضى إلى إفساد زوجته. وبالجملة فالنكاح دائر بين الأحكام الخمسة من الوجوب، والحرمة، والندب، والكراهة، والإباحة. والتفصيل في الفقه.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو في عقد حلال في ذاته أي لم يكن هناك تحريم لعينه أو لسبب في العقد، وإلا فقد يكون النكاح حراماً لعينه، لنسب وهو نكاح الأم والبنت والأخت والعمة، والخالة، وبنت الأخ، والأخت، أو لرضاع وهو كالنسب، أو لِمصاهرة وهو نكاح زوجة الأب والابن، وزوج البنت أمّها وزوج الأم المدخول بها بنتها أو للجمع، كالجمع بين المرأة وأمها أو اختها أو عمتها أو خالتها. وبين أكثر من أربع زوجات. وإما لاشتباه مُحرمة بأجنبيات محصورة. أو لسبب في العقد وهو نكاح الشغار، والمتعة، ونكاح من دخل في الإحرام بالحج أو بالعمرة، ونكاح المعتدة، والكافرة غير الكتابيّة.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ المراد بالمشركات ما عدا الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات. وهن: الوثنيات، والمجوسيات، والملاحدة المعطلات اللاتي لا يعترفن بربّ العالمين. وأما الكتابيات، وإن أسند إلى اليهود والنصارى الإشراك لكن شرف أصل الكتاب والإيمان به حسّم تلك الوساخة. بدليل أن الله تعالى فرق بينهما بالعطف فقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ففرق بينهم في اللفظ، وظاهر العطف التغاير بين المتعاطفين وأيضاً فالمشركات عام قابل للتخصيص، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ نصّ، وهو أقوى

من العام فيتخصص به. فيجوز للمسلم نكاح الكتابية قبل الإسلام. لكن الإمام الشافعي رضي الله عنه إشترط في الجواز إثبات كونها كتابية قبل النسخ والتحريف. وذلك متعذر، فلذا لا يصح نكاحهن له قبله.

ومنعُ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه طلحة ابن عبيد الله،. وحذيفة ابن اليمان عن إمساك الزوجة الكتابية كان رعايةً لمصلحة الإسلام حتى لا يختلط المسلمون بالكتابيين بالمصاهرة. فمعنى الآية الشريفة: ولا تنكحوا النساء المشركات حتى يؤمن، وأما الكتابيات فلا مانع من نكاحهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ إخبار بأن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات حَسَبٍ ومالٍ. نزلت في شأن خنساء وهي وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت في الملا الأعلى مع سوادكِ، وأنزل الله تعالى ذكركِ في كتابه، فأعتقها حذيفة وتزوجها.

فمعنى قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أنها ولو كانت المشركة ممن تعجبكم بجمالها أو بمالها أو بسائر وجوه الحسن فيها ما دامت هي مشركة فالأمة المؤمنة خير منها للأمن من غوائلها في العائلة وسائر وجوه المعاشرة.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ كلمة المشركين فيه عام لجميع من يستشم منه رائحة الإشراك كتابياً أو وثنياً أو مجوسياً أو غيرهم. وليس في دين الإسلام ما يؤخذ منه جواز إنكاح المسلمة من الكافر، ومن هنا أجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة لما في ذلك من الحقارة والهوان على الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ﴾ الآية أي ولعبد مملوك مؤمن خير لاختياره للمصاهرة من مشرك حسيب ولو أعجبكم ماله وجماله وحسبه.

ثم أتى الباري تعالى لتعليل الحكمين بقوله الكـريم ﴿أُولَئِكَ يَـدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي أن المشـركين والمشـركات يـدعون إلى العقائـد والأعمـال الموجبة لـدخول النـار والخلـود فيهـا، وقلّمـا يسـلم أهلهم وأولادهم من فسـاد العقيـدة والعمـل. واللـه يـدعو إلى الجنـة بدعوتـه إلى العقائـد السليمة والأعمـال الصـالحة والمغفـرة دعـوة متلبسـة بإذنـه وتوفيقـه، ويـبين آياتـه للنـاس في النكـاح وغـيره بـالأمر والنهي، لعلّهم يتـذكرون ويتعظون بها ويَصلُون إلى سعادة الدنيا والدين.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَـاعْتَزِلُوا النِّسَـاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)﴾

عن أنس بن مالك: أن اليهـود كـانوا إذا حاضـت المـرأة فيهم أخرجوهـا مِنَ البيت ولم يؤاكلوها ولم يشـاربوها ولم يسـاكنوها، فسـأل الصـحابة رسول الله صلى الله عليـه وسـلم عن ذلـك، فـأنزل اللـه الآيـة. فقـال صلى الله عليـه وسـلم ((إصـنعوا كـلَّ شـيء إلا النِّكـاحَ)). رواه مسـلم والترمذي.

وقولـه تعـالى: ﴿وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي عن أحكـام الرجـال في قربان النساء عند الإبتلاء بالمحيض. وقولـه ﴿قُـلْ هُـوَ أَذًى﴾ أي قـل في جوابهم: إن الحيض شيء مستقذر مؤذٍ لمن يقربه نفرةً منه ﴿فَـاعْتَزِلُوا النِّسَــاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فــاجتنبوا مجــامعتهن في وقت المحيض وليس عليكم الإعتزال عنهن

في المأكل والمشرب والمسكن، ولا الإبتعاد عن طعام يهيّئه ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع الحيض عنهن ويغتسلن بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإذا إغتسلن وتنظّفن فجامعوهن من المحل الذي أمركم الله به وحلله لكم إن الله يحب التوّابين أي الرجاعين إلى الله تعالى والواقفين عند أمره ونهيه بالإمتثال والإجتناب ويحب المتطهرين المبتعدين عن الأوساخ والأقذار.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)﴾

لما كان في قوله تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله خفاء بينه بقوله الكريم ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ أي مواضع حرث، واستعمال نافع، ووضع بذر لكم. فأتوا حرثكم واستعملوه وانتفعوا بالحرث ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي من أيْنَ شئتم أي من أيّ جهة شئتم الإتيان بالحرث، وكيف شئتم على القعود، او على الإمتداد، ومتى شئتم أي زمان مالم يظن الإضرار بها في ذلك الوقت ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ما يصلح للتقديم من: نية الإعفاف، والإستيناس، والنسل الصالح، والتسمية في بدء العمل... واتقوا الله واحذروا مخالفته في الأمر والنهي، واعلموا أنكم ملاقوه بالبعث والحساب فيجازيكم بأعمالكم، فتزودوا ما ينفعكم وبشر المؤمنين بحسن الثواب يوم الدين.

ومما ينبغي أن يعلم أنه يستفاد من الآيتين حرمةُ مجامعةِ النساء في أدبارهن من وجوه:

الأول: من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ لأنه مادام وجب إعتزال النساء في وقت الحيض لأن دم الحيض أذى يستفاد

وجوب إعتزال النساء من الأدبار فإن أذى النجاسات المحلولة المتعفنة أقوى من أذى دماء الحيض. فالقياس جليٌّ وأولويٌّ.

الثاني: من قوله تعالى ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ لأنه يستفاد أن لا إتيان إليهن إلا مع الطهر والنظافة للمحل المستعمل. ومع تحقق النجاسة في الدبر أو توهمه لا مجال لإتيانه منه واستعماله.

الثالث: من قوله تعالى ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ لدلالته على أن الله لا يحب المتقذرين المتوسخين.

الرابع: من قوله تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ لأن كل عاقل يعلم أن الحرث محل نشر البذر للنبات، والأدبار مَضْيَعةٌ للبُذور ومُثيرةٌ للشرور، فلا مجال لإلقاء البذر فيها وإضاعتها.

الخامس: من قوله تعالى ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ حيث أكد على الإتيان من الفرج حيث لم يقل نساؤكم حرث لكم فأتوهن. وقال فأتوا حرثكم.. حتّى لا يَتَوَهّمَ أحدٌ أنّ إتيانهن جائز من أيّ منفذ كان.

السادس: من قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن نية النسل الصالح وبقاء الدين في أهله إنما تتحقق في إتيانهن من القبل فإنه هو المظنة لحصول النسل الصالح واستمرار الخير في بيته.

السابع: من قوله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأن الأمر بالتقوى يجلب النظر، ويدعو إلى الإبتعاد عن الشبهات كالإتيان من الأدبار.

الثامن: من قوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين هم الواقفون على ظواهر الآيات المبتعدون عن الشبهات، والله اعلم.

فهرس الكتاب